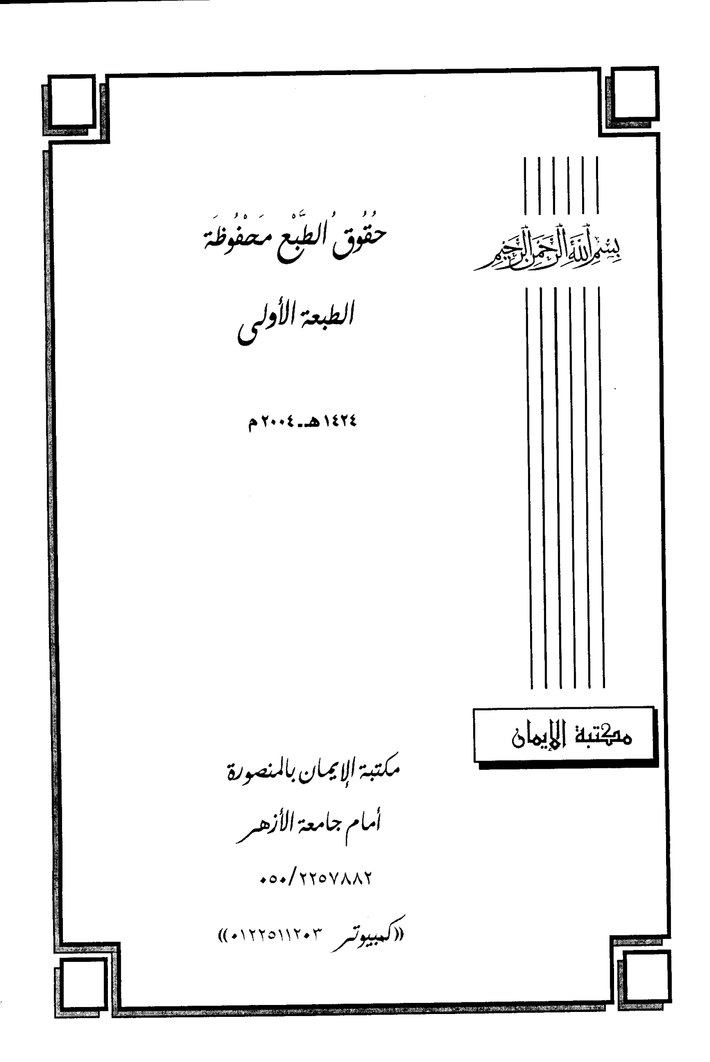

مع الأسرة
دكتور
محمد محمود عمارة
الناشر
مكتبة الإيمان - بالمنصورة



الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

«كمبيوتر ٠١٢٢٥١١٢٠٣»

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في حلقة من سلسـة «المبارزات الانتخـابية» علق أحد المرشحين لافـتة ونقش فيها:

«انتخبوا «مؤسس مديرية التحرير» . .

وفي اليوم التالي وجدنا واحدًا من منافسيه يعارض اللافتة بأخرىٰ كتب فيها:

«انتخبوا الذي لم يؤسس مديرية التحرير!!».

وتشم من اللافتـة الثانيـة رائحة الاستـخفاف بما يبـاهي به الخصم. . والتقليل من شأن هذا الإنجاز الذي لم يكن في حسـابه شرفًا يدعيه . . وما خسر بفوته شيئًا يبكي عليه!

●●●

وفي معـهد «مـصرانة» الديني فـي ليبيـا زارنا العالـم المصري الكبـير «مفتشًا».

وكانت الحـصة «درسًـا في السيـرة النبوية» وكان من حـسن حظي أن أعجب المفتش بما رأىٰ وبما سمع . . ثم جاء التقرير يناشد داعيًا إدارة المعهد[1] إلىٰ إسناد «مقرر السيـرة» وعلىٰ كل المستويات إليّ . . لكنه عقب علىٰ ذلك

---

(١) كان مدير المعهد هو: د/ عبد السلام التربكي - وزير خارجية ليبيا الآن.

. . فكتب في ذيل التقرير:

سألته عن: «دفتر التحضير» فاعتذر بنسيانه؟!!

ومهمة «دفتر التحضير»: أن تذكر فيه ما سوف تقوله غدًا. .

وقد سمع الشيخ ما أسعده: سمع ما قلته فعلاً وعلى الطبيعة. . وإذن . . فما فاته شيء يبكي عليه بعد ما سمع ما لم يكن يتوقع!

ذكرت هذا لتلميذي الذي قال لي:

أنت «متهم» بأنك لست أكاديميًا!؟

وقصاراك أنك «متأدب» يحاول أن ينقل شعوره إلى قلوب الآخرين . . وأفكاره إلى عقولهم. . غـير مرشح للنظرة الشاملة للقضيـة التي تعالجها. . وإنما أنت مـجرد غـواص. . وراء أبكار المعاني. وعـرائس الخيـال . . التي تحاول اقتناصها . . لتشرق من سمائك على الناس نجومًا. . أو رجومًا!!

وأنا سعيد بأنني لست «أكاديميًا»: لا أمارس نشاطي تحت مظلة الباحث الدءوب . . المسجون في قاعـات البحث والنظر . . وإنما أنا مجرد «واعظ» يجوس خلال الديار مع قافلة الإصلاح. . أحاول أن آخذ بيد الحائر. . حتى يضع قدمه على الطريق اللاحب الواسع:

يذوق حلو الحيـاة ومرها. . ثم أصب إحســاسي على الورق. . فلعل الله (تعـالى) أن يهدي بي رجـلاً واحدًا يكون في مـيزان حـسناتي أثقل من حمر النعم!

وقلت لتلميذي الجديد الناقل لما سمعه عن تلميذي القديم؟!

شِنشِنة أعرفهـا من أخزم!! إنه «الطبيعة» التي تؤكد لك الشـبه الجامع بين مدرسة معينة لا يعجبها العجب ولا الصيام في شعبان رجب؟!

لقد تشابهوا في الطبيـعة والخلق. . وإن أحدهم ليتكلم حين يتكلم. .

ويكتب حين يكتب . . على ... من الأثير . . أو مساحة من الورق بالكلام .
أما نحن . . فأولئكم الشيوخ الذين يتحركون على مساحة من الأرض . .
مع الأرامل والأيتام!

والمسافة واسعة واسعة بين لغة الكلام . . ولغة العرق . . والدموع . .
وإذ يضن تلميذ على شيخه . . فيتأثر بلقب «أستاذ التفسير» الذي انفرد به دون شيخه . . فإن مما يسعد الشيخ لمعاني أن يكون أستاذ «ما بعد التفسير» ومِنْ هذا الذي «بعد التفسير» مجلس الصلح الذي حقن الله به الدماء . . دماء الإنسان وكان له شرف الإسهام فيه .

لكن أنى لـه أن يدرك ذلك . . وهو رهين المجلس . . في حجرته المغلقة : يشقق . . ويدقق . . حول آية ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات : ٩] ليصدع رأسك بأراء العلماء في معنى الطائفة . . والإصلاح . . وحدود التدخل .

يفعل هذا . . بل يكتب هذا بينما الدماء تنزف . . فلا يحس بها . . والآهات تشكو ظلم الإنسان إلى خالق الإنسان . ولكنه لا يسمع . . في الوقت الذي كان هناك من حرم فضيلة الأكاديمية . والذي آثر أن يفسر الآية عمليًا . . وميدانيًا . . آثر أن يقتل الحية الرقطاء بالسيف بدل أن يجرد قلمه ليسهب في وصف الحية التي سوف تلدغ المريض . . ثم تعزه بثان هو هذا الأكاديمي . . المرموق!!

مثال:

قالت الزوجة:

عندي من الأولاد : خمس . .
بنين وبنات . .

وإذن.. فلا حاجة لي من بعد إلى ولد!!

فهل عليّ إثم.. لو أنزلت الجنين من بطني والذي لم يتخلق بعد؟!

قلت لها:

كان سليمان (عليه السلام) ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ [ص: ٣٠] وهو رزق داود (عليه السلام). وبعد سن السبعين وإذن فلأننا لا ندري أيهما أصلح: الموجود.. أو الموعود. فلنرض بما قسم الله (تعالى). فلعل الخير معقود بناصيةهذا الجنين.. الذي نحاول أن نضن عليه بالحياة. وهكذا: يحيي الله نفسًا.. وبالكلمة المخلصة المستغنية عن قائمة البحث.. وعقل الفيلسوف!!

ويحضرني الآن قصة الفتى «ملاح السفينة» التي حفلت بمجموعة من العلماء من كل التخصصات:

قال أحدهم للفتى «المراكبي»:

هل تعرف شيئًا عن الجغرافيا؟

فلما جاءه الجواب بالنفي.. سأله ثان وثالث عن مدى معرفته «بالنحو والصرف» وكان الفتى صادقًا مع نفسه حين أجاب بالنفي أيضًا..

وأراد ربك أن تهب عاصفة عاتية على السفينة الماضية.. فترنحت تحت ضربات الرياح الهوج.. حتى لم يعد هناك أمل في النجاة.. إلا أن تداركهم (رحمة من الله)...

وحان الوقت الذي يسألهم الفتى خبرتهم للنجاة بالسفينة.. فأعلنوا إفلاس النحو والصرف والجغرافيا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه!!

ولكن خبرة الفتى أنقذت الموقف الذي كان سخرية من علم العالمين: الشطار في توليد المعاني... ثم دفنها في أكفان التكلف.. قبل أن يستمتع بها أحد!

وانتصرت إرادة الفتى . . على نظريات البـاحثين الغارقين في كيف . . وقيل . . وقالوا ! !

انتصرت في مـوقف واحد . . يسامي كل ما عداه من مواقف التـشقيق والتدقيق . .

موقف بدا فـيه «المراكـبي» نسرًا يضـرب بجناحيـه في جو السـماء . . متـربعًا من قلوب شـانئيه منـزلة الاحترام . . حين اسـتقـام حاله . ونال من الصيت ما لا ينال أمثاله ! . . من العلماء الذين فـشلوا فيما نجح فيه ، شاب قليل العلم . . ولكنه غزير التجربة .

[الحق : بلا تزيد ولا تردد]

ولا يعني ذلك أن «الأكاديمية» داء ينبغي تلافيه :

(فأنت لا تسمي نفسك عدوًا لـلهواء . . لأنك عاجز عن الطيران . ولا تسمي نفسك عدوًا للماء . . لأنك عاجـز عن السباحة . . ولا تسمي نفسك عدوًا للسم . . لأنك لا تبتلعه إذا وجـدته . . ولا تسمي نفسك عدوًا لملايين الجنيهات التي لا تجدها . . ويستحيل أن تجدها) .

وإنما الحق هنا : التـسليم بأن كلا يـعمل على شـاكلته . . وأن التنظيـر والتبويب إذا كان له رجاله ومجاله . . فإن للأدباء مكانهم بل مكانتهم، التي ينبـغي أن نفسح لهـا من صدورنا حـتى يؤدوا دورهم في التمكين لما يـقرره العلمـاء من مبـادئ وأخلاق . . تصـير بـالأدب منهلاً : ينبـوعًا يشـرب منه الظامئون . . ويرتوي العطاش .

وإذا كنا نؤمن بقانون التنوع، كواحد من قوانين الحياة :

(فالكتابة السيـاسية مثلاً يناسبهـا الأسلوب المتدفق . . المرسل . . سريع الإيقاع، لا يقيده السجع) .

وهو مما يناسب حماس الشباب، الذين يحملون خلف ضلوعهم قلوبًا فائرة ثائرة، إذا كنا نسلم بذلك. بل نستسلم له.. فلماذا نضن على الأدباء أن تكون لهم مواقع في مملكة البيان؟!

في مجال التطبيق:

قال الفتى المتحمس:

أنا لا أسمع إلا برنامجًا واحدًا في إذاعة القرآن الكريم.. هو ذلك الذي يوافينا بأحاديث كبار الشيوخ.. زمان!

وقلت له: وبقية البرامج.. أنت محتاج إليها لتنشئ في قلبك وعقلك قابلية «الاستمتاع» بما «تسمع» من حكمة الشيوخ!..

من دروس المجربين:

(كان عبد الله النديم[1] يغشى المجالس الأدبية التي ليس لها منهج):

فيسمع شعر الشاعرين.. ونوادر المتماجنين وقصائد الراوين.. فيصغي إلى كل ذلك في فهم كأنه كله آذان، ويدرك من غير وعي أن هذا بابه. وهذا فنه..

وأنه إنما خلق لهذا.. لا للنحو والصرف، فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك. وأن يسير في هذا الطريق، وقد منح حافظة لاقطة، وقدرة على التقليد فائقة. فأخذ يحاكي بعد ما اختزن. ويغنِّي بعد ما سمع. وإلى جانب ذلك.. تعلم درسًا لم يتعلمه نوابغ معاصريه.. وهو:

(أنه نشأ في صميم الأحياء الشعبية. مع رهافة حسه. ويقظة نفسه، وفقره وبؤسه.. وقد علمه ذلك أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب

---

(١) أحمد أمين: «زعماء الإصلاح» (٢٢٢، ٢٢٣).

وأدبه . . فرســم ذلك كله في نفســه لوحات كــان لها أكــبر الأثر في حــياته الأدبية المستقلة والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وهفهفة الأغـصان، ودبيب النمل، وحلاوة البسمات، وأدق مــجاليّ الجمال والقبح . .

ثم تعرف كيف تستخدم ذلك كله في فنها متى آن أوانه) .

والقضية في النهاية تتقاضى «العـقلية المنهجية» أن تفسح مكانًا للقلوب الشجية . (فإن زفرة واحدة من قلب مظلوم . . تحرق العالم كله!) .

(وإذا كانت الأرض التي تنبت التفــاح لا يشترط أن تكون أخصب من أرض تنبت «الكرات» فإن التفاحة تظل أغلى وأحلى؟!!

ويكفي أنها «تفاحة» !

والخـــمــر إن قـلت ابنة الـعنب   تظل أغلى عن سائر الألقـاب والأوصاف

ويظل الأدب يذّكر من الناس من كان ناسيًا ويشحذ من العزائم . . ما كان خابيًا :

يصور مشــاعر النفس . . ويصف مشاهد الحياة، فـإذا أنت أمام فوائد فرائد : تســتوعبــها القلوب استـيعاب الأرض العـطشى ماء المطر . . وإذا هو كتيبة في ميدان البيان :

يغلب بحروف البيان.. لا بسيوف القتال

ولو شـئت سـيـرت القـوافي جـحـافـلا

وأوقـرت أسـمـاعًـا.. وكـان لي الفـوز

مع السعدي الشيرازي:

لم يكن «السعـدي» عالمًا، ومع ذلك فقد كـان في إنسانيته عـالمًا! وقد أهلته نشأته وإحساسه المرهف على أن يكون رجلاص عالميًا:

فارس بنشأته، إنساني بمبادئه.. ومواعظه:

(وقع أسيرًا في قبضة الافرنج، وسخَّروه مع جماعة من اليهود في بناء قلعـة طرابلس، ثم قيَّض الله له أحـد حكام حلب ـ وكانت تربطه بالـشيخ سابق مـعرفة ـ فأنقـذه من أسره، ثم عاد به إلى حلب، ليزوجـه من ابنته، ولكن الزوجة ترى فـي زوجها غـير ما يرى الناس في الشـيخ.. وتكره من زوجها ما يحبه الناس فيه. ويُجلُّونه من أجله..

فـبرمت به وتنكـرت له، وسامـته مـن سوء عـشرتهـا مـا ناء صبـره باحتماله.. ففرَّ بوقاره إلى شمال إفريقيا).

ألا إن (البلبل يسـبِّح الله على وردته، وكل شـوكة مـنها لسـان ناطق بتسبيحـه، وأوراق الأشجار الخضراء، كل منها دفتر لمعرفـة الخالق (سبحانه وتعالى).

.. والناس والشجر والدواب وعـوالم الوحش، والنمل وكل ما خلق الله في صياح بذكره.. وإن من شيء إلا يسبح بحمده.. والمجموع البشري جسد واحد، وبـنو آدم بعضهم أعضاء لبعض: إذا اشـتكى منه عضو تداعى له سـائر الأعضـاء بالسهـر والحمى. وليس بآدمي من لا يتـألم لألم أخـيه الإنسان.. والعبادة الحقة لا تكون بغير نفع الناس.. والبدار إلى غوثهم في الملمات).

(إنه صوفي في جـوهره، لا في مظهره، كل ما يـعنيه: أن يكون المرء على صفـات أهل التصوف الصادقين. ولـه بعد ذلك أن يعيش كمـا يشاء،

ويستطيع المرء أن يكون صوفيًا صادقًا، وهو متربع على التخت، وعلى رأسه التاج. ويستطيع أن يكون في خلوة مع الله، وهو يزاول تجارته وزراعته).

(إن العالم عنده خير من الصوفي، هذا يسعى في خلاص الناس.. وذاك يسعى في خلاص نفسه. ونفع البشرية وسيلته إلى الله، والإخلاص معراجه إلى السماء). **وصدق العقاد حين قال:**

إنهم رواد الأمة: (محكوم عليهم أن يكونوا أطول قامة والناس أقزام، وأن يكونوا أقوى بصيرة والناس عميان. فإما أن يكون الإنسان بطلاً معتزلاً الناس، وإما .. لا بد أن يعتزل. ليكون شيئًا ممتازًا.

ما من صاحب رسالة إلا وجد نفسه مضطرًا أن يحملها ثقيلة على قلبه وعقله.. ثم انفرد بها بعيدًا.. يتهيأ لها قبل أن يلقى الناس :

فكان للرسول (ﷺ): غار حراء. إذن فليس عيبًا أن يكون الإنسان بعيدًا وحيدًا.. وأن ينكر الناس ذلك.. أو لا يعجبهم ذلك، أو يتألمون ويتقوَّلون: فالتاريخ، لا يعرف الكثير عن الذين أكلوا وشبعوا..

ولكنه يعرف الكثير عن الذين جاعوا ، وثاروا، وصاموا، وزهدوا، من أجل أن يوفروا للأغلبية الهائلة سبيل الهداية، إلى الطعام المادي والعقلي)[1].

ونفثة العقاد هذه.. تذكرنا بما قاله عنه مريدوه:

[وكنا نعرف ما الذي يحدث عادة إذا تحدث أحد أساتذة الجامعة، إلا الأستاذ الذي أكمل تعليمه الابتدائي فقط، والذي لم يدرس في الجامعة، ولا دعاه أحد لإلقاء محاضرة فيها، ولما قيل للأستاذ يومًا:

(١) صالون العقاد «أنيس منصور» (١٠٧).

إن الجامـعة تفكر في إعطائك الدكتـوراة الفخرية . . غضب «العـقاد» قائلاً: ومن الذي يمتحن العقاد؟!!).

●●●

شركاء..

غير متشاكسين:

فليـمض الاثنان مـعًا على الطريق: الأكـاديمي . . المنهـجي، والأديب الشاعر الحساس. أما محاولة الانفراد بالساحة. فوهم وغرور . . وخيال.

قال صاحبي:

أما سمعت من يقول معرِّضًا بك: أنا أستاذ التفسير . .

فقلت له: لقد صدق:

فهو أسـتاذ التفسـير: يشرح الآية وأنا أستاذ مـا بعد التفسـير: أشرح الواقع تشريحًا كاشفًا عن موطن الداء . . وصولاً إلى ما نرجوه من شفاء! .

يقول أنيس منصور: (الأكاديميـة منهج قاس، جاف. اختناق منظم . . ولكن لترى أوضح. وتسمع أصفى فلا بد من «عزلة مقدسة»: عزلة الرهبان في الأديرة والعلماء في المعامل . . والزعامات في القمم عزلة حيوان اللؤلؤ: يفرز مادته الفضية وحده . . بعيدًا عن بقية الحيوانات البحرية.

وحدة دودة القـز: تفرز حـريرها. وحدة الجنين في بطن أمـه. وحدة يوسف في البـئـر. وحدة يونس في بطن الحـوت. وحـدة النبي (ﷺ) في الغار. وحدة علماء المراصد: يعلقون عيونهم بين النجوم.

ولقد كانت سفينة نوح وسط الطوفـان خلية معزولة عن الحياة. ولكن من هذه الخلية المنعزلة راحت الدنيا تضج بالحياة).

وأحيانًا تجد باحثًا كالنملة، يكدس المعلومات . . لكنه لا يمتص رحيقها

إنها معلومات مكدسة لا مقدسة!! إختفى فيها الاجتهاد: استنباطًا وتحليلاً . .

ولكن الأديب كالنحلة وليس كالنملة:

والنحلة: تطوف ما تطوف . . راجعة برحيق الزهور من كل لون . . ومذاق . . ثم تقدمها للناس شرابًا طهورًا . . فيه شفاء للناس.

●●●

فإذا الحياة:

(أعطر من زئبق الحقل. وأطهر من ثلج الجبل).

أجل:

إذا الحياة . . أجمل

وإذا البشر . . أكمل

وإذا كان الأديب . . لا يصرح . . فإنه يلمِّح

وإذا لم يوضح . . فإنه يلوِّح !

●●●

والسعي الدءوب . .

[يفتح كل الدروب]

●●●

أن تكون من «تنابلة السلطان»

فهذه متعة . .

ولكنها المتعة الزائفة...

إنها امتلاء . . لا يعقبه شبع

وشراب . . بلا ارتواء

وأنت مطالب بأن تتعلم ممن
حولك..
في مملكة الطير ..
ومملكة الحيوان..
لقد حلق العصفور عاليًا في الآفاق ..
ثم حط على الشجرة التي احتضنها
غير مبال بأشواكها.
ولقد مات فعلاً وهو ينزف..
ولكن بعد أن صبغ أكمامها
بحمرة دمه!

•••

ثم انظر إلى «الهر»:
إذا ألقيت إليها بقطعة اللحم.. فإنه
لا يتناولها سهلة..
وإنما يفتعل معركة وهمية:
إنه يدور حولها.. كأنما يحاول إقناع نفسه بأنه
لا يقبل غنيمة باردة ..
وإنما يحصل عليها بعرق جبينه.
وصدق القائل:
ومن وجد مشتهاه حاضرًا بين يديه..
فقد حرم لذة السعي.. لأنه خرج عن قانون الأخذ والعطاء.

إنه فقدان الاشتهاء ثم الوجدان!

وإذن . . فلا بد من الاحتكاك الساخن بالواقع المر . .

فالوردة تفقد كثيرًا من بهائها . . لو سقطت أشواكها . .

لأنها عند إذن: جمال . . ولكنه مستباح

●●●

وقديمًا عرض أحد الأغنياء على فتى فقير أن يكفله!

فقال له الفتى:

وتحييني إذا مت؟!!

●●●

وسقى الله تلك الأيام:

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى

والعيش . . بعد أولئك الأيام

●●●

في مجال التطبيق

خذ مثلاً قضية الطلاق:

بعض الباحثين يعالجها منهجيًا، مبحرًا في خضم المراجع . عائدًا بفصوص الحكم التي ينسج منها ثوبًا سابغًا . .

ولكن الأديب قد يشتغل بفكرة . ثم يفاجأ بما يصدم إحساسه، فإذا هو أمام مشهد آخر لا يستطيع الإفلات من قبضته . . فلا يملك إلا أن يمضي معه . . لينتهي معه حيث ينتهي.

فإذا كان الباحث المنهجي . . يحاول تحديد الطلاق البدعي . . والسني . . والبائن . . والرجعي . . مُفصلاً القول فيما يجوز وما لا يجوز . .

فإن ذلك ـ على أهمـيته البالغة ـ لا يغني عن الاحـتكاك بالناس والأحداث وراء العــلاج الـناجح والعــملي . . حــتى يـكون الطلاق سـنيـا . لا بدعيًا . .ورجعيًا لا بائنًا!

وإذا كـان الباحث هناك رهين مـحبـسـه . . يبحث ويقلب الأمـور . . ويوازن ويختار . . فإن المصلح الاجتـماعي . . هو ذلك الطبيب الذي يحمل المبضع . . في محاولة لاستئصال الداء . .

وقد يخرج من مجلس الصلح مثخنًا بالجراح . . لأن كلمةالحق لم تبق له صديقًا . .

ولكن متـعته الكبـرى أنه لا يتحدث عن المشكلة ولكنه فـي صميمـها كاشفًا عن ساق . مشمرًا عن ذراع . في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وهذا ما أحاوله في هذا الكتاب الذي كان خلاصة أيام وليالٍ . . عشتها في خضم الأحداث . . بينما الباحث المنهـجي هناك في مخدعه الوثير . . لا يرى خارج بابه عوجًا . . ولا يسمع همسًا!!

●●●

ومن المستحيل أن تكون منهجيًا . . لأن أصحاب المشكلات لن يتركوك مفكرًا . . وإنما يريدونك معهم . . ليجدوا في رأيك برد السلوى . .

●●●

عصر السرعة:

يضاف إلى ذلك أننا في عصر السرعة . . وهو العصر الذي لا يتحمل النفس الطويل... بينما الأعـصاب مشدودة . . والخطر داهم . . ينذر بـانهيار الأسرة!

يقول الدكتور طه حسين:

(نحن نعيش في عـصر ما زلنا نسمع أنه عصـر السرعة.. يقصـر فيه الوقت مهـما يكن طويلاً عمـا نحتاج إلىٰ أن ننهض به من الأعـباء التي لم تكثر، ولـم تثقل علىٰ الناس فـي عصر من العصور كمـا تكثر وتثقل وتتنوع وتزدحم في هذه الأيام.

●●●

وهذا كله يحمل علىٰ أن نؤثر الإيجاز علىٰ الأطناب، ونقـتصر إلىٰ ما يلائم وقتنا القصير وعملنا الكثير «**جنة الشوك**».

●●●

وما أسعدك بدورك. حين تجوس خلال الديار... عضوًا في مجلس من مجـالس الصلح.. لتكون ذلك الرجل الذي طوّف: فـرأىٰ.. وعايش.. لقد ذهب.. ثم كـتب.. مستمـدًا أفكاره من هذه الينابيع المتدفقـة بمختلف الأفكار.

الأفكار التي تصبح بين أنفاسه

نَفَسًا.. وفي عروقه دمًا..

فيحس المعاني مجسدة..

يحس المرارة مركزة..

والندم كثيفًا..

والرغبة في الخلاص هائلة.

ترىٰ العواطف والانفعالات.. علىٰ حقيقتها.. عن كثب.. لا عمن كتب! فـإذا أنت مدرك تمام الإدراك تفـسيـر الآيات الكريمة.. ممثلة في هذا الواقع الذي كان واضح الملامح في أضواء هذه الآيات..

في الوقت الذي يصير فـيه «الأكاديمي» مقيدًا: ومهـما يكن حريريًا أو حديديًا.. فإنه قيد على أي حال!!

وتبقى أوراق البـاحث النظري أوراقًا هنا وهناك.. إنهـا على أي حال عملة ورقـية لها قيمـة.. ولكن تظل التجربة الحـية هي غطاؤها الذهبي.. الذي لا قيمة لها إذا نفد.

●●●

(إن الغريق لا يريحه وهو يغرق أن يأتي له إنسان بأنبـوبة اختبار تقول له كم نسبـة الملوحة في اء البـحر.. أو ما هي أنواع الســمك.. أو ما هي أعماق البحر.. أو مدى قربه أو بعده عن الشاطئ.

إنما هو يريد:

أن ينقذه أحد.. ولو كان الذي أنقذه حوت من الحيتان).

●●●

إن الغريق محتاج إلى طبيب..

لا إلى فليسوف أريب!

●●●

يقول العقاد تصويرًا لذلك:

(عندما قرأت رواية «الجريمة والعقاب»:

كنت أمسك أنفاسي..فلمـا ذهب بطل الرواية ـ وهو طالب جامعي ـ وفي يده سكين، يريد قتل صاحبة البيت.. وعندما فـتح غرفتها.. واقترب ليقتلها كاد قلبي يقع بين ضلوعي).

إنه شيء وراء الحروف والألفاظ..

إنه الأديب الذي يتســلل إلى مسارب نفـسك.. لينقل إليك مشـاعره

بعمق. . فإذا حريق الإنفعال يشتعل في وجدانك نارًا!!

إنك قد ترى بعـينك المجردة من روائع البستـان ألوانًا. . لكنها ـ على روعتها ـ لن تؤثر فيك. . فإذا تناولها أديب ذواقة. .

فإنه من خـلال نفسه الرقيـقة . . وقلمه الرشـيق. . يضيف إليك من الأحاسيس ما لم تنقله عينك الباصرة!

ويظل المتأدب يجأر بالشكوى:

لامـــه الناس ومـــا أظلمـــهم	**وقليل من تغـــاضى أو عـــذر**
قـــال نـاس: صـــرعـــة من قـــدر	**وقـــديمًا ظلم الناس القـــدر**
ويقـــــول الطب بل من جِنَّة	**ورأيت العـــقل في الناس نـدر**
ويقـــولون: جـــفــاء راعـــه	**من أب أغلَظ قلبًـا من حـجـر**
ليس يدري أحـــد منكم بما	**كـــان يعطى.. لو تأنى وانتظر**
فـــيم تجنون على آبائكم	**ألَمُ الثُّكْل شـــديد في الكبـــر**
وتعـــقُّــون بلادًا لم تزل	**بين إشـــفـــاق عليكم وحـــذر**

[نختلف. . لنأتلف]

وهكذا كان العقلاء في كل عصر ومصر:

لقد اختلفوا:

ولكن الاختلافات

(كانت:

كاصطدام الغض بالغض في الدوحة الباسقة.

والموجة بالموجة. . في البحيرة الصافية:

وأصل الشجرة واحد.

وماء البحيرة واحد.

ولكنها ريح الصبا. هبت في الأصيل:

فأزاحت الملل. وجاءت بالأمل.

وهل الحياة إلا الحركة.. وهل في الحركة

غالبًا إلا البركة؟

خلاف: ولكنه على السطح..

وما في الأعماق.. إلا الألفة والإتفاق)[1].

أما بعد:

فليتنافس المتنافسون.. شريطة ألا يكون «كل حزب بما لديهم فرحون»: وإنما الفرح كل الفرح.. ما كان بفضل الله (تعالى):

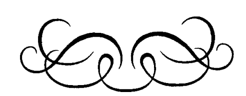
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]

وليست المنافسة أن يسبق أحد أحدًا.. ولكنها بالدرجة الأولى. أن يمضي الفريقان في اتجاه واحد.. نحو هدف واحد.

●●●

ويبقى أن نقول لجامع الأفكار ـ جنة تجري من تحتها الأنهار..

نقول له: طالما جمعت.. ونسقت.. وشققت. والآن.. صار لديك سلاح وفير.. ولكنا نسألك: متى تحارب بهذا السلاح؟!!



(١) ذكريات علي الطنطاوي ـ جـ ١(١٤٥).

مدخل

أراد صحـفي عربـي أن يبدو في أعين الناس هناك في ألمانـيا. أراد أن يكون «تقـدميًـا». . فقـال لزميله الصـحفي الألماني. مـا تأخرنا إلا بسـبب الإسلام!!؟

●●●

وعلى الفور: أخذ الصحفي الألماني بيـده. وذهب به إلى مستشفى في قلب «برلين» وأمام غرفة المدير أشار إلى لافتة كتب عليها:

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع. . وإذا أكلنا لا نشبع)

ثم قـال الألماني للصـحفي العـربي المسلم: أتعـرف من صـاحب هذه الحكمة؟ إنه نبيكم محمد. . الذي لم تعرف الحضارة إلا على يديه.

وقبل أن يتركه الصحفي الألماني ويذهب بعيدًا قال له:

يؤسفني أن أقول لك: إن جسم الإسلام عندكم. أما روحه فعندنا!!

وهذه الصفـحات الدائرة حول الطـلاق. . وأدب الطلاق وضوابطه. . شاهد صدق من شـواهد صادقة على «تقدمية» الإسـلام التي تنكر لها واحد من أهله. . وإذا كان الجـاحدون لحقائق الإسلام يجـدون في تشريع الطلاق هضمًا لحق المـرأة. فإن هذه الآيات. . خير رد عليهـم. .مؤكدة أنه لا دخل للذكـورة والأنوثة في تفضـيل جنس على جنس.وإنما هو الإنصـاف. . في أعلى مستـوياته. . ولو فرض وكان هناك تحيـز. . فهو التحـيز للمرأة. . لا للرجل. .

●●●

وعلى هؤلاء التـقدميين. . أن يـعلموا أنهم إنما يفـرغون أنفســهم من مـعاني التـقدم والتـحضـر. . حين يحاولون إفـراغ الإسلام من مـضمـونه الحضاري الفعّال ـ أجل:

عليهم أن يعلموا هذه الحقيقة التي تطرح نفسها:

إذا أردت أن تجعل لحياتك معنى. .

فاجعل للحياة من حولك معنى!!



عندما يكون الطلاق قدرًا مقدورا

يقول الحــق (عز وجل): ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

●●●

تمهيد:

كانت الـبحيـرة ساكنة سـاجيــة.. تسر الناظرين.. وتشـبع الآكلين. وفجأة قذفها غلام بحجر.. فتغير كل شيء.. وهكذا كانت الأسرة: كانت آمنة مطمئنة يأتيهـا رزقها رغدًا من كل مكان: رزقهـا المادي ورزقها المعنوي على سواء.

وعلى غير ميعاد.. هبت العاصفة.. فتغير كل شيء: الذي كان وئامًا صار خصامًـا.. والذي كان انسجامًا.. صار تنافرًا وانفـصامًا.. وكان لابد من تناول آخر جُرعة في قارورة الدواء وهي:

الطلاق.. وآخر الدواء الكي.. وإذا كانت لسـعة النار مؤلمة.. لكنها تأتي في أوانهـا. لتـضع حدًا لمسلسـل المتاعب.. ولتـفض الاشـتبـاك بين زوجين.. يتاح لكل واحد منهما أن يعيد ترتيب حياته من جديد.. على ما يقول (سبحانه وتعالى): ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [النساء: ١٣٠].

لقد ظهــر.. وبعد المعاشرة أن «تعاضــد» الطرفين.. وتعاونهمــا: غير ممكن.. وإنما كان كل طرف منـهما سهـمًا كان «عـاضدًا» أي: إن وقع عن

يمين الهـدف. . أو عن يساره. . فلم يصب أحـدهما الهـدف. . وإذا كانت «العضادة» هي جانب العـتبة من الباب. فقد كان المتـوقع طبق الميثاق الغليظ أن يتكاملا. . ليحـقق الله (تعالى) بتكاملهما مـقصود الزواج. . لكن الذي حدث أنَّ جـانبي النافـذة كان «يمينًا» لا ينسـجم مع «يمين» آخر والأمـر في حاجة إلى يمين. . ويسار معًـا ليتم المقصود الأصلي من الزواج. . فكان من الحكمة أن يتفرقا. . ليجد كل طرف نصفه الضائع. . والذي يكون به واحدًا صحيحًا!!

وإذن. . فالطلاق هو عين الوفاق إذا تجمعت أسبابه. ثم فَرضت نفسها فرضًا. يقول العقاد:

(شريعة القـرآن الكريم في مسألة الطلاق شريعـة دين ودنيا. . وكل ما اشـتملـت عليه من حـرمـة الدين. . تابع لما شُـرع له الزواج من المصلحـة النوعية. والمصلحة الاجـتماعية. فليس مما يبيحـه الإسلام أن يتجرد الزواج من مصلحتـه النوعية والاجتماعيـة. . تغليبًا للصبغة العـبادية عليه. . على مشيئة الأزواج. وفي هذه الشريعة القرآنيـة تتوافر جميع الرخص المفيدة التي لجأت إليها أمم الحضارة لتيسير العلاقة بين الزوجين مع المحافظة على الآداب الإجتـماعـية. ولكنها شـريعةٌ إسـلامية تـنظر إلى طبائع الرجـال والنساء. وتتجنب التـشديد الذي لا يُجـدي شيئًـا في المحافظة على قـداسة الزواج. ولكنه يلجئ الزوجين إلى الحيلة للتخلص منه أمام القانون. وإن كانت أظهر من أن تنفـعهم في الـتخلص منه أمـام الناس. الطلاق في الإسـلام مشـوَّه مكروه. لأنه أبغض الحـلال إلى الله كما قـال النبي(ﷺ). وتُـدفع هـذه القسوة بما يسـتطاع من عمل الزوج والزوجة. وعمـل الأسرة والقادرين في هذا الأمـر على الهـداية والإصـلاح. فـإذا أُحـلَّ بعـد اسـتنفـاد الوسـائل

المستـطاعة. . فمـا حل آخر يغني عـنه. وما من تحريم لـه. . إلا وهو أشد قسوة. وأقل نفعًا من التحليل)[١].

●●●

ولأن الموقف حـساس. . والمسـألة مسـألة حيـاة أو موت. . كـان لابد من ضمانات وآداب تحمي الطرف الضعيف:

وهو المرأة. . ومن هنا جاء قوله (ﷺ): «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[٢].

لا يكفي أن تـكون مـبــادرة العطـف عليـــهن فـرديـة مـتنـاثرة هنا وهناك، وإنما. . لا بد أن تكون «ظاهرة» عامة. . يتحمل المجتمع مسؤوليتها. ذلك بأنهن أسيرات:

والذي أعطانا إياهن بكلمـة الله. . هو الذي يحذرنا بـكلمتـه أيضًا. . حتى لا نقع في شـرك الظلم. . بسوء استـخدام حقٍّ أتيح لنا. . نعـمةً منه (سبحانه).

●●●

ألا وإن حساسية الموقف لَتُلـقي بِظلها على قلب المرأة التي تغادر اليوم عُشـها . . بعد مـا كانت فيـه آمنة مطمئنة. . وقد تنطلـق الألسنة بعد ذلك جـاعلة من الحبَّـة قبـة. . مما قـد يؤخر فـرصـة زواجهـا من آخر يمتـد في فراغها. . أو يذهب بالفرصة. . فلا تجيء. .

ومن الناحيـة النفسية. . فإن المرأة الـتي تودع حياتها اليـوم واقعة تحت ضغوط نفسية ثقيلة. . ومن هنا قالوا:

(١) المرأة في القرآن (١٠٠/١٠١).

(٢) متفق عليه.

(أعزب دهر.. ولا أرمل شهر).

لقد ذهب الرفيق.. فضاع من قدمها الطريق!

وما قيمة العيش في غياب الرفيق..

إن الله (عز وجل) يقول على لسان امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، إن أملها الأكبر ينحصر في أن تكون «عنده» (سبحانه) ويأخذ نعيم الجنة مرتبة تالية!

●●●

ثم يقول (سبحانه): ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، إنه لا قيمة لنعيم.. بلا صاحب.. يقاسمك هذا النعيم.. إنه بالرفيق الصالح «دهر عسل» لا شهر عسل!

●●●

والإسلام العظيم يقف إلى جانب المرأة في لحظة ضعفها هذه.. جبرًا لخاطرها.. وتقديرًا لظروفها.. وليبقى خط الرجعة قائمًا.. ودائمًا..



إنسانية الإسلام من خلال تشريع الطلاق

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

●●●

ذكرت الآيات السابقة الأمانة المنوطة بالرجل في حال الإيلاء، في قوله (تعالى): ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ... ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي: للذين يحلفون على هجران أزواجهن بعدم مباشرتهن.. عليهم أن يتربصوا: أن ينتظروا مدة أربعة أشهر.. تُحسم بعدها القضية: فإما فراق.. وإما وفاق..

وهذه المهلة مشروعة ليتجرع فيها الزوج كأس الصبر.. بمغالبة نفسه كما تفيد مادة «التربص» : فحروف التربص مقلوب حروف الصبر!!

●●●

والآية التي معنا تَذْكُر الأمانة المنوطة بالمرأة وهي: تربُّصها ثلاثة قروء..

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ .. ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والنص الكريم يطالعنا بأمور تؤكد إنسانية الإسلام، وحرصه الشديد على استقرار الأسَر.. لتظل مشدودة الأزر.. قوية البنيان:

أولاً: التربص مضاف: مرة إلى الرجل.. ومرة إلى المرأة.. ويعني هذا: الدعوة إلى السَّتر في كل ما يتعلق بالأُسَرْ. التي ينبغي أن تكون أسرارها طيَّ الكتمان.. وليست على كل لسان.. وذلك بتكفل الرجل..

والمرأة معًا.. بمباشرة التربص.. بعيدًا عن ساحات المحاكم.. وما قد يحدث فيها من إذاعة الأسرار. على مرأى ومسمع من الناس: يقول البقاعي في ذلك: ويعني هذا (إجراء أمور النكاح على سُتْرةٍ وإعراض عن حكم الحكام. من حيث جعل التربصَ ـ لها وله ـ والفيءَ منه.

فكان الحكم من الحاكم إنما يقع على من هَتكَ حُرمة ستر أحكام الأزواج التي يجب أن تجرى بين الزوجين من وراء سِتْر. كما هو النكاح الذي هو سبب جمعهما، ليكون حكم السر سرًا، وحكم الجهر جهرًا).

●●●

ثانيًا: من نعمة الله (تعالى) على الأسرة أنه لم يجعل (سبحانه) الأمر بتًا: قاطعًا يقع فيه الفراق أو الوفاق بالكلمة القاطعة المانعة.. ولكنه (سبحانه) شرع لهما من الزمن مدة كافية لمراجعة النفس. وحساب الأرباح والخسائر.. وهو نفسه المعنى الذي تشير إليه مادة الكلمة «الطلاق» والتي تعني:

إطلاق الشيء من اليد.. على أنه يمكن استرداد هذا الشيء بعد إطلاقه.. وذلك معنى العدّة.. التي ليس من الضروري أن تكون نهاية المطاف.. بل ربما كانت بدايةً لمرحلة جديدة. ثم إنها المدة التي يوشك صبر المرأة عن زوجها ينفذ. فإن من رحمة الله (تعالى) بها أن جعل لها موعدًا.. لا يرهق أعصابها.. ولا يفلتُ زمامُها من يدها.

●●●

ثالثًا: أن المراد «بالمطلقات» في الآية الكريمة هن:

(المطلقات الأزواج.. اللاتي تحقق فيهن معنى الزوجية. وعهدن أن يكن مطلقات.. وأن يتزوجن بعد الطلاق وهن الحرائر) وهذا ما قاله

الإمام. . ثم أتبعه بتلك اللمحة الإنسانية. . التي يحتكم فيها إلى دلالة السياق على أن العجوز اليائسة غير داخلة فيهن. . وقد علل على ذلك بقوله: (فإن اليائسة من شأنها ألا تُطلق. لأن من أمضى زمن الزوجية مع امرأة حتى يئست من المحيض. . كان من مقتضى الطبع والفطرة. . بل ومن أدب الشرع والدين. . أن يحفظ عهدها. ويرعى ودَّها. . بإبقائها على عصمة الزوجية. وإن كان بعض السفهاء لا يحترمون تلك العشرة الزوجية الطويلة. ولا يراعون ذلك الميثاق الغليظ. فيقدموا على طلاق اليائسة).

ولك أن تتصور عجوزًا. . يدُعُّها رفيقها دعا. . لتغادر البيت. فتترنح خطاها وهي تتجاوز عتبة بيت بنته على أكتافها لنجمع عليها هوان السن. . وهوان الطلاق. وكان الظن أن نحفظ لها حياءها. . بعدم تعريضها لهذا التبذل الذي كان جزاء سنمار!!

●●●

ورابعًا: إن الآية الكريمة تعظ المطلقة أن تظل في الموقف الأفضل محتفظة بكرامتها وعزتها: إن الزوج المطلق قادر على أن يتزوج بأخرى في نفس اللحظة التي طلق فيها. . أما الزوجة. . فإن الشرع لا يعطيها ذلك الحق. . وإذن. . فربما تسرعت. . وحاولت أن تسبق رزقها. . متشوفةً إلى زوج جديد. . تغايظ به رفيق الأمس. وربما تحايلت. . أو تمايلت. . أو خضعت بالقول. . حتى تلفت إليها النظر. . يحملها على ذلك تصورها لموقف مطلقها. . والذي يتأهب اليوم لصيد جديد. وقد ينتهزها الشيطان المريد فرصة ينفث فيها سمومه. . بإيهامها أن تكون زوجة لآخر. . وعليها أن تسابق المطلق. . لتسبقه. . وتجيء الآية الكريمة لتربط على قلبها. . لتتريث. . وتتحمل. . وكل آت قريب. . فأرزاقنا. . كآجالنا. . تطلبنا. .

وهي آتية لا ريب فيها. يقول صاحب المنار:

(وفي التعبيــر بقوله (تعالى): ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾) من الإبــداع في الإشارة. والنزاهة في العــبارة. ما عــهد في كل القرآن. . ولم يبلغ مــراعاة مثله إنســان: فالكلام في المطلقــات. . وهن معرضــات للزواج. وخلو من الأزواج. والأنسب فــيه: ترك التــصريح فــيه بما يتــشوفن إليــه. والإكتــفاء بالكتابة عما رغبن فــيه. (وعليهن أن يملكن رغبتهن ويكففن جــماح أنفسهن إلى تمام المدة المحــدودة والعدة المعــدودة. ولكن بطريق الرمــز والتلويح. لا بطريق الإبانة والتصريح).



لحظة الفراق
بين تصفية الحساب.. وتصفية النفوس

يقــول اللــه (عــز وجل): ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

تمهيد:

إذا قلت لصاحبك يومًا (رحمك الله) فأنت واثق بالإجابة.. كأن الرحمة حدثت بالفعل.. وأنت تخبر عنها.. ومن ناحية أخرى فهو لون من التفاؤل.. لا تحسه إذا جئت بصيغة الأمر فقلت: أطلب الرحمة..

فإذا قلت لولدك: افعل كذا.. فإنه أمر.. ومادام أمرًا فهو عرضة للامتثال.. وللاحتيال، أما إذا قلت: ولدي يفعل الحَسَن، فأنت بإيثارك صيغة الخبر على صيغة الأمر يتحقق ما يلي:

الثقة به.. وأنه أهل لذلك. ثم هو حض له على المسارعة بالإلتزام.

والأصل في ذلك قوله (تعالى): ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ..﴾ [البقرة: ٢٣٣] لم تقل الآية الكريمة: ليرضعن.. بالأمر!، وإنما تفاؤلاً، وثقة: تتحدث عنهن كأنهن يُرضعن فعلاً.. وليست هناك مشكلة!.

نفس هذا المعنى نلحظه في قوله (تعالى)، وفي الآية التي نحن بصدد التعليق عليها: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِن﴾ [البقرة: ٢٢٨] فالأصل هنا هو الأمر هكذا [لِيَتَرَبَّصْنَ..] لكن الحق (تعالى) جاء به (سبحانه) على صورة الخبر [يتربصن] (تأكيدًا للأمر، وإشعاراً بأنه مما يجب المسارعة إلى امتثاله) فكأنهن امتثلن فعلاً، ثم يخبر عنهن بذلك، ثقة بالنساء..!

وهي لفتة قرآنية تُعلي من شأن المرأة التي هي دائمًا عند حسن الظن بها، وتُحبط في نفس الوقت تلك الرؤية المتشائمة للمرأة التي يظلمونها حين يصورون الأنوثة وحشًا كاسرًا يدمر الحياة، فقد زعم الزاعمون.

أن الأنثى، وَحْشٌ ينقَضُّ على الفريسة بلا هوادة، فأنثى العقرب وأنثى العنكبوت، وبعض إناث السمك، كلها، تتربص بالذكر، ثم تقتله!! وهكذا المرأة لأنها أنثى! لكن القرآن الكريم بهذه اللفتة الإنسانية يصحح صورة المرأة في أذهاننا وقلوبنا. بهذه اللمسةالموحية. فكأنها جاهزة للامتثال، وليس من طبعها قتل الرجال.. وإنما هي جزء من القضية.. تسهم بدورها.. في تجاوز المحنة بسلام.. مشمولة بثقة وطيدة في حكمتها.. قبل الطلاق.. وبعد الطلاق.. وإنها لا تفعل شيئًا خارج التوقعات.. ومع أنها تعيش لحظة اليأس العقيمة فإنها تفعل ما تؤمر.

●●●

إن الزوجين يعيشان الآن لحظةَ حاسمة.. وقاصمةَ في نفس الوقت: فها هي ذي أيامهما الجميلة تسقط في آبار الزمن.. ولكن تبقى لها في القلوب جراح.. وتُفتح النوافذ أمام تغيرات واحتمالات.. لا ندري عُقباها.

●●●

ولا تأمرها الآية بمحاولة التودد إلى من يدمر حياتها.. حتى يرحمها.. لكنها مأمورة بأن تسهم بدورها.. حتى يتجاوز الزورق المضيق.. ولا مجال لليأس من المستقبل.. وليبق الأمل في التجديد قائمًا.. إنها محاولة «التسريح بإحسان» تسهم المرأة في صنعها بالتحمل والمصابرة.. وهو ردع لهؤلاء الذين يحرصون على أن يجعلوا من لحظة

الفـراق مأتماً وعـويلاً: اللائي لا يتـربصن مُـضيَّ مدة الـعدة بسـلام.. بل يتربـصن بالطرف الآخر الدوائر.. في مـحاولة لتـشويه الآخريـن.. هدماً للماضي برمته! مع أن.. المطلِّق ما زال.. مُـسلّماً.. له حقوقه التي يجب الحرص عليها..

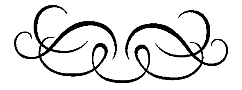
●●●

ومن بلاغة الآيـة الكريمة: أن تجيء على هذه الصيـغة ﴿وَالْمُطَلَّقَـاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ **وليس**: [**يتربصن المطلقات**] ذلك بأنك لو قلت: كتب زيد.. فقد ذكرت الفاعل مرتين: ذكرته باسمه الصريح أولاً.. ثم بضميره المستكن آخر الجملة.. ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ يقول التوحيدي: (وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيـد: ولو قيل: (**يتربص المـطلقات**) لم يكن بتلك الوكـادة.. وهو كلام حسن. وإنما كانت الجملة الابتدائية فيها زيادة توكيد. على جملة الفعل والفاعل. لتكرار الإسم فيها مرتين: أحـدهما بظهوره. والأخرى بإضماره. وجملة الفـعل والفاعل يُذكـر فيهـا الاسم مرة واحدة) ومن فـوائد التعبـير [**بأنفسـهن**] أن تباشر المطلقة مهمـة التربص بنفسها.. ولا تنيب عنها من يقوم بالتربص.. وهي لفتة تراعي مـوقف المطلقة الطامحة إلى عش جديد. والتي ربما حملهـا ذلك على التسـرع.. والتساهل.. فكان لابد من إضـافة هذا التوكيد الذي يجعل من مباشرتهـا التربص بنفسها أمراً جازماً لازماً. لا يجوز الترخص فيه.

●●●

وننتهي مـع المفسرين من هذه اللـمحات البـلاغية.. ولكـن يبقى في القلب مزيد من الإجلال والهيبـة لهذا القرآن العظيم: الذي يقف إلى جانب المطلقة في ساعـة العسرة.. حتى تخرج من التجـربة المرُة.. سالمة غانمة..

وإذا كان الزوج الفاشل يقـول: (التوفيق بين وجهتي الـنظر معناه: ألا تأخذ بواحدة مـنهما..) إذا كـان يقول ذلك مما يتـسع به الخرق على الراقـع فإنما يعـبرون عن أهوائهم.. ولـكن الاسلام العظيم له مـنطق آخر.. يفـتح به الطريق إلى تجربة أخرى.. يجدِّد بها الأمل.. ويُصلحُ العمل.



بعيداً عن المهاترات

يقول الله (عز وجل):

﴿ والْمُطَلَّقَاتُ يتربَّصْنَ بأنفُسهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كان لفظ «المطلقات» فـي مقدمة الآية الكريمة.. إشارة إلى أن القـضية تهم المرأة بالدرجة الأولى، فلتكن مهمة التربص إليها وحدها، لأن الزوج لا تعنيه القـضية بنفس النـسبة، بل في إمكانه أن يتـزوج أخرى ـ الآن ـ وعند نفس موثق الطلاق، وفي ذكر «النفس» تهييج للمشاعر، وإثارةٌ للكامن هناك في القلب من أحاسيس الكرامة، وكأنها رسـالة موجهة إلى المرأة تقول لها: إن نفسك طموحة إلى زوج آخر، ولكن إذا كـان من حقك أن تفعلي شيئًا، فإنه الطموح، وليس الجموح!

ومنطق العزة يقول: من تركنا فلنتركه!

نستـدبره، اتكالاً على الله (تعالى) ولكن بلا مـهاترات ومشـاجرات، وإنما هو الوقـار الذي يجـعل من عـودة الرفـيـقين إلى الوفـاق ممكنًا غـيـر مستحيل..

إن التربص يعنـي: الترقب، واجتـماع الذهن، واليقـظة، وما يَشي به ذلك كله من صمت لا نُعكره باللفظ النابي، أو الحركـة الطائشة، والتي قد تنسف فرصة التفاهمِ، والعودَ الحميد إلى الصفاء من جديد.

فلتستبعد المرأة تلك الأفكار الـسوداء، والتي تناوشها من قريب، ذاكرة أن الله (سبحانه وتعالى) أنزل لنا الحديد، ولكنه لم يصنعه لنا سيوفًا!

وهو (سبحانه) الذي حد لنا الحـدود، لكننا نحن المسئولون عن الحفاظ

عليها، وتفعيلها لتكون واقعًا ملموسًا. .

أجل: لقد مضى السبت، وكان الحدُّ في الأحد!!، لقد وافت ساعة الصفر، وها هو ذا الفُلك على وشك الرحيل، ومضت أعوام السرور، كأنها أيام. . وانصرمت أيام الهم. . كأنها أعوام. . فماذا علينا اليوم؟

علينا أن نلتزم بحدود الله (تعالى).

●●●

إن الزوج. . ما زال مؤمنًا. . والزوجة كذلك. . مؤمنة. . فكيف يدب الخلاف بينهما. . ولديهما من أسباب الوفاق ما هو عصى على الفناء:

كلمة التوحيد. . لا إله إلا الله. ووحدة الكلمة. . ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فلماذا يتحول الأمر بالطلاق إلى ما **يقوله الشاعر اليائس:**

(تضيق بنا الأرض..
تحشرنا.. في الممر الأخير..
فنخلع أعضاءنا كي نمُرّ..
نسير إلى بلد ليس من لحمنا..
ليس من عظمنا..
نسافر كالناس .. لكن لا نعود إلى شيء..
أصبحنا نعانق جلادنا كي نفوز برحمته..
هناك ليل أشد سوادًا..
هنا ورد أقل..
لم نعد نُودِّع فقط ما فات.. وما مات..
بل أصبح علينا..

أن نودع ما سوف يأتي).

●●●

إن هذه النظرة التشاؤمية للحاضر والمستقبل.. مرفوضة باسم الإسلام، لقد وقع الطلاق فعلاً، ولكن من هو المسئول؟

المسئول هو: من أساء استعمال الحق..

●●●

وصحيح أن عقد الزواج قام على ثنائية التكوين، مع اتحاد حركة الزوجين صوب الهدف تمامًا كالليل والنهار.. فالطبيعة مختلفة، لكن الحركة في اتجاه الهدف.. إنهما يتكاملان.. وفي النهاية هما معًا، لمصلحة الإنسان. وكذلك الزوجان..

لكن ذلك لم يتم. ومن التسليم بقضاء الله (تعالى) ألا نُضيع أيامنا في البحث عن من المسئول، فكلنا ركاب سفينة غرِقت، وبفعلنا جميعًا..

●●●

إن الحساسية المفرطة قد تفوز في دمائنا، فنفعلُ ما لا يليق بنا، وكان الأعرابي الأمي أعرف بشئون الحياة منا.. هذا الأعرابي الذي سمع قوله (تعالى): ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة: ٩٧]، فانتفض الرجل وهب مذعورًا، لكنه سمع في نفس اللحظة من يقرأ قوله (تعالى): ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩]، فقام مسرورًا وقال:

الله أكبر: هجانا.. ثم مدحنا..

هجوت زهيرًا.. ثم إني مدحتُه..

وما زالت الأشراف: تُهجى وتُمدح..

وإذن فلماذا لا نخفف من الإحساس بالذات.. ذاكرين أنَّ ما حدث

هو قضاء الله.. وأنه (تعالى) كما جمعنا.. فقد فرقنا..وهو (سبحانه)في الحالين حكيم لطيف يجمع، ويفرق، طبق حكمته البالغة: ويوم لنا ويوم علينا ـ ويوم نساء.. ويوم نسر.. فلنرض بحكمه ثقة بحكمته!

●●●

وقد كنت أحضر بعض هذه المجالس الحساسة، فيرو عني السبابُ المتبادل، والذي لا يستهدف القضاء على أسباب العلة، وتجفيف منابعها، وإنما هو محاولة التشويه، والفَنَاء في وجهة النظر الذاتية.

●●●

ومـا زلت أذكر ذلك الزوج الذي انتفخت أوداجه معتزًا بأنه طيب السيرة التي تُروى بكل لسان.. وسارت بذكرها الركبان..

وتجيئه اللطمة المسكتة من زوجته التي ترد عليه قائلة:

ما يهمني أن تكون لكل الناس .. وفي عيون كل الناس.. إنما أريدك رجلاً عاديًا.. ولكن لي.. وحدي.. فبُهت الذي افتخر!!



المطلقة
عند حسن الظن بها

يقول الله (عز وجل):

﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقر: ٢٢٨].

عندما تكون القـضية من شأن الـرجل، فهو وحده القـادر على تحمل تبعاتها.. المؤتمن عـلى الوفاء بها.. وبنفس القوة: إذا كانت القضـية نسائية فإن المرأة هي المؤتمنة على حراستها وتحمل تبعاتها.

ففي «الإيلاء». وعندمـا يقرر الزوج عدم مبـاشرة زوجته لسـبب ما، فالأمـر عندئذ إلى الزوج، أمـا هنا، فإن القـضيـة بيد الزوجـة المؤتمنة على إعلان مـا خَلَق الله في رحمهـا. ويعني ذلك: أن المرأة أمينة في قضـية هي وحدها المرجع الأخير فـيها، والقول فيها ما قـالت حذام، وإذا قالت حذام فصدقوها.

••

والمتـوقع كـتمـانه هنا هو: الولـد.. وقد يكون ذلك بـالإجهـاض، استعجالاً للخلاص، أو دم الحـيض، تطلعًا إلى فراش جديد وزوج جديد، والتحذير من الكتمان له ما يسـوغه، (فالنساء أرغب في العودة من الرجال، مع ما بهن من النقص في العقل والديـن، فكان ذلك ربما حملهن على كتم ولد، لإرادة زوج آخر: تقصيرًا للعدة، وإلحاقًا للولد به).

وهكذا قال المفسرون.. **قال سليمان بن يسار:**

(لم نؤمر أن نفتح النساء، فننظرَ إلى فروجهن، ولكن وُكِلَ ذلك إليهن إذ كنَّ مؤمنات).

●●●

ولاحظ أن من تكريم المرأة أن يقال عنها:

﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ ...﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ولا يقول سبحانه: [يحرُم عليكن الكتـمان] مثلاً، إنك قد تقول لرجل ظالم: أنت كاذب، وقد تقول له: هذا كلام يجافي الصـدق، والفرق واضح، ولفظيٌّ. لكن المعنى واحد، والسياق الكريم هنا يرحـمها فيطوي اللفظ الذي قد يصدم مـشاعرها، إيثارًا للفظ الودود الذي يحرك المشاعر برفق ولين، وذلك رفـقًا بالقوارير في أشد اللحظات حرجًا حتى لا نجْمعَ عليها همين: هم الفراق وهم الخطاب!

فإذا اسـتيقظت مـشاعر المرأة من رقـادها.. واجهها النص الكريم بما يلهب هذه المشـاعر وذلك قولـه (تعالى): ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إنه لون من التهييج - لـبيان خطورة الأمر - وبالتالي ضرورة الالتزام.

فالحرف «إن» يدل على الشك، وعندما تحس المؤمنة بأن إيمانها يأتي في معرض الشك، فـإن ذلك مما يثيرها لتَهُـبّ في عملية استجـابة بهذا الإيمان الذي يوشك أن يذهب به الإعصار!!

يقول بعض الباحثين:

(والتركيز على أهمية الإيمان بالله وصفاته والإيمان بالغيب والآخرة أمر ضروري حين يراد تطبـيقُ منهجٍ إلهي، يحكم سلوك الناس، ويقيم واقـعهم على وِفْقه).

●●●

إن الزوجة قد تـظن أنها في هذه اللحظة حرة في أن تفعل مـا تشاء، على الأقل حفـاظًا على كرامتهـا التي تظن أنها تمتهن الآن، ولكن السـياق يؤكد لها أن كل حركة لها، إنما هي جزء مـن عقيدتها وأنها إذا كانت تؤمن بالله واليوم الآخر فعـلاً، فيجب عليها أن تتصـرف بوحي من هذه العقيدة، وأن تتجنب كل ما لا ينسجم معها. . وإن بدا هينًا.

●●●

وهنا نذكـر مـلامح المنهج الإسـلامي في التـربيـة، والذي غـاب من حياتنا، فتراكمت في غيابه المشكلات، يقول نفس الباحث:

(. . وقد أمـضى الرسول (ﷺ) ما يزيد على عشـر سنوات في إرساء دعائم الإيمان بهذه الحـقائق وتدعيمهـا، وصَرَّف الله (سبحانه) الآيات فـيها تصريفًا، حتى إذا ثبتت الدعائم، واستقرت الأركان، نزلت الأحكام تترى، وهي توجب أو تحلّ أو تحرِّم، فوجدت آذانًا سمـيعه، وقلوبًا واعية، وأرضًا خصبة طيبـة، أحسن إعدادها لتَقَبَل التشريعات، فما كـاد يلقي فيها البَذْر، حتى انشق عنـها الزرع، ثم كان اسـتواؤه ونماؤه: ﴿**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ**﴾ [الفتح: ٢٩].

وهكذا يربي الإسلام المسلم: يقوي إرادته، ويوقظ مـشاعره، ثم يُعينه على نفسه بإيجاد المجتمع الصالح، والبيئة الطيبة التي تتخذ شعارها ليكون: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

●●●

إن الجنين في بطنها، ليس من عملها وإنما هي فـقط وعاء له ومستقر. والله (تعالى) هو الخالق. . وقد نتعجـل وضعًا ربما كان ضارًا بنا، من حيث كانت العجلة مانعة من التبصر، وتقدير العواقب.

وعلى الطرف الآخر، لا ننسى مهمـة الزوج وأهله معه، ليكون الوفاء رائدهم مع من كانت واحدة منهم يـومًا، إنها اليوم تَجْتَر ذكـرياتها، ولسان حالها يقول: تعبت.. تعبت.. أما من نهاية وما من وصول؟ لدربي الطويل لأية غاية! أجُر السنين، ودربي يطول!

●●●

إنها اللحظة التي تمتحن فيها الرجـولة، والتي يثبت الزوج فيها أنه كان وفيًا، أمس.. وغدًا، وفي السراء والضراء.. **ذلك الزوج الذي:**

إذا حاورته.. وجدته عليمًا..

وإن خيَّرته .. كان حكيمًا..

وإن غضب.. كان حليمًا..

وإذا ظفر.. كان كريمًا..

وإذا وعد وفَّى. وإن كان الوعد عظيمًا.

وإن شكى إليه.. كان رحيمًا



مانعة الصواعق «أ»

كان طبيــعيًا أن تندُب «المطلقة» حظها بــينما زميلاتها ناعــمات بالعيش الرغيد في بيت سعــيد، لكن غير الطبيعي أن يتــحول الموقف «نياحة» تنادي بالويل والثــبور وعظائم الأمور، ونحن مــأمورون بالتــخفيــف من حدة هذا التوتر، إراحة لأنفــسنا: وهو ما تخيله الشاعر «جبــران» عندما حاور الزهرة التي بللهــا الندى، والتي قال لهــا: لماذا تبكين؟ قالت: لأن الإنســان يقطع رءوسنا! يخــرجنا من أرضنــا، يعُب من رحــيقــنا، ثم بعــد ذلك، يدوسنا بقدميه، يرمي في النهر الطهور بما يقصم الظهور!

●●●

وهو النموذج نفــسه الذي اختــرعته مــخيلة «المعري» على لســان امرأة تندُب حظها العاثر، من خلال حوارها مع النحلة الهائمة، والتي تقول لها:

لمن تعملين أيتها النحلة؟ لمن تكسبين؟

يجيئك من يستخرج العسل بآلته،، ثم يلعق هذا العسل..

بينما أنت مستكينة لا تلسعين!

●●●

ولكن المرأة العاقلة تلعق جراحها، وفي اللحظة التي يقول لها زوجها: أمرك بيدك! .. فإنها تقول له:

قد كان أمري في يدك عشرين سنة.. فحفظتَه.. فلا أُضيعه أنا.. في ساعة واحدة!، وقد رددته عليك.. فأمْسكَها!!

●●●

لقـد عزم الرجل الطلاق، وطوَّح بخُـمس قـرن من الزمان، في بئـر الزمان، ولكن الزوجة كانت أذكى منه، وأحرص منه على حياة لا ينبغي أن تتبدد هكذا، وبالضربة القاضية! لقـد جمعت أطراف حكمتها، فكانت ذلك النجم في أفقه العالي:

ألا وإن في أعـماقـها كـالنجم.. حـريقًا.. لـكنها قـررت أن تكون بالحكمة نورًا، يثبِّت الله به الخطى على الطريق الطويل..

لقد جاء الرجل كـالعاصفة الهوجـاء كشحنة كهـربية تدمر كل شيء، لكنها كانت مانعة الصواعق، التي امتصت تلك الغضبة المضرية الهاجمة!

●●●

وصحيح أن هناك حالات نفسيـة قد تحمل الزوج على أن يجعل غزله من بعد قوة أنكاثًا..

ولأن كلمة الطلاق لا تضر الزوج وحـده، فإن على الزوجة عندئذ أن تحسن التعامل مع الموقف القاسي. ومن حسن التعامل، أو من حسن التبعل: أن تتجاوز لحظة الصبر، إلى مرتقى «الاصطبار»..

أن تتـجـــرع الكأس، وإن كـانت شـديدة المـرارة، من أجل أن يكف الزورق عن الترنح، ويستقرَّ به النَّوى على الشاطئ الآمن .. سالمًا.

●●●

وقد يفجِّر فينا ذلك الموقف العاقل معنى من معاني الحكمة الإسلامية، والتي وجَّـهت الزوج إذا قرر الفـراق.. أن يكون ذلك في طهـر لم يباشـر زوجته فيه..

لماذا؟

إن صحة الزوجة عندئذ: النفـسية والجسمية تكون مـختلة بل معتلة..

وذلك أثر من آثار الحيض الذي قالت الآية الكريمة فيه: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقـرة: ٢٢٢]، إنه أذىً، يسقط منه ظـل قاتم على «مزاج» البيت العام، ومن آثار ذلك خَلَلٌ في الأقوال وخطل في الأفعال..

لكن منطق الزوجة هنا كـان دليل صحة نفسيـة، أتاحت لها أن تحسم القضيـة بهذا المنطق البليغ.. المسكت!، ويمكن أن يكون رسالة مـوجهة إلى الزوج أن يتخيـر الوقت المناسب.. فربما إذا انتظر حلول هذا الوقت المناسب ألا يجد ما يغضبه!!

●●●

على أن للقضية جانبًا آخـر، ربما فرضه على الزوجة هنا أن تكون أكبر من الموقف برُمته:

فقـد يكون لها أولاد، فـهي تُرغم نفســها على تجرع الـهوان من أجل «عزة» أبنائها، وفي الوقت الذي يبدو فيه الزوج عـاصفة، بلا عاطفة، كأنما هو الحـاكم المطلق، في هذا الوقت بالذات، تـوافيـه تلك النســمـة البليلة، العليلة، والتي تؤكد أن المرأة في ضعفها، قد تكون أقوى من رجلها!!

●●●

ومن ناحية أخرى:

فلو وقع الطلاق، وكان الفراق، لا نعكس الحدث على قلوب الصغار غيماً قاتمًا، لا يزول..

ذلك بأن للبـيـئـة العـامـة.. والبيـئـة الخـاصـة آثارهمـا على زغب الحواصل،، من أكبادنا:

وخذ مثالاً على ذلك:

إن الطفل الفـرنسي.. يولد.. وعـليه مـن «شك» ديكارت برهان..

والطفل الإنجليزي.. يولد.. وعليه من واقعية «بيكون» أمارات..

والطفل الألماني.. يولد .. وعليه من شخصية «كنت» سمات وقسمات..

وإذا كانت للبيئة العامة هذا الأثر.. فكم يكون للبيئة الخاصة؟

كم يكون للأسرة من خطر؟ مما يفرض على الزوجين كليهما أن يتدبروا قبل اتخاذ القرار فرارًا من النار:

نار الدنيا.. قبل نار الآخرة. وأنه ليس ضروريًا أن يكون المرء ضد أي شيء.. وإنما هو الحرص على التفكير في جوهر المشكلة.. انتظارًا للفرج.

أما بعد...



فإن موقف الزوجة التي ردت بحكمة على زوجها.. من شأنه أن يَهُز ضمير أخت لها.. لم تحسن التعامل مع زوجها لحظة الغضب.. فطلقها.

وكأنما تقول لها:

إن الزوجين المؤمنين.. عندما يعتصمان بالحق.. فسوف يواصلان الرحلة من جديد..

فإذا عاندت المرأة.. فإن الزوج لم يطلقها..

وإنما طلقها الحق الذي تجهمت له. في الوقت الذي أحبطت فيه أخت لها كيد الشيطان:

بجُرعة حلْمٍ.. ردت بها كيد الشيطان.

وجُرعةَ صَبرٍ.. تجاوزت بها الأحزان.

مانعة الصواعق «ب»

يقول (عز وجل):

﴿ .. وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

والبعولة تعنـي احتياج المرأة إلى الرجل الذي يشبـه النخل البعل الذي يشرب بعروقه مـستغنيًا عن البستـاني، وإذا كان هو أحق بردها.. فإن ذلك مشروط، بكونه يريد الإصلاح..

(وهذا تنبـيه على أنه: إن لم يرد الإصــلاح.. وأرادت هي السراح.. كان في باطن الأمر زانيًا..).

●●●

قال العلماء:

(.. والإصــلاح لخلل ما بينهـما.. أحق فـي علم الله وحكمتـه من افتتاح حياة ثانية.. لأن تذكر الماضي يخل بالحاضر)

●●●

فإذا انقضت العدة.. صارت أحق بنفسها منه.. لانقضاء حقه.

●●●

على أن التصريح بالإيمـان بالله واليوم الآخر.. في ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] له دلالته. فيما ذكره العلماء: (أي: فإن كتمن شيـئاً من ذلك. دل على عـدم الإيمان. وفيه إشـعار بإثبات نـوع نفاقٍ على الكاتمة ما في رحمها).

●●●

ونعود إلى القصة من أولها:

[هذا فارس الأحلام قادم.. يمتطي صهوة جواد أبيض.. كما تصورته البنت.. زمان!!

ومع فارس الأحلام.. طاب الكلام.. وطاب المُقام.

ثم تبـدأ المعاشـرة بالمعروف.. والمعـاشـرة تعني الاحتكاك.. ومـعنى الاحتكاك: أن تنطلق شرارة.. تضيء.. ولا تحرق.

ثم تبدأ المشكلات.. مع غروب الشخصية الوردية لفارس الأحلام..]

وفي أغلب الأحيان تكون المشكلات سـهلة.. ميسورة الحل.. ولكن بعض الناس لا يملكون من الشفافية ما يستعلون به على الواقع الطارئ.

ثم.. تجيئ ساعة الصفر.. ويتفق الطرفان على.. على الطلاق! ولكن الإسلام المسماح.. يُبقي على الباب مفتوحاً.. ليظل طريق العودة لاحباً.

فقـد يكون هناك تحت الرماد.. ومـيض نار!.. لعل هناك في القلب من الود القديم بقايا.. تؤكد أن ذلك الود.. وإن تجـمد يوماً.. فإنه.. لا يموت أبداً.

إن الإسلام مـتحـيز للعـلاقة القـديمة أن تعود بل وأرقى مما كـانت.. والإصلاح.. إصـلاح العلاقـة الأولى.. أولى من السراح! والإبقـاء على الزوج الأول.. أفـضل من الاستـفتـاح مع زوج جديد.. ذلك بأن تذكـر الماضي مع الزوج الجديـد.. يكدر الحاضر.. طبق القـاعدة القـائلة: (تذكر الماضي.. يخل بالحاضر).

دواء الصبر:

والأزواج ـ على أي حـال مكلفـون بالصبـر.. يتـجـاوزن به المحنة الطارئة.. وكفى بالصبر دواء وشفاء:

ورحم الله القائل:

صبّر النفس عند كل ملمّ — إن في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقنّ في الأمور فقد — يُكشَف لأواؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من — الأمر: له فرجة كحل العقال
قد يصاب الجبان في آخر — الصف.. وينجو مُقارع الأبطال

●●●

ومن المفيد هنا أن نختم الحديث بموقف تستحيل به المعاني السابقة إلى حقيقة واقعة.. نستبين بها الوفاق بين الرفاق حتى نشد إلى مثله الرحال.. متجاوزين صغار الآمال: كان العز بن عبد السلام كريماً: ومن كرمه أن زوجته أعطته ذَهَبَها ليشتري به بستانًا.. ليصيِّفوا به.. ولكن الرجل تبرع بثمنه في سبيل الله.. فلما سألته قال: اشتريت به بستاناً في الجنة!! فقالت: جزاك الله خيراً!!

لقد كان (العز) في.. العزة.. بناءً عتيداً.. ثم كان في السخاء.. بحراً مديداً!

وكان مع زوجته ذلك التفسير العملي لسنة رسول الله (ﷺ): لقد كان (العز رحمه الله تعالى): تلاّء لكتاب الله.. أماراً بالمعروف.. نهاء عن المنكر.. ومن هذا المنكر ما تنوء به الأسر اليوم من إحجاف بميزانية البيت إرادة «التصييف».

ولم يكن قصاراه أن ينهي.. ولكنه قبل ذلك انتهى.. وقد تمت النعمة بزوجةٍ.. أعانته على أمر الله.. ومن كان كذلك.. ألهمه الله تقواه.

●●●

وإذا كـان قد أعـجبك السـخاء.. والوفـاء.. فليكن عجـبك أكبـر.. بل إعجابك بهـذا الزوج الذي لاقى من زوجته العذاب ألواناً.. ولما أُشـير عليه بتطليقـها.. رفض.. محتجـاً بأنه تعوّد على إساءتها.. وربمـا تزوجها من بعده من لا يطيق عدوانها.. وإنه لَيُفضِّل أن يغيرِّ عادة إحسانه إليها.. حتى لا يغير الله (تعالى) إحسانه إليه.



أريحية البعولة ... لا غشم الفحولة!

يقول (عز وجل):
﴿ .. وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قد تكشف «العـدة» عن نقص في وعي الزوج صاحب القـرار.. قرار الطلاق.. وذلك حين تهدأ الأعصاب.. وتنحسر غشاوة الانفعال.

تنحسر عن قرار مبتسر.. فطير.. غير مدروس.. ولا مأتوس... لأنه يرفض العودة إلى مـائدة المفاوضات.. مـاضيًا بالعـلاقة الزوجية إلى حـافة بركان من التوتر.. تنعكس آصاره على أفراد الأسـرة جميعاً.. لقد «سكَّ» قرار الطلاق.. فصار في وهمه «عملة» يصعب محو نقشها!.. حين تصور الاختلاف بيـنه وبين زوجته اختلاف مـصير.. بينما هو في الـواقع اختلاف رأي.. أو رؤية.. إنه تـداخل الآراء.. وتشـــابك المصــــالح.. إنه إذن التداخل.. وليس هو التقـابل.. ولا التقاتل.. ومن ثم.. يمكن فض هذا الاشتـباك حين نتـجاوز السيف.. إلى الحـوار.. واللكمة الموجـعة.. إلى الكلمـة المقنعة.. ليـتبـين لنا أن الطلاق لم يكن معـركة حـاسمـة.. وإذا الأحبـاب كل في طريق.. وإنما المقـام للمصـابرة.. والإبقاء على كُـوّة من الأمل مفـتوحة.. مدركين أن الزواج شـركة نملكها مـعاً.. ويعني ذلك أننا شركاء.. لا أعداء.. ونحن مطالبون بمواجهـة عدو مشترك هو الشيطان.. بدل أن نبـدد طاقتـنا في لحظات يمتـزج فيـها الـواقع بالخيـال.. والأرواحُ بالأشبـاح.. نبحث عن عـدو.. لا وجود له إلا في خيـالنا.. ومن صُنع أوهامنا!

البعولة.. لا الفحولة:

إن بعض الأزواج قد يتـصرف بمنطق الفـحولة . . بمعنى: أنه يتـصور نفـسه مركز الكون . . وعلى كل من في البيت أن يدرو في فلكه . . إلى الحد الذي إذا عطس . . فإن الزوجة يجب أن تصـاب بالزكام؟! وإلا . . فالموت الزؤام! ولكن تكاليف «البعولة» لها مذاق آخر:

إن «البعل» من النخل ما نما بذاته . . مستـغنياً عن البستاني . . والزوج في هذه اللحظات العصيـبة . . هو بعل . . هو تلك الشخصية المسـتغنية عن هذه الزوجة الضـعيـفة . . فَلْنُفْسحْ لـلأريحية مكاناً في قلـوبنا . . وذلك ما تستهـدفه الآية الكريمة حين تلوِّح بالرجعة . . بالعـودة إلى العش المهجور . . وأن ذلك هو الاحتمال السائد، ، وما سواه فهو الاستثناء من القاعدة.

●●●

إنه . . مهـما اتشحت سـماء البيت بالسـواد . . فإن خيـوط الضوء . . نَفَّـاذة . . قادرةٌ على أن تطرد الظلام . . وإذ تجـعل الآية الكريمة حق العـودة مِلكاً للزوج . . فلن يكون ذلك افـتيـاتاً على حق الزوجة . . ولا نقـصاً في كرامتها . . لأن منافع العودة لن يستأثر بها الزوج وحده . . وإنما هي مقسومة على الإثنين . . وعلى سـواء . . بل ربما كان نصيب الـزوجة أربى من الزوج نفسه . . من حيث ضعفها . . وحاجتها إلى الستر . . فراراً من ألسنة الشامتين والعاذلين.

●●●

القاعدة.. والاستثناء:

الأصل إذن ألا يكون طلاق بالمرة . . فإذا حـدث ووقع المحظور . . فإن طريق العودة يظل مفتوحاً . . وخطُّ الرجـعة قائماً . . حتى تذهب السكرة . .

وتجيء الفكرة.

وتأملوا معي قوله (تعالى) (بعد الآية التي نحن بصدد التعليق عليها): ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

إن الآية الكريمة تتـحدث عن مـوقف بلغ التوتر فـيه منتـهاه.. وذلك عندما يعزم الرجل على الطلاق للمرة الثالثة.. وما يترتب عليه من فصام.. بعد الخصام.. تأملوا:

إن الزوج الأول ما يزال على الساحة.. ينتظر غائباً يوشك أن يعود.. والغائب هي زوجـته.. التي تتـحدث عنها الآيـة في عصمـة زوج آخر.. (زوجاً غيره). ومع اشتـراط عقد النية على زواج دائم.. لكن الأية الكريمة تعتـبر الزوج الثاني «شـخصية غـير مرغـوب فيها» لأنـه لم يكد يظهر على المسرح حتى تفاجئنا الآية الكريمة قائلة: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا..﴾ أي: إن طلقها الزوج الثاني.. إنه وإن كان زوجًـا شرعيًا.. لكنه ضيف.. أو سـحابة صيف.. واحتمال تطليق زوجته قـائم.. لتعود مرة أخرى إلى العش القديم.. والود القديم.. شـريطة العـزم الأكيد علـى إقامة حـدود الله (تعالى).. بتـلافي الصغائر التي وصلت بنا إلى ما لا نريد.

وفي ذلك ما فيه من حفـاظ على كرامة المرأة التي يصون القرآن الكريم.. كرامتها حتى لا تمتهن من جديد..

إلى جانب ما شرعه الحق (تعالى) الذي جعل حق الرجعة بيَد الزوج. والذي يشـهد على نفـسه بأنـه هو الذي طلق.. وهو الذي يراجع.. فهـو السـبب فيـما كـان.. وليـست لها حـيلة فيـه! لتظل على عـرشهـا أبدًا:

مطلوبة.. لا طالبة.

●●●

أما بعد

فقد انتـفض الفتى المغرور من المجلس رافضًا مبـادرة الصلح.. بحجة أنه ابن «الأصول».. وقلت له يا ابن الأصول: أعد نظرًا فيما حدث:

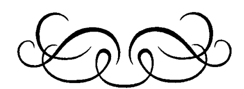
لقد كانت زوجتك بالأمس القريب تهدهد وليدك قائلة:

هل من أبٍ مثل آبائك؟!

لقد عمَّمُوا بالشمس.. هاماتهم..

وبَنَوا أبياتهم.. بالشهب..

فمـاذا هي قـائلةٌ له اليوم؟ أين الهـامات.. وأين الأبيـات؟! لابد من الرجعة.. وإن أبعدتَ النُّجعة!!



لا بد من صنعا ... وإن طال السفر

وبنفس القوة نقول: لا بد من العودة.. وإن تطاير الشرر!

أجل.. مهما كانت حدة الانفعال الذي يوشك أن يكون نارًا تتهددنا نحن وأعزاءنا.. يَبقى الأمل في عود حميد.. يجتمع به الشمل.. وتلتئم به الجراح..

وحتى إذا وقع الطلاق.. فإننا نستشعر الآمال في لقاء على كلمة **الله**.. ولو طال بالفراق المدى..

●●●

وما زلت أذكر قصة هذه «المودة» التي جمعت بين قلبين.. والتي تُوِّجت في النهاية بالزواج.

وفجأة.. وعلى غير ميعاد.. بدأ الشرخ يتسع.. ثم يعمُق في الجدار الكبير..

وبدت مشاعر التربص تضرب جذورها في صدر الزوجين.. منذرة بحرب.. تنحسر بها موجة الحب.. ليخسر كلاهما أحب الناس إليه.. وأحيانًا.. تفرض علينا الأنانية أن نكره.. من نُحب!

وجاءت ساعة الصفر.. فكان الفراق.. أوالطلاق.

وفراق أحبَّاء الأمس دائمًا يكون مر المذاق. يذكرنا بما قاله الرافعي:

(إن أشد العداوة ما كانت بين الحبيبين لأنها انشطار كيان واحد على نفسه.. بعدما كان أحدهما يقول للآخر: يا.. أنا!).

وهكذا تَفرَّق أحباء الأمس.. ثم تزوج كل منهما بمن يريد.. وبدأت

فترة من الهدوء.. حَمَلَنَا على الظن بأن قصة الأمس صارت رمادًا..

●●●

وبعـد حين من الدهر لم يكن شيـئًـا مذكـورًا.. بدت النار تُعلن عن نفسها من تحت الرمـاد.. والذي ظنناه سكونًا.. كان هو الهدوءَ الذي يسبق العاصفة!

لقد تبين لنا.. ما يصفه أحد الأدباء بقوله:

(لقد وجدنا حاضر كل منهما يتهدم.. وعُشُّ الزوجية الجديد يترنح.. لماذا؟

لقـد هبت عـلى العش الجـديد ريح الماضي.. هجـمت الذكـريات العزاز.. وانفلت عيارها.. بعدما هَجَعَتْ أيامنا.. لقد ظن كلاهما أن الود القديم.. قد دفن.. وَوُرِيَ التراب.. ونَعِمْ.. لقد دفن الود القديم..

ولكنه دفن في حنايا القلب!!

وكـما يقـولون: إن دفين القلب يحـيا.. إذا وفـاه من الماضي نداء.. وعندئذ ينفـتح القـلب.. ثم يأذن له بالدخـول.. بل يقـوم المحب القـديم ليستقبله بحفاوة!!).

وهكذا.. إذا أراد الله أمرًا يسَّر له أسبابه.. وكان من الأسباب الميسرة هنا ضرورة الفراق.. ليـعرف الزوجان بالتجـربة كيف تسرعا.. فافـترقا.. وكان لا بد من هذه التجربة العملية.. سبيلاً إلى العود الحميد..

وقد عاد الزوجان.. بعد أن فشلت التجربة الجديدة..

●●●

لقد هبت العاصـفة بالأمس.. ففر بها الحب.. ذهب بهـا الصباح.. حتى ظننا أنه لن يطلع..

لكنه يطلع اليوم أنْضر ما يكون.. وأجـمل ما يكون.. مؤكدًا ضرورة المصابرة.. وأن النفق المظلم.. وإن طال.. ففي النهـاية.. ستكتحل أعيُننا بالنور.. وتفعم قلوبُنا بالسرور.

●●●

والحكمة ضالة المؤمن

وفي تراث الإنسانية الضخم ما يؤيد هذه التجربة:

والقصة من «النرويج» وبطلها أحد الصيادين هناك: تزوج فتاة. وعاش معهـا عشر سَنوات.. ثم طلقها. وبعـد فراق دام عشرين عامًـا.. كان قد تخطى الخمسين..

وذات يوم نشر إعـلانًا في باب «القلوب الوحيدة» في جريدة مـحلية. ذكر فيـه أنه وحيد.. ولكنه مليء بالحيوية.. ويـعيش في غرب النرويج.. ومغرم بالطبيعة وبالصيد.. وهو يبحث اليوم عمن تشاركه حياته.

وأرسلت إليه إحدى القـارئات رسالة إليه. ومعها صـورة لها: تَعرض عليه فيها أنها تريد أن تكون زوجته التي تشاركه حياته. وتُخرجه من وحدته التي يشكو منها.

وقال الرجل لنفسه وهو يحملق في الصورة:

لقد رأيت هذه المرأة من قبل!

وقد تبين له أنه لم يكن قد رآها فحسب.. ولكن المفاجأة أنه قد عاش معها عشر سنوات!!

لقد كانت زوجـته «ليلى» نفسها.. ولقد التـقى الزوجان من جديد.. ليستأنفا معًا حياة بهيجة سعيدة.

ويعلّق على الموقف باحث اجتماعي فيقول:

هذه القصة الحقيقية العجيبة.. تشير إلى عدة حقائق أرجو أن يتأملها الزوجان اللذان يفكران ـ أحدهما أو كلاهما ـ في الطلاق:

١ ـ فمهما اختلف الزوجان.. وظنا أنهما متنافران.. ولم يُخلقا للعيش معًا ـ فإن هناك نقاط التقاء كثيرة. فليحرصا على ألا يسلطا الأضواء على ما يختلفان فيه.. ثم ينسيان أو يهملان نقاط الالتقاء. وأوجه الاتفاق.

٢ ـ إن الحياة اليوم ملأى بنماذج كمثل هذين الزوجين: بعضهم قد تزوج ثانية. لكنه ندم على الزواج الأول.

٣ ـ ولعل هذين الزوجين قد ندما على ما كان من طلاقهما وفراقهما.. ولعلهما قالا:

يبدو أن كلا منهما كان قَدَر الآخر.

ولعلهما تحدثا عن خلافاتهما التي كانت سببًا في طلاقهما حديث سخرية!

لأنهما يَريَانها الآن أسبابًا تافهة.. حرمتهما العيش معًا تلك السنوات الطويلة.

فيا أيها الأزواج (والشباب منهم بخاصة):

تريثوا ولا تتعجلوا الطلاق.. فمهما رأيتم الخلاف اليوم كبيرًا.. فسترونه بعد سنوات.. صغيرًا.. صغيرًا].

●●●

لقد كانت المودة «حَبَّة» فَارَتْ في ماء الغضب يومًا.. لكنها ترسبت في القاع.. وما تزال سارية المفعول.. صالحة للاستعمال!

●●●

قوامة .. لا قيامة!

يقول (عز وجل) ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

يروي الإمام محمد عبده:

(أن أحـد السـائحين الأجـانب زاره في الأزهر. وبينمـا همـا مـارّان بالمسجد رأى الافرنجي بنتًا مارّةً فيه. فبُهت وقال:

ما هذا: أنثى.. تدخل الجامع؟!!

فقال له الإمام:

وما وجه الغرابة في ذلك؟ قال الضيف:

إننا نعتـقد أن الإسـلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح. وليـس عليهن عبادة.

فبيَّن له الإمام غَلَطَه. وفسَّر بعض الآيات فيهن.

وعقب الإمام قائلاً لتلاميذه:

فانظروا.. كيف صرنا حجة على ديننا؟..

ثم انظروا إلى جـهل هؤلاء بالإسلام.. حتى مـثل هذا الرجل. الذي هو رئيسٌ لجمعية كبيرة.. فما بالكم بعامَّتهم؟!!).

●●●

لقد نظر هذا الباحث إلى المرأة من خلال معاملة بعض الأزواج لها.. فساء ظنه بالإسلام. الذي تبدو المرأة في مرآته كائنًا له قدره.. وله خطره..

وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة والتي تقول:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

لهن.. يعني لهن: فحقهن ثابت رَضِي الرجال أم أبوا..

وهو حق لا يحملْن فيه منَّةً من أحد.. وإنما هو منحة ممن خلقهن (سبحانه وتعالى).. وليس للرجال دخل فيه.. ودَوْرهم فقط أن ينفذوا حكم الله (تعالى) على ما يقول صاحب المنار:

(فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة أن يعلموهن ما يمكِّنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفوس احترامًا يُعين على القيام بحقوقهن. ويُسهِّل طريقه:

فإن الإنسان بحكم الطبع.. يحترم من يراه مؤدبًا. عالمًا بما يجب عليه. عاملاً به.

ولا يُسْهُل عليه أن يمتهنه أو يهينه. وإن بدرت منه بادرة في حقه.. رَجَعَ على نفسه باللائمة.. فكان ذلك زاجرًا له عن مثلها). اهـ

•••

ولكن في أي شيء تكون المماثلة؟

إنها المماثلة في الواجب: ولا تشترط المماثلة في نوعية الفعل.. فليس عليه إذا غسلت ثيابه أن يغسل ثيابها.. وإنما عليه أن يرد الجميل.. لا بالغسيل.. وإنما يفعل ما يليق بالرجال من جميل الفعال.. شريطة أن يكون «بالمعروف»:

والمعروف هو:

ما لا تنكره العادة.

ومن صور هذا المعروف:

١ ـ ألا يعنف أحد الزوجين صاحبه.

٢ ـ ألا يكلف أحدٌ أحد بما لا يحسنه.

وفي ريفنا.. قد تقوم الدنيا ولا تقعد.. لأن «العروس» لا تعرف كيف تخبز.. ولا كيف تطبخ؟!

ثم لا تذكر «الحماة» دورها في تعليمها ما تجهل.. مثلما كانت هي في صباها.. وكذلك كنتم من قبل!

وقد يقع الزوج الشاب في حبائل أمه.. ويترتب على ذلك: تطرفٌ.. أدى إليه تطرف.. أو سوء تصرف..

ثم تبدأ مؤامرة الدوران حول الزوجة الشابة حتى تسقط غير مأسوف عليها.. محمَّلةً بأوزار الموقف كله.. مع أن القضية: أنَّ تصرفها كان «ردَّ فعلٍ» في مواجهة «فعل»!

إن إحساس الزوجة الجديدة بالعجز. يؤدي إلى العنف.. وصمتها سيتحول إلى صراخ!

ثم يصير الأمر على ما يقول الشاعر:

إذا ضيَّعتَ أول كل أمر ... أبَتْ أعجازُه إلا التواء
وإن سوغت أمرَك كلَّ وغد ... ضعيف.. كان أمر كما سواء

●●●

إن شريعة العدل توجِّه الأزواج إلى أنه:

(كما للرجال حق الرجعة قهراً.. فللنساء حق العشرة بالجميل.

وكما أن للرجال حَبسهُن.. فلهن حق إزالة الوحشة عنهن.. بما يؤنِسهُنّ).

●●●

أهمية المعروف:

وقد يبرِّئ الزوج ذمتــه.. فيوفِّي زوجته حقهــا.. ولكن طريقة الوفاء بهذا الحق تكون خارج نطاق المعروف..

وتلك ناحــية أدبيــة متــصلة بكرامــة المرأة.. التي هي أحوج مــا تكون إليها.. في ذلك الوقت الحساس..

إنه ليس من المعروف مثلاً أن يرىٰ أحد الطرفين أولاده ـ بعد الطلاق ـ في قسم الشرطة! أو علىٰ قارعة الطريق!

والإسلام حريص علىٰ توفير جو مــن الاحترام المتبادل بين المُفارقين.. فلعل في نظافة المعاملات ما يعين علىٰ التفكير السليم.. في عود حميد إلىٰ الوفاق من جديد..

إن أداءَك الحق شيء.. وأداءَه «بالذوق»: بالمعروف شيء آخر..

من أجل ذلك نرىٰ طريقة الأداء المعبَّر عنها «بالمعــروف» منبثَّة في كثير من الايات الكريمــة.. التي تجــعل من أداء الحق ابتــــداء.. تجــعله أداءً «مع إيقاف التنفيذ» حتىٰ تُتَوِّجَه بالإحسان في هذا الأداء.

ونقرأ في ذلك قوله (تعالىٰ):

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله (تعالىٰ) ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٤١].

●●●

لقد حُددت الاختصاصات.. ووُزِّعت الأدوار..

والمحدِّد: هو الشارع الحــكيم الذي لم يترك حسم القضــية إلىٰ «مزاج» أحد..

إنه «زواج» لا «مـزاج» تقاس فـيـه قيـمـة «الملاَّح» بموقـفه في مـهب العواصف.

ألا وإنه قوامة.. لا قيامة:

قِوامة.. تؤدِّي.. وبالمعروف..

لا قيامة.. تورِدِ الأسرة موارد الحقوف.



الزوجان
في ... مرآة القرآن

يقول الله (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ليست الزوجة «كرة» يقذفها الرجل في الماء.. فتطفو.. أو يضرب بها الجدار.. فترتد إليه!

وإنما هي إنسان: له ما للإنسان من حقوق.. وعليه ما عليه من واجبات.. هذه الحقوق التي وصى بها الرسول (ﷺ).. وفي حجة الوداع..! إشعارًا بهذه الوصية بحقوقها في هذه اللحظات الحرجة.. وأثناء الحديث عن أخطر القضايا المستقبلية.. دال على أن هذه الحقوق لا يجوز الترخص فيها.. ولا التهوين من شأنها.

وذلك قوله (ﷺ):

«أيها الناس:

فإن لكم على نسائكم حقًا.. ولهن عليكم حقا:

لكم عليهن: ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه.

وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن: فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع.. وتضربوهن ضربًا غير مبرح.

فإن انتهين.. فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيرًا: فإنهن عندكم عوان: لا يملكن لأنفسهن شيئًا.

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

ونستفيد ـ في شرح الحديث ـ بما تبقى في ذاكرتنا من تعليق أساتذتنا:

١ ـ إن إعادة لفظ «حـقا» منكّرا ومنصـوبًا.. يؤكد أن حق المرأة وحق الرجل من واد واحد.. على نفس المستوى من الأهمـية.. فهو حق عظيم. وإن بدأ بحق الرجل لأنه الأصل.

٢ ـ وإفراد «الحق» دلـيل على أن الحقوق لا تـتجزأ.. وليـعلم الرجل وهو الأقوى.. أن أصالة حقه لا تعني تفرده بكل الحقوق.

لأن لها كذلك حـقوقًا.. وليست قطعـة من أثاث البيت.. ولا يجوز قضاء حق على حساب آخر.. بل الكل في ميزان العدل سواء.

٣ ـ والتعبيـر «بالحق» دون «الواجب» لأن الواجب فيه إلزام.. بمعنى: يجب على الرجل كذا..

لكن التعبير «بالحق» يشعر الرجل بأن حقوقها دين في عنقه.. حتى لا يساوم .. ولا يمتهن كرامتها.

إنه حق:

وإذن.. فلنحـافظ عليـه.. ولندافع عنه.. ولا نتنازل عنه إلا برضـا صاحبة الحق نفسها.

٤ ـ وإذا بدأ النص بحق الزوج.. فـلأنه الأصل.. وإنما قـدّم في آية ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[البقرة: ٢٢٨]. لأن حق المرأة لما كان مظنة الإهمال قدم في الذكر.. تذكيرًا به. حتى لا ينسى.

٥ ـ ومن بلاغة الحديث أن يذكر الشيء وضده:

﴿ فـإن فـعلن. ﴾.و ﴿ فـإن انتـهين ﴾. وذلك يعني ذكـر الشيء مرتين: تصريحًا .. وتلميحًا.

٦ ـ أما قوله: ﴿ لكم عليهن ﴾

فيدل على أنه حق عيني للزوج. .

أما في حقها ﴿فلهن﴾ إشارة إلى أن الزوج لو افتقر. . فإن حقها لا يسقط. . بل هو مستقر لها من بيت المال.

أما عن توطئة الفرش. . **فيقول العلماء:**

الفرش: للزوج. . بخاصة. . فهو سيده الأوحد. وبلا منازع.

والمقصود بالتوطئة:

ألا تظهر الزوجــة بمظهر التــرحيب الزائد. الملفت للنظر بهــذا الضيف القادم.

لا سيمــا لو كان هذا القادم هو خطيــبها السابق. . مما يثــير حساســية جارفة لدى زوجها. .

والتعبير بالفراش: يراد به التنفير من إعداده لغيره، ،

فإن ذلك مما تأباه طبيعة الحرة. . وفوق ذلك طبيعة الزوجة المسلمة.

●●●

وما زلت أذكر هذا المجلس الذي دعيت إلــيه من قبل والد: ترى ابنته في الخاطب فارس أحلامها. .

لكن الوالد لم يكن يملك دليــلاً واحدًا على رفضه لهــذا الفتى الناجح الصالح. .

اللهم إلا مجرد حــساسية عارمــة. . لأن والد الفتى كان خطيب والدة المخطوبة في يوم من الأيام؟!

ولقد تحرك الوسواس الخناس مؤكــدًا له أن هناك ودًا قديمًا ينبعث اليوم من رقاده. . وبعــد ثلث قرن من الزمان. . مــن أجل ذلك رفض الخطبة. . قامعًا مشاعر ابنته!!

ولاحظ من تقدير الإسلام لهذه الحساسية.. أو لهذه الغيرة أن الرسول (ﷺ) يختار لفظ «أحدًا» في قوله: «**ألا يوطئن... أحدًا**» يعني: أي «أحد» كان: قريبًا.. أم بعيدًا.. رجلاً أو امرأة.. صغيرًا أو كبيرًا.. محرمًا أو غير محرم!

فالزوج حر.. وجهازه العصبي لا بد أن يظل هادئًا ليعتدل به ميزان البيت كله!

●●●

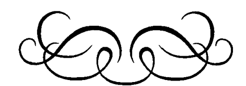
ويبقى أن نطامن من حدة هذه الحساسية في صدور بعض الأزواج:

بأن تصرف الزوجة إزاء الضيف القادم. قد يكون تلقائيًا.. وبلا سبق إصرار..

ويمكن التثبت من صحة ذلك على المدى الطويل.. فرارًا من التسرع في اتخاذ القرار..

ذلك بأن الغيرة ليست غريزة.. وإنما هي مشاعر مكتسبة يمكن التخلص منها.. بالمران.. والاعتصام بالإيمان.

فلنترك للزمن دوره.. فقد يكون جزءًا من العلاج.



ثمن الكرامة

(آخر الدواء الكي) حكمة جرت على لسان العرب.. ولا تزال، وتعني: أن الأطباء يحاولون علاج الجرح.. حتى يندمل.. ولكنه لا يستجيب للدواء.. وعندئذ يكون الكي بالنار هو خط الدفاع الأخير في حياة الجريح.. والذي يتحمل ألم الكي راضيًا.. في سبيل الشفاء الذي طال انتظاره، وكذلك فعلت «سلمى الغفارية» والتي تحملت فوق ما يحمل البشر.. في سبيل شيء أغلى وأعلى هو: الكرامة.

ومن قصتها: أن «عروة بن الورد» أغار على قبيلتها «غفار» وكان من صعاليك العرب.. لكنه كان.. شجاعًا.. جوادًا.. وقد وقعت في أسره «سلمى». ثم تزوجها واستولدها.. وذلك على كره منها، وما زال الإحساس بالذل يتنامى في قلبها.. حتى وجدت فرصة للهرب.. فهربت عائدة إلى قبيلتها، وفوجئ «عروة» بالفاجعة.. فلحق بها يطلب منها أن تعود.. على الأقل لرعاية أولادها.

لكنها قالت له: إني أقول فيك ـ وإن فارقتك ـ الحق.. والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك! وأغض طرفًا وأقل فحشًا وأجود يدًا.. وأحمى لحقيقة، ولكن: ما مرَّ عليّ يوم منذ كنت عندك.. إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك؟!

طالما سمعت المرأة من قومك تتحدث عني فتقول: قالت جارية عروة كذا وكذا!

والله لا أنظر في وجه إحداهن بعد اليوم ـ من كرهها للعبودية ـ ارجع

راشدًا إلى ولدك . . وأحسن إليهم!!

لقد تتحدث الأنباء اليوم عن تلك المرأة الحديدية . . والتي استطاعت أن تخترق كل الأسوار هاربة إلى هناك . . خلف البحار . . فـرارًا من محاكمتها على ما جنت يداها . . ولكن أين تلك القوة من هذه الزوجة «سلمى» والتي وقعت بين شقى الرحى . . وتعرضت لضغـوط من داخلها فلم تستسلم ولم تلن لها قناة؟!!

لقـد اسكتت صـراخ غـريزة الجنس . . مع زوج هو في رأيهـا خـيـر الأزواج . . ثم تجاهلت غريزة الأمومة . . حين رفضت أن تعود إلى أبنائها . . وهم فلذات كبدها . . كـيف انتصرت المرأة العربية في معـركتين من أشرس المعارك . . ثم دفعت عمرها ثمنًا للكرامة!!

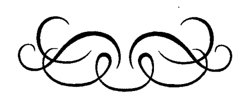
لقد استـغنت عن الزوج . . والولد . . لأن حاجتهـا إلى الكرامة كانت أغلى من ذلك كله، وربما راجع الـزوج نفســه . . مصـمـمًا على تلافي مـا حدث من نسـاء قومـه، ولكن الأسرة من حوله . . لن تمهـد له الطريق إلى العودة الراشدة .

إن في ذلك لعبرة لكل قـريبة للزوج تحرك لسانهـا بفارغ من القول . . يفرق شمل الجميع . . بالكلمة الطائشة تهدم بها العش الجميل .

إن زورق الحياة الزوجية قد يتهادئ على بحر هادئ الأمواج . . يتهادئ فيه الزوجان كئوس السعـادة . . وهنا تكون العلاقة «تجارة» . . يعطي أحدهما «السبت» ليجـد «الأحد» : أما عندما يثور الموج . . وتـعصف الرياح . . فهنا تظهر المعادن .

وقد كان معدن «سلمى» نفيسًا : ففي ساعة العسرة . . واجهت الإعصار بهذا الاصـطبار . . شهـدت لزوجهـا بما يخلده . . ثم رضيت بالوحـدة التي

رأتها خيرًا من جارات السوء.. وهي العزة المشتقة من الطبيعة العربية الأبية.. والتي عبر عنها «الثوري» بقوله: لأن أترك عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها.. أحب إليّ من أن أحتاج إلى الناس. ولأن أمضي وأترك بعض مالي يحاسبني به رب البرية أحب إليّ من وقع احتياجي إلى نذل شحيح بالعطية.



أيها الإنسان:
الثعبان.. لا يلدغ الثعبان!

يقول الله (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

حتى ولو كان صديق العائلة ملكًا يمشي على الأرض.. فلا بد من التعامل معه بحساب.. رعاية لشعور الزوج..

وهو بعض ما يفهم من قوله (ﷺ): «**لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه..**».

إنه لم يقل «تبغضونه».. فالبغض غير وارد أساسًا.. وحتى الكراهية.. فإنما تتعلق بمحادثة الصديق المحتفى به.. بشخصه..

على أن يكون مفهومًا لدى الزوجة أن العبرة بما يكرهه زوجها وما تعلم منه أنه يسئ إليه.. ولو كان هذا «الغريب» ملكًا .. فحق الزوج مكفول .رعاية لشعوره.. ليبقى إحساسه قويًا بأنه فعلاً يحتل مساحة قلب الزوجة كلها.. ولا مكان هناك لسواه.. فالبيت داره وقراره..

وسوف يظل البيت كذلك ما دام الزوج شاعرًا بأنه غير مهدد بشخص آخر يظنه أفضل منه..

وفي هذا الجو الآمن يتخطى الأطفال مراحل النمو محملين ببذور الوئام والسلام.

●●●

ثم يقول (ﷺ) في خطبة الوداع:

«**وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة**».

يقول العلماء:

لم يقل (ﷺ) في هذه: «ولكم عليـهن . .» وإنما قال: «وعليـهن ...» لأن المرأة منهية عن الفاحشة: كان لها زوج أم لا . .

والفاحشة موصوفة «بالبينة» . . ويعني ذلك أن تكون واضحة ظاهرة . . تعلن عن نفسها . . كاشفـة عن سوء طوية الزوجة بصورة لا تقبل الجدل . . فرارًا من الشك القـاتل إزاء كل شائعة لا تحـمل دليل صدقهـا . . والتي قد يسفر التحقق عن بطلانها .

●●●

نحن.. وهم

وهنا تظهر قيمة العفة التي هي تاج المرأة وزينتها . .

أما في بلاد لا تدين بالإسلام . . فماذا نرى؟ :

إن الزوجـة هناك لا تدان بالزنا . . إذا حدث ذلك برضـاها . . وبنفس القدر: لا يدان الزوج بالزنا إلا في حالة واحدة: إذا تمت الجريمة على فراش الزوجية . .

أما في مكان آخر . . فلا جريمة . . ولا مجرم . .

ويا لحرية المكان . . وعبودية الإنسان!!

●●●

ثم يقول (ﷺ):

«**فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع**..».

وإذا كان الحـرف «إن» للشك . . فإن ذلك يعني حـسن ظن بالمرأة التي يفترض الإسلام مبدئيًا عفتـها وطهرها . . وأن الانحراف عارض في حياتها: دخيل غير أصيل . .

ثم إن الإذن صادر من الله (تعالىٰ).. والزوج مجرد وكيل.. يفعل أو لا يفعل..

ولاحظ تكرار «المعـــروف» في عـلاقـة الزوجـــيـة.. لأن الزوج هو الأقوىٰ.. وحتىٰ لا يسيء استعمال حق القوامة. فإن الآيات تردعه بين الحين والآخر حتىٰ لا يتـصرف خارج دائرة المعروف.. مـستبدًا بكائن ضـعيف قد يتصور أنه رازقه.. مع أن نفقتها إلىٰ الله (تعالىٰ).. لا إليه.

●●●

وهذا حكم الله...

فماذا عند الإنسان؟

إن بعض الأزواج يحبون أنـفسهم.. وبعمق.. وأحيـانًا يسقط بعض هذا الحب علىٰ زوجـته.. لا لـذاتها.. وإنما لتـخلص له تلك الزوجـة.. لتكون له وحده.. وهذا لون من الأنانية إلىٰ حد ما..

والموقف الأمثل هنا:

أن نركـز انتبـاهنا.. فقـد يكون مـا نكرهه من زوجـاتنا هو بعينه مـا نحب..

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وبهـذا الفـهم الواعي نوفر مـلايين الخـلايا التي تحـتـرق في معـارك وهمية..

●●●

ولكن هذه المعارك الوهمية تدور رحاها بالفعل.. في خيال أبطالها.. مما حمل زوجة مطحونة أن تشن الغارة علىٰ الرجال..

تقول:

(إن المرأة المطلقة.. ليست كالرجل المطلق.. والمرأة العاقر.. ليست كالرجل العقيم.. والعانس.. ليست كالعازب..

ولا كانت الأرملة كالرجل الذي ماتت عنه زوجته:

فالرجل هو الرجل.. وهو كذلك مهما تبدلت أحواله:

هو رجل وإن لم يتزوج.. وهو رجل إن تزوج وطلق.. وهو رجل إن لم ينجب.. ويظل رجلاً إن ماتت زوجته.. لكن المرأة لا تصبح امرأة طبيعية إن طلقت.. ولا تصبح امرأة طبيعية إن لم تنجب.. أو لم تتزوج..

إنها توضع في قفص داخل قفص! وتخرج العيون من مآقيها خناجر تطعنها في سيرتها فتزيدها عذابًا فوق عذاب.. فهي لا تبتلى فقط بنظرات الرجال.. ولكن بنظرات بني جنسها أيضًا).

●●●

وإنها لنفثة مصدور.. قد يكون لها ما يسوغها.. لكنها وإن كانت صادقة.. إلا أنها لن تكون قانونًا.. ولا قاعدة.

وإذا كان المجتمع غير منصف في نظراته الحولاء إلى المطلقة.. فإن الإسلام ينصفها.. وفي ساعة العسرة.. وأخطاء بعض الأزواج محسوبة عليهم لا على الإسلام.

●●●

لكن ذلك لا يمنعنا من التذكير بما يحدث في دنيا الحيوان. وحتى الزواحف.. من وفاء لعله أن يكون عبرة للإنسان:

(إنها تتصارع بسبب الطعام أو مناطق النفوذ.. أو منافسات التناسل..

ثم ينتهي تصارعها بحركات رمزية ينسحب بها الضعيف منها أمام

القوي:

فالذئب المستلسم يتدحرج على ظهره.. والقرد المغلوب يشيح بنظره بعيدًا.. ويتوقف المهاجم.. وحتى الثعابين:

تتصارع.. وتتناطح برءوسها الصغيرة.. لكن الثعبان لا يلدغ الثعبان).

ويا ليت قومي يعلمون.. وليتهم حين يعلمون.. يعملون!



التزين هذا القاسم المشترك

يقول الله (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

من مقاصد الشريعة الإسلامية: تكوين أسرة صالحة مصلحة.. وفي سبيل تحقيق هذا المقصد الأسمى.. يشرع الإسلام من الآداب ما يمكن الأطراف المعنية من إنشاء علاقات نامية.. وبخاصة بين الزوجين.. على أساس من الاحترام المتبادل.. عن طريق التزام كل طرف بأداء حقه تجاه الآخر طيبة بذلك نفسه..

وأهم من ذلك أن تؤدى الحقوق محفوفة بالاحترام.. وإلا.. فإن الأمر على ما يقول (سبحانه وتعالى):

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

●●●

وفي طليعة حقوق الزوجة.. والتي تتصل بسعادة الأسرة اتصالاً مباشرًا. والتي أهملها البعض إهمالاً معيبًا.. حقها في أن يكون زوجها منسق الهندام.. مقبول الصورة.. حتى لا يغريها مشهد الآخرين.

وبذلك نسد بابًا من أبواب الفتنة التي قد تجعل من الطلاق حلاً لمشكلة.. كان من السهل تلافيها.

●●●

وقد فطن إلى هذا الحق المغيب ناس على قمة الورع.. ومنهم ابن عباس (رضي الله عنهما) والذي قال:

(إني لأتزين لامرأتي. كما تتزين لي. وما أحب أن آخذ حقي الذي لي عليها كله.. فتستوجب حقها الذي لها عليّ..

لأن الله (تعالى) يقول:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

●●●

ومنطق ابن عباس (رضي الله عنهما) كان واقعيًا: لأنه يعلم أن للزوجة عينًا ترى.. وأذنًا تسمع.. وقد تجد في الرجل الغريب ما لا تجده في زوجها..

فإذا هو لم يشبع رغبتها في حسن الهندام.. أعرضت عنه.. إلى من قد ترتبط به شعوريًا.. وإن لم يكن ذلك واقعيًا!

ولاحظ من فقهه (رضي الله عنهما):

أنه لا يطلب من زوجته كل حقوقه عليها.. حتى لا تطالبه هي الأخرى بكل حقوقها في عنقه.. وذلك ما لا يستطاع.

وهذا تقدير واع لمشاغل الأسرة.. التي قد تتسع وتتفاقم أحيانًا.. فلا تترك للزوجة مجالاً لزينة.. حين تنازعها مشكلات الأولاد.. ومتاعب العيش.

●●●

ونلفت النظر هنا إلى الفرق الهائل بين النظافة.. كمطلب أساسي.. وبين الأناقة التي ترهق ميزانية البيت بما لا تتحمله.

والمسألة في جوهرها ليست ثيابًا غالية.. كما وأنها ليست وسائل مستوردة نضيف بها من حساب الأسرة المسلمة إلى حساب غيرنا..

لكنها بالدرجة الأولى: إيمان بالنظافة.. يظهر أثره على الزوج على نحو يجعله دائمًا وفي نظر زوجته متجدد الحيوية.. فرارًا من أسف.. يصير

قلقًا . . فكراهية . . فرغبة في الفراق!

●●●

وقد كـان لأسلوب ابن عبـاس مدرسـة: اقتفت أثره . . وجـعلت من قراره أساسًا لمناهج مدروسة:

جاء في تفسير القرطبي:

(أما زينة الرجال: فعلىٰ تفاوت أحوالهم:

فـإنهم يعملون ذلك علىٰ اللـبق والوفاق ـ أي علىٰ مـقتـضىٰ اللباقـة وموافقة الحال:

فربما كانت زينة تليق في وقت . . ولا تليق في وقت.

وزينة تليق بالشباب . . وزينة تليق بالشيوخ. ولا تليق بالشباب.

ألا ترىٰ أن الشيخ والكهل إذا حف شاربه ليق به ذلك وزانه. والشاب إذا فعل ذلك . . سمج ومقت.

وكذلك في شأن الكسوة:

ففي هذا كله ابتغاء الحقـوق . . فإنما يعمل اللائق ليكون عند امرأته في زينة تسرها ويعفها عن غيره من الرجال.

وكذلك الكحل من الرجال:

منهم من يليق به . . ومنهم من لا يليق به.

فأما الطيب والسواك. وفضول الشعر. والتطهير. وقلم الأظفار . . فهو بيِّن موافق للجميع.

والخضاب للشيوخ . . والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة. وهو حلي الرجال).

ويواصل القرطبي حديثه فيقول:

(ثم عليـه ـ أي الزوج ـ أن يلاحظ أوقـات حـاجاتهـا إلى الرجـال. فيعفها. ويغنيها عن التطلع إلى غيره).

●●●

وإذ تتطور الحيـاة.. وتتجدد مظـاهرها.. فلا بأس من مواكـبة هذه الحياة بما هو منسجم من الزينة مع روح العصر.. ذلك بأن كثيرًا من الأزواج قد يتساهلون في أمر التزين أو النظافة فيـعرضون مستقبل الأسرة للخطر.. ومعظم النار من مستصغر الشرر.

في الوقت الذي يركز الشارع الحكيم عليـها ضمانًا لاستقـرار البيت. ألا إن الحرص على الهندام المنسق فـقط.. ثم إهمال قيمـة النظافة التي هي قمة التزين.. كل ذلك مناف لمنطـق الإسلام الذي ربط بين النظافة والسلام النفسي.. وذلك في قوله (تعالى):

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ [الأنفال: ١١]

●●●

ومن فقه علمائنا أنهم لمسوا حقيقـة من حقائق النفس الإنسانية.. فيما أوردوه من ضرورة ملاحظة وقت حاجة الزوجة إلى الرجال..

ذلك بأن الزوج قـد يفهم أنه سـيد الموقف.. وأن زمـام المبادرة بيـده هو.. وإنما المتـعة متـعتـه هو.. والوقت المناسب هو مـا استـيقظت فـيه غريزته.. متجاهلاً حاجة الطرف الآخر ووقته المناسب أيضًا!.

●●●

إن التزين.. والنظافـة كما هي حق للزوج.. فـهي وبنفس القوة حق للزوجة أيضًا..

وإذا لم يأمر بها الدين.. فإنها مطلب من مطالب الفطرة السوية.. بل

قد تتحول إلى عبادة يثاب عليها في منطق دين يقرر:

أن النظافة من الإيمان..

وإن الله جميل يحب الجمال

نظيف.. يحب النظافة



درجات ... لا دركات

يقول الله (عز وجل): ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

على غرار كـتاب «الأيام» لطه حـسين.. ألف نجيب مـحفوظ كـتاب «الأعوام». ولكنه مزق كـتابه هذا قبل أن يدفع به إلى المطبـعة.. لأنه وجد نفسه قد تأثر بطه حسين أكثر من اللازم.. والمفـروض أن تبقى له شخصيته المستقلة.. والتي لا ينبغي أن تذوب فيمن يحب!

فالحـبيب لا يـعني بالضرورة أن يكون تابعًـا.. أو نسخـة مكررة ممن يحب..

وقديمًا قالوا:

إن صديقك الحق.. من صَدَقك

لا من صدَّقك!!

وويل للذين يحملون الأقـلام.. ثم لا يعبرون عن ذواتهم.. ولا عن واقعهم!

●●●

ذكـرت هذا.. وأنا أتأمل الآية الكريمة وقلت: أجل إن للرجل درجـة على المرأة:

(فالرجل يزيد على المرأة بدرجة من ثلاث:

وأن كل امرأتين بمنزلة رجل).

وصحـيح أنه الأصل.. لكن ذلك لا يعني إلغاء شـخصـية المرأة التي يجب أن تظل شخصية مستقلة وإن كان هو سيد البيت.. فليس من مصلحة

الأسرة أن يكون الرجل هو الحاكم بأمره بينما تظل هي صفرًا على الشمال!

●●●

مسوغات الفضل

ولا يزيد الرجل درجة.. من فراغ.. وإنما لهذا التفـضيل مسوغاته.. من طبيعة الرجل وطبيعة المرأة معًا.

أما عن طبيعة المرأة.. فنقرأ:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمم من حسن.. إذا الحسن قصَّرا

وأما إذا كان الجمال موفرًا ... كحسنك.. لم يحتج إلى أن يزوّرا

فالمرأة تنشأ في الحلية التي هي جبر لنقصها..

ثم هي في الخصام لا تبين:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ... ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

فلم يعتذر عذر البريء.. ولم تزل ... به سكتة.. حتى يقال مريب

وصدق الله العظيم: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]. وقد فهم المفسرون من قوله تعالى:

﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]:

«أن الكامل في وصفه وقوته. وخلقته. يناسب حاله أن يكون قائمًا على الضعيف الناقص خلقة.

ولهذه الحكمة جعل ميراثه مضاعفًا على ميراثها:

لأن من يقوم على غيره.. مترقب النقص.

ومن يقوم عليه غيره.. مترقب للزيادة.

وإيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة ظاهر الحكمة).

●●●

جاء في أضواء البيان ـ جـ١/ ٢٢٠:

إن (الرجل أفضل من المرأة:

وذلك لأن الذكـورة شرف وكـمـال. والأنوثة نقص خِلقي. طبـعي. والخلق كأنه مجمع على ذلك:

لأن الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي.

وذلك إنما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي. الذي هو الأنوثة.

بخلاف الذكر: فجمال ذكورته يكفيه عن الحلي).

●●●

يقول المفسرون أيضًا زيادة في الإيضاح وتقريرًا لقيمة العدل:

(حصول المنافع واللذة: مشترك بين الجانبين:

لأن المقصود من الزوجية هو:

السكن. والألفة. والمودة. واشتباك الأنساب.. وحصول اللذة.

وكل ذلك مشترك بين الجانبين.. بل يمكن أن يقال:

إن نصيب المرأة فيها أوفر.

●●●

ثم إن الزوج اختص بالتـزام المهر. والنفقـة. والدفاع عنها. والقـيام بمصالحها. ومنعها من مواقع الآفات..

فكان قـيام المرأة بـخدمـة الرجل آكـد وجوبًا. رعـاية لهـذه الحقـوق الزائدة)[1].

---

(١) «الرازي».

ما هي الدجة

(والدرجة هي:

البر. والإكرام. والتبجيل والطواعية للرجال.

وذلك أنه لما قدم أن على كل واحد من الزوجين للآخـر مثل ما للآخر عليه.. اقتضى ذلك المماثلة.. فبين (تعـالى) أنهما وإن تماثلا فيما على كل واحد منهـما للآخر.. فعليـهن مزيد إكرام وتعظيم لرجـالهن.. وأشار إلى العلة في ذلك وهي:

كـونه رجلاً يغـالب الشـدائد والأهوال. ويسـعى دائمًـا في مصـالح زوجته). اهـ

●●●

ولكننا نكرر ونقرر: أن هذه الدرجـة لا تذهب بما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو: أن المرأة إنسان.. لها وضعها المرموق في المنظومة الأسرية.

لأن هذه الدرجة مفروضة بحكم مسئولية الرجل الإدارية والمالية.. ولا تمنحه تسلطًا يذهب بما قررته الآيات من تقدير لمواهبها..

إنها «درجات» لا «دركات»..

إنه «علو» و «تسام» في السلم الأسري.. ولا يلزم أن يكون مخصومًا من كرامة المرأة وعزتها..

بل إنه التكامل.. الذي يصير البيت به واحة من الأمان..

ومحضنا لجيل جديد يتحمل من بعد تكاليف الإيمان.



درجة التكليف... وليس التشريف

يقول الله (عز وجل): ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

الحديث عن الطلاق.. والعدة.. والتربص.. والنفقة.. الحديث عن هذه المعاني محرج للمرأة.. داخل بها في أفق من التوتر.. والضيق.. حين تزاور الشمس عن كهفها.. وبعد أن كانت بالأمس ملء السمع وملء البصر.. تصبح اليوم مخلوقًا ضعيفًا.. تلاحقها القلوب بالإشفاق.. وشعور الإشفاق موجع في عرف الأحرار.

لا سيما إذا جاء بديلاً عن مشاعر التقدير والاحترام..

ومن أجل ذلك.. وفي هذه اللحظات الحرجة بالذات. يوثق المولى (عز وجل) الوصية بالنساء في قوله (تعالى):

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

●●●

لكن ذلك لا يلغي حقيقة أن للرجال عليهن درجة.. وذلك قوله (تعالى):

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكان المتوقع ـ بمنطقنا البشري ـ أن يقال: [ولهم عليهن درجة].. مثلاً.. ولكنه (عز وجل) يظهر في مقام الإضمار.. فيبرز خاصية الرجولة التي هي سبب في هذه الدرجة.

ذلك بأن الرجولة تعني: القوة.. وهكذا تقول اللغة:

يقال:

فلان أرجل الرجلين.. أي: أقواهما.

وفرس رجيل: قوي على المشي..

وارتجل الكلام: قوي عليه. من غير حاجة فيه إلى فكر وروية.

وترجل النهار: قوي ضوؤه.

●●●

وإذن فهي مـزية «الرجولة» على «الأنوثة».. لأن كونه رجـلاً يساوي كونه قيمًا على البيت كله.. بما فـيه الزوجة.. قوامة.. هي لصالح الزوجة أولاً..والتي تعـيش في كنفه آمنة مـطمئنة.. يأتيـها رزقـها رغـدًا من كل مكان.

جاء في تفسير القرطبي:

(إن زيادة درجـة الرجل.. بـعـقله. وقـوته على الإنـفـاق. وبالدية والميراث والجهاد).

ثم يقول:

(ولا يخفى على اللبيب فضل الرجال على النساء. ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل.. فهو أصلها. وله أن يمنعها من التصرف إلا بإذنه: فلا تصوم إلا بإذنه. ولا تحج إلا معه).

وقد حكى عن ابن عباس قوله:

(إن الدرجة إشـارة إلى حض الرجال على حسن العشـرة.. والتوسع للنساء في المال والخلق:

أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه.

قال ابن عطية: (وهذا قول حسن بارع).

ونحن مع ابن عطيـة (رحمه الله) في الإعـجاب بما يقرره ابن عـباس (رضي الله عنهما):

لأنه يجعل من الدرجـة الزائدة.. تكليفًـا.. لا تشريفًا.. يؤكـد أنها ليست تعاليًا ولا تسلطًا.. وإنما هي: ضبط النفس في معاملة العشير. وإيثار التصرف الحـضاري مع رفيق العمر.. وإلا فلو حـاسبناها على كل كلمة.. وعاملناها بقـانون العدل دون التحـليق في أفق الإحسان.. مـا كنا جديرين بهذه الدرجة.. فقد استوى الماء والخشبة!

وإذا أردت مثالاً على ذلك.. فـتأمل بعض البيوت التي استنوق فـيها الجـمل.. والتي تنازل فيـها الزوج عـن هذه الدرجة.. فـتبـادل المواقع مع زوجته ثم نزل من عليائه.. لتصبح هي الآمرة الناهية!

إن هذا التفريط لون من الظلم نضع به الأمور في غير مواضعها.. ألا إنه «النشاز» في اللحن المتناسق.. ومن مصلحة الزوجـة نفسها أن تعود إلى موقعها.. لتتلقى الأوامـر من لدن رجل قادر على قيادة السفين.. وهو في نفس الوقت حاميها..

●●●

لقد منح الإسلام المرأة حقوقًا.. لتكون بحـقوقها تلك قوة تضاف إلى الرجل..

ولـم يرض أن يتفـرد الرجل.. إلى حد إلغاء ذاتهـا.. ولا أن يستنوق الجمل.. فينهار البيت..

●●●

ولقد تجاهلنا ذلك تجـاهلاً معيبًا.. حـتى ظن أعداؤنا أن ذلك أثر من أثار ديننا..

ولكنه «القصور» في الفهم. . و«التقصير» في البلاغ. .

ولم يبق أمامنا. . كما قال جمال الدين الأفغاني إلا أن يعلن المقصرون من المسلمين أنهم ليسوا مسلمين أوّلاً. . ليمكن للناس أن يدخلوا في دين الله ثانيًا!

●●●

رأي الإمام محمد عبده:

عقب الإمام على الآية الكريمة. . بالحديث عن درجة المرأة. . لا عن درجة الرجل؟!

وكأنه (رحمه الله) يتعمد طي الحديث عن درجة الرجل. . فهي ظاهرة بينة. . فضلاً عن كفاءته في الدفاع عنها. . ثم آثر التركيز على درجة المرأة. . لأنها مظنة الإهمال. . يقول:

(هذه الدرجة التي رفع النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق. . بل لم تصل إليها أمة. . قبل الإسلام ولا بعده:

وهذه الأمم الأوروبية والتي كان من تقدمها أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن. . لا تزال المرأة فيها دون هذه الدرجة التي رفعها الإسلام إليها. . ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها. دون إذن زوجها.

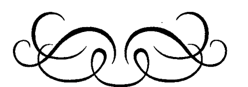
ذلك الحق الذي منحته الشريعة الإسلامية للمرأة منذ جاء الإسلام. . فلم تبح للرجل أن يأكل من مالها ـ فضلاً عن تملكه والتصرف فيه ـ إلا إذا كان عن طيب نفس منها:

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[النساء: ٤] وقد كان النساء في أوروبا منذ أمد بعيد بمنزلة الأرقاء في كل شيء. . كما كن في

عهد الجاهلية عند العرب.. أو أسوأ حالاً.. وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصـرت أمنيتـهم ـ ولا أقول دينهم الذي جـاء به المسيح ـ عن شريـعتنا في إعلاء شـأن النساء.. صـاروا يفخـرون علينا.. بل يرموننا بالهـمجـية في معاملة النساء) أ. هـ

●●●

ويبـقى أن يـرتقي الخطاب الديني الـيـوم وغـدًا.. ليـؤكـد لهـؤلاء العاذلين.. أن ذلك الذي يرونه ليس أثرًا من آثار ديننا.. وإنما هو عوج في تصـرف السطحيين.. ممن يدينـون به.. لكن الإسلام شيء.. والمسلمـون شيء آخر!



الطلاق العاطفي!

يقول الله (عز وجل):

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

في خيالي صورة ذلك الصياد الماهر:

يحمل شبكته كل يوم.. ثم يرمي بها في البحر.. وحين تأتيه محملة «باللحم الطري» لا تلهيه البهجة بالرزق الحلال.. عن تنظيف الشبكة أولاً بأول .. من النفايات والطحالب.. حتى إذا حملها في اليوم التالي كانت صالحة للاستعمال.. ثم عاد بها إلى البيت.. أو إلى السوق منتشيًا متفائلاً.. بشبكته.. وبحرفته.

●●●

وتختفي هذه الصورة الفريدة.. لتستقبل المخيلة ذلك الصياد العاثر:

إنه يرمي بشبكته في البحر.. ثم يسرع في جمع ما حصّلت له في يومه.. لكن الفرحة الغامرة لا تترك له فرصة ينقي فيها شبكته.. من «النفايات واالطحالب» والتي تتراكم أو تتفاقم مع الأيام.. إلى الحد الذي يرهقها بما تنوء به من «فضلات» ثم لا يجد لديه قدرة ينزل بالشبكة إلى الشاطئ.. ولا يبقى لديه إلا أن يمزقها ليعود إلى البيت بخفى حنين..

وهكذا الزوج الفاشل:

فبينما زميله يلاحق التفاهات الصغيرة بالتنقية أولاً بأول.. ليظل البيت نظيفًا.. إذا به ينام عن حقله الذي تكبر فيه الصغائر يومًا.. ولا يكون هناك حل إلا أن يمزق العلاقة الزوجية.. ضاربًا بمصلحة الأسرة كلها عرض الحائط! .. يمزقها بالتنافر والشقاق .. وإن لم يكن بالفراق..

وقبل أن يقع الطلاق.. فـما أكثر الادعاءات.. والافـتراءات في تلك اللحظة.. التي تجعل من إحدى العلاقات الإنسانية.. بل قمتها هدفًا للقيل والقال. وكثرة السؤال.. حين يتجـاوز الزوجان: أحدهما أو كلاهما «الخط الأحمر» أو حدود الله (تعالى).. فيهرف بما يعرف وما لا يعرف..

●●●

أجل.. قد لا يكون هناك طلاق من الناحية الشـرعية العملية.. وإنما هو الطلاق العاطفي.. الذي يقطع الصلة بين الزوجين وإن كـانا من الناحية الشرعية زوجين.. وكما تقرر ذلك الوثائق الرسمية.

●●●

وقد يـعتـصم الزوج في هذه الحالة «بدرجـته» أو «برجـولته» فـيظلم الطرف الآخر.. ولكن الآية الكريمة تهز وجدانه هزًا بقوله (تعالى):

﴿ .. وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهي رسالة شديدة اللهجة إلى الرجل تقول له:

إن الله (تعالى) قـد أعز الرجل بالعـزة.. لكنها العزة المـمنوحة له من قبل الله العزيز.. والذي أعار الرجل ثوب عزته وسطوته..

وإذا صرت بهـذه الدرجة عزيزًا.. فـحذار من الغـرور والاستطالة.. وإلا حل بك العقاب. إذا أسأت استغلال هذه الدرجة لصالحك على حساب رفيق عمرك.

يقول ذلك.. تمامًا كما حذر المرأة من قبل.. بقوله (تعالى):

﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾

[البـقرة: ٢٢٨]. لقـد كان ذلـك ردعًا للزوجـة بتذكـيـرها بالحسـاب يوم القيامة.. لأن من صـالحها ـ كما يقول العلمـاء ـ (أن تطيل العدة أحيانًا..

وأن تقصرها أحيانًا أخرى. . فتحثـها الآية الكريمة على إعلان الحقيقة بتعليق عدم الكتمان على الإيمان بالله واليوم الآخر).

●●●

فإذا كانت الآية تذكر المرأة. . حتى لا تكتم. .

فإنها وبنفس القوة تذكر . . حتى لا يظلم. .

وإنها تذكر من صفات الله (تعالى): عزته وحكمته:

عزته الغالبة. . والتي تثأر للضعيف. .

وحكمته البالغة. . الواضعة كل شيء في مكانه المناسب.

●●●

ثم هو في نفس اللحظة خطاب للمرأة يقول لها:

إنك إذا كنت في حـمـاية الله الـعزيـز. . فـإن عليك أن تذكـري أنه (تعالى) مع عزته. . فهو حكيم. .

ومسئوليتك تفرض عليك الإيمان بهذه الحكمة الإلهية. .

وأن ما وجد بعـزته. . مشمولاً بحكمته. . فـإنه مما يجب التسليم به، بل والاسـتسـلام له... وفي ذلك من تسليـة النساء مـا فـيه. وكـما يقـول المفسرون:

(إن الله فعل ما فعل لحكمة بالغة. .

وأن ما أوجده بحكمته. . وأتقنه بحكـمته. . لا يمكن نقضه). فلنسلم بما كتبه الله لنا. . أو علينا. . فالخيرة فيما اختاره الله (تعالى).

●●●

وعندما يدرك الطرفان مسئـوليتهما. . مستشعـرين أن هناك إلـها عزيزاً حكيمًا. . قـادرًا. . هما معًا مسـئولان بين يديه (سبحانه) على مـا قالا وما

فعلا.. عندما يدركان ذلك.. تتراجع مشاعر الكراهية.. وتتضاءل أحجام المصالح الشخصية.. ثم يعطي كل طرف رفيقه حقه في الاهتمام والرعاية.. ما دام ذلك سيبقى رصيدًا في يوم تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

●●●

أجنحة صغيرة تتكسر

تحت هذا العنوان يقول باحث نفسي محذرًا:

(يحول الشجار العائلي طاقة المودة بين الزوجين إلى طاقة مدمرة تسحق بين شقيها المتحجرين نفسيات الأبناء في مراحل التكوين.

حين يتحول الزوجان إلى حجري طاحون: يدوران بالكراهية: أحدهما ضد الآخر.

فتتوالد عن دورانهما الأصم شرارات.. تشعل مزيدًا من الكراهية.

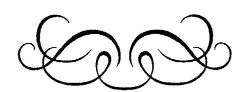
وتسحق أو تحرق بينهما أجنحة صغيرة. لكائنات جميلة غالية.

تتأهب للطيران في الغد القريب ـ هم الأطفال ـ ويتحول زوجان ـ جمعهما الحب يومًا ـ إلى حجرين مدمرين).

●●●

وتظل مسئولية الرجل أكبر وأعظم.. هذه المسئولية التي تكل إليه إنقاذ السفينة من الغرق.. وتلك هي تكاليف الدرجة التي كان بها. فرط البيت ورائده.. القادر على حسم الأمور لتستقر الحياة وتستمر:

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].



أبغض الحلال

من بعيد.. يعجبك صف النخيل ﴿بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]. لا ترىٰ فيهــا عوجًا ولا أمتًــا. يغريك هذا الجمال: جــمال التناسق. والنظام. والعناقيد المدلاة تمنح الناس من لدنها رطبًا جنيًا..

ولكنك تقــترب من النخيل.. فــإذا بك أمام نتــوءات.. وعوج.. لم ترها من مكانك البــعيد.. ومن ثم.. تــتراجع نسبــة الإعجــاب لديك أمام واقع صارم كان بالأمس حلمًا جميلاً.. ثم يصبح اليوم همًا ثقيلاً.

●●●

وفي دنيا الزواج يحدث مثل هذا:

فقد ترى الرجال كالنخل.. وما يدريك ما الدخل!!

وقد ترى فتــاة أحلامك وردة فيحاء في بســتان مورق.. لكنك تدخل البستان.. فإذا هو على غير ما كان في الحسبان!!

ومن هنا.. وبعد الزواج تبدأ الخلافات التي تســتحيل أزمات لا تنتهي إلا بعملية جراحية هي: الطلاق.

●●●

ولكن.. إذا كــان هناك مــا هو «أحل».. ومــا هو «حــلال» فــإن في شريعتنا الغراء ما هو أبغض الحلال:

«**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[1].

وإذا كان «الأحل» يمثل العمق.. يمثل الوسط المحميَّ من الدائرة.. فلا

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان. والحاكم وصححه.

تطوله يد الانحـراف. . فـإن «الحـلال» ما ابتـعـد عنه. . في اتجـاه منطقـة الحرام. .

أما «أبغض الحلال» فـهو المتاخم لحدود الحـرام. . ويوشك مرتكبه أن يسـقط في بؤرة هذا الحـرام. . مـن أجل ذلك كـان أبغض الحـلال إلى الله (تعالى). .

●●●

ضرورة الطلاق

وإذ يقرر الطبيب ضرورة إجـراء العملية الجراحية بعـد استنفاد العلاج بالمضـادات الحيـوية «فإن الإسـلام يسمح بـالطلاق بعد تخطي كل مـراحل الإصلاح. . وبعد بذل الجهود المنتهية بالفشل.

يقول ابن قدامة في «المغني»:

(والعبرة دالة على جوازه:

فإنه ربما فـسدت الحـال بين الزوجين. . فيـصير بقـاء النكاح مفـسدة محـضة. وضررًا مجـردًا: بإلزام الزوج النفقـة. والسكن. وحبس المرأة مع سوء العشرة)[1].

وإنها لواقـعية الإسـلام الحكيمة الرحـيمة. . في الـلحظة التي صارت القلوب فيها:

مثل الزجاجة: كسرها لا يجبر!

وفي الوقت الذي يقول الصاحب لصاحبه بلسان الحال:

أيهـــا الـعـــائد المســـائل عـنا وبودِّيـك لو ترىٰ أكـــفـــاني!

(١) «المغني» (٨/ ٩٦).

والفضل ما شهدت به الأعداء

وقد صحا المفكرون الغربيون أخيرًا.. على حقيقة طالما جادلوا فيها.. فأذنوا في الناس بأن الطلاق رحمة مهداة ونعمة مسداة:

قال «بيتام» أحد رجال القانون الإنجليزي:

(لو وضع مشرع قانونًا يحرم فض الشركات. ويمنع ولاية الأوصياء. وعزل الوكلاء. ومفارقة الرفقاء..لو وجد هذا القانوني.. ماذا يحدث؟

سوف يصيح الناس أجمعون: إنه غاية الظلم. واعتقدوا صدوره من معتوه. أو مجنون!

فيا عجبًا!!!

إن هذا الأمر ـ إن هذا القانون المزعوم ـ والذي يخالف الفطرة. ويجافي الحكمة. وتأباه المصلحة. ولا يستقيم مع أصول التشريع.. هذا الأمر تقرره القوانين بمجرد التعاقد بين الزوجين في أكثر البلاد المتمدنة!

وكأنها إبعاد الناس عن الزواج؟!

فإن النهي عن الخروج من شيء نهي عن الدخول فيه!

وإذا كان وقوع النفرة واستحكام الشقاق والعداء ليس بعيد الوقوع بين الزوجين.. فأيهما خير؟:

أن نربط الزوجين بحبل متين.. لتأكل الضغينة قلبيهما.. ويكيد كل منهما للآخر..

أم حل ما بينهما من رباط.. وتمكين كل منهما من بناء بيت جديد على دعائم قوية؟

أوليس استبدال زوج بآخر.. خيرًا من ضم خليلة إلى زوجة مهملة.. أو عشيق إلى زوج بغيض) أ.هـ .

ألا إن إنهاء العــلاقة حينئذ بالطلاق هو خــير وأهدى سبيــلاً من حياة الشتات والضياع. .

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]

ويبقى أن يحسن الرجال استغلال هذه الرخصة المواتية. .

وإذا كنا نحسن الظن بكثير من العقلاء. . الذين قد يكرهون لكنهم لا يظلمون. . فإننا باسم الإسلام نحذر الذين يتــلاعبون بهذا الميثاق الغليظ. . على حســاب أطراف أخرى هي التي تدفع ثمن هذا التــلاعب. . حين يظن الزوج أنه ذلك العـصفـور الطليق والذي ينتــقل من فنن إلى فنن. . بحـيث يصعب اصطياده. . هذا الصنف الذي عناه القائل:

(يا عجبًا من أناس:

أكرمهم الله بالعقل. . وخاطبهم بشرائعه. وأحكامه . . وجعلهم أهلاً لجميع التصرفات. وقوّامًا على زوجاتهم وأولادهم. ثم يأبون هذا التكريم. ويعلنون أنهم ليسوا مـوضعًا لهذه الثقة. ولا أهلاً لهـذه القوامة. وأنهم في حاجة إلى فـرض رقابة قضائية عـليهم. عند الرغبة في إنهاء الـعلاقة بينهم وبين زوجاتهم) أ. هـ .



أبغض الحلال.. لماذا؟

جاء الرجل من أقصى القرية يسعى. . شاكيًا باكيًا. . لأنه تسرع واتخذ قرار طلاق لم تتوافر دواعيه. . وقلت له:

إن زوجتك لم ترتكب الفاحشة. . ولكنها الكلمة الطائشة. . جرت على لسانها. . فلم تستوعبها. . وكأن وزنك بين الرجال هو وزن هذه الكلمة العابرة. . الفائرة. . لأن الأمر كما يقولون:

الرجل يساوي الشيء الذي يغضبه!

وكلما كان الماء في الإناء قليلاً. . كان أسرع إلى الغليان. . وهكذا أنت:

لقد كان نصيبك من التعقل قليلاً. . ففعلت فعلتك التي فعلت. . ثم صرت من النادمين. وأنا أعرف أن زوجتك «بيضة مكنونة». . لكنك لما لم تستطع أن تضعها في مكانها برفق. . فضلت الأسهل. . فكسرتها. . فخسرتها!!

●●●

ولكن. . يجب أن تعلم أن قرار الطلاق شرر متطاير. . واسع. . بعيد الأثر. . وأنت أول المتضررين. . وإذا كنت في لحظة الغضب تحاول أن تداري عيوبك بعيوب غيرك. . فاعلم أنك عندما تحاول أن ترمي غيرك بالوحل. . فلا تنس أن يدك سوف ينالها كفل من هذا الوحل أولاً!.

●●●

إن ضرر الطلاق عائد على كل أطراف القضية:

الزوج. . والزوجة. . والذرية. . والمجتمع:

لقد صرت بهـذا الطلاق حديثًا مسليًا لجيـرانك في البيت. . وزملائك في العمل. .

وفي اللحظة التي تحـاول فيهـا الدفاع عن نفـسك. . فسوف لا يـقتنع الرفـاق بقولك. . لأنك تلح في إثبـات أن مطلقتك لم تكـن مثاليـة. . في الوقت الذي لم تكن أنت فيه مثاليًا!!

وفاتك أن تتأمل قول العقلاء:

(فإن كرهتـموهن. لدمامة أو سـوء خلق. من غير فاحـشة أو نشوز. فهذا يندب فيه الاحتمال.

. فعسى أن يئول الأمر إلى أن يرزق الله منها أولادًا صالحين).

يقول (عز وجل):

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

والآية الكريمة تصون الحقوق. . وتدرأ المفاسد. . وتحذر من التسرع في هدم المعبد على رءوس من فيه. . ثم تحدد الآية الكريمة مسئولية الزوج في:

أ ـ الإنصاف في المبيت. وفي النفقة.

ب ـ ثم الإجمال في القول.

فإن آثرتم الفراق. . حيث تعذر الوفاق. .

إذا لم يتسع قلـبك لزوجتك. . فليتـسع لها عقلـك. . وأمسك عليك زوجك واتق الله!

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

عـسى الله أن يرزقك الله منهـا الولـد الذي به تنبـعث عـاطفـة الحب

الغائبة، أو المغيبة!

ولعل صبـرك أن يدخر لك عند الله ثـوابًا عظيمًا.. وتـأمل الآية مرة ثانية.. فإنها تقول لك:

إن ما تكرهه من زوجـتك.. عسى أن يكون هو بالذات خـيرًا لك.. والخيرة فيما اختاره الله (تعالى) لنا.. لا فيما نختاره لأنفسنا..

وقد تملك من الجمال قدرًا ضئيـلاً.. لكن ضآلة النسبة قد تكون خيرًا لك ولزوجك.. إذا ما أصـخت السمع إلى تلك المعـارك الدائرة بين جارك وزوجته الصارخة الجـمال.. والتي تفجرها الغيرة تفجـيرًا.. لقد أعفاك الله من آصارها!

وكان عليك أن تصبـر.. ثم تصطبر عليها.. فالدواء قـد ينبعث يومًا من مكمن الداء!

●●●

أما أضرار الطلاق على زوجتك

فإن الواقع يقول لك:

إذا احتميت أنت برجولتك.. وبالقدرة على الدفاع عن نفسك.. فإن الزوجة دائمًا في الموقف الضعيف:

فسوف تتحرك الألسنة متسائلة:

لماذا طلقها؟

وسوف تتـعدد الاجتـهادات.. التي تنتهي إلى مـا ينسجم مع طبيـعة الفضوليين وهو:

ما طلقها إلا لريبة فيها...

ويكفي ذلك.. ليكون مانعًا من الإقبال عليهـا لا ستئناف حياة جديدة

مع زوج آخر.. في الوقت الذي تستطيع أنت أن تبني عشًا جديدًا!

●●●

وأما بالنسبة للمجتمع:

فسوف يحدث خلل في بنائه.. بسبب من هذا النشاز في اللحن المتناسق:

بسبب رجل لم يكن حريصًا في الاختيار.. ولم يكن أحرص في حال التغيير.. فواجه بالتسرع سوء المصير.

●●●

أما الأولاد:

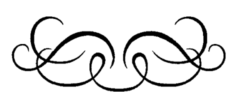
فسوف لا يغفرون لأبيهم نزوته الطارئة.. والطامحة إلى حبيب جديد.. وفي الوقت الرديء.. ثم ضن عليهم.. فلم يتنازل عن وهم المتعة التي يرجو.. وآثر أن يفتت الشمل الجميع!

●●●

ألا إن مشكلة الزوجين قد تنتهي بالطلاق..

ولكن المشكلة الكبرى هي الأولاد الذين قد يكونون ذكورًا.. وهذه هي الخسارة..

وقد يكن إناثًا.. وذلك هو الخسران المبين.



الزوجة والعودة إلى العش المهجور

حاول المغرضون أن يتخذوا من تشريع الطلاق هدفًا لهم:

فزادوا فـي الكلام عنه وعادوا.. زاعـمين أنه سلاح ضـد المرأة في يد زوج يفضل حل الخلافات الزوجية بأسلوب المصارعة اليابانية!

ولقد كان لهذه الحملة الظالمة آثارها حتى سمعنا من تقول:

[إن الزوجة سمكة في بحيرة.. تعيش مع تمساح جائع!:

إنه يدخل بيت الزوجية بإحساس رجل جائع يدخل مطعمًا:

فيتعامل مع زوجته كالدجاجة المشوية:

يتلذذ بهـا .. ثم يشبع.. وبعـد ذلك يلقيـها فـضلات.. دون أدنى شعـور منه بالامتنان «لقطعـة اللحم هذه» والتي أمدته بالفـيتـامينات.. بل بالحياة!].

●●●

وعلى أرض الواقع مزدجر لهذه النزعة المتجنية.. والتي تريد أن تجعل من الشاذ قاعدة لا تناقش..

وإلا.. فقد سمعنا وقرأنا عن أزواج أوفياء يقول أحدهم:

ويبـيت بين جـوانحي حب لهـا   لو كـان تحت فـراشـهـا لأقلهـا

ولعـمـرها: لو كـان حبي فوقـهـا   يومًا وقـد ضحـيت.. إذن لأظلها!

إن عشرة العمر الطويلة.. لم تجفف نبع الود الذي يظل رصيده يتنامى مع الأيام!

ألا وإن الواقع الماثل أصدق إنباءً من فلسفة واهمة. . تريد أن تجعل من المزاج الفردي حكمًا . . لا معقب لحكمه. . ومن الأهمية بمكان أن نناقش المغرضين الحساب. . هؤلاء الذين يتهمون الإسلام صادرين عن حقد دفين. .

نقول لهم:

إن الإسلام حين شرع الطلاق. . لا يهش له. . وإنما يشرعه وعلى مضض. . بعد استنفاد كل الطرق السلمية. . ليكون آخر الدواء الكي.

ثم إن هناك فترة متطاولة. . هي مدة الرجعة التي يلزم بها الطرفان. . فلعل العقل أن يصحو خلالها. . حتى تعود المياة إلى مجاريها. . أي أنه لا ينتهز الفرصة ليحكم بالفراق الأبدي منذ اللحظة الأولى. . ولكنه يراقب. . ويتابع. . فلعل الود القديم أن ينبعث من جديد. .

ثم إن الزوجة لا تخرج من العش طائرًا مقصوص الجناح. . ولكنها تخرج مرفوعة الرأس. . مرشحة لاستئناف الحياة مع زوج جديد. . بنفس القدر الذي أتيح لمطلقها. .

يقول صاحب المنار:

(إن في الطلاق غضاضة وإيهامًا بأن الزوج ما طلقها إلا وقد رابه شيء منها.

فإذا هو متعها متاعًا حسنًا. . تزول هذه الغضاضة. .

ويكون هذا المتاع الحسن بمنزلة الشهادة بنزاهتها.

والاعتراف بأن الطلاق كان من قبله. . لعذر يختص به هو. . وليس من قبلها.

لأن الله قد أمرنا أن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة، فجعل هذا

التمتع كالمرهم لجرح القلب).

●●●

أما كون الطلاق بيد الرجل.. فهو إجراء لمصلحة الطرفين على سواء:

١ - فالرجل يحكم العقل.. الذي يفر به من التهور.. فلا يقع فريسة في قبضة الهوى.

٢ - ثم إنه المسئول عن السكن والنفقة لكي يجدد الفراش لو تم الطلاق.

وقد لا يكون ذلك متاحًا له.. فلعله أن يرتدع.. وقلم أظفار الشهوة التي تقض مضجعه.

ثم إن السنة تأمره بألا يطلق إلا في طهر لم يجامعها فيه.. مما يحمله على إرجاء الطلاق.. وربما خفت حدة التوتر في قلبه.. فراجع حساب ربحه وخسارته..

●●●

وفي زمن «العدة» المتطاول يمكن للزوجة أن تستأنف جهادها في محاولة لرأب الصدع.. على الأقل من أجل صغار زغب الحواصل:

إن ضمتهم إليه.. ضاعوا..

وإن ضمتهم إليها .. جاعوا...

إن المعركة اليوم سلمية.. لا تحتاج إلى عقول مشتعلة.. بقدر حاجتها إلى قلوب دافئة:

وعندما احتدم النقاش بين الزوجين.. كان هناك غبار مانع من رؤية الأشياء كما هي..

أما اليوم.. وفي فترة «العدة» يمكن للزوجة أن تفعل شيئًا:

لقـد مضى الغـضب. . الذي انطفأ به نور العـقل. . فكان الطلاق. . ونظلم أنفسنا حين نسمح لجمرة الحقد أن تتخلق فينا. . لنطفئ نور القلب!

إن علم النفس يقول:

كل زوج. . مهـما كـان موقعـه في السلم الاجتـماعي. . يسـتشـعر الزهو. . إذا سمع «مطلقته» بالذات. . تفخر به وتشيد بمآثره. .

فلتحاول الزوجة استـغلال هذا الدافع الفطري. . وإذا كان الفعل الذي أساء واحدًا. . فهناك من أخلاقه. . ألف شفيع!

●●●

إن «المعتـدة» تركب الزورق الذي يـوشك أن يرحل . . وعليـهـا أن تتصرف. . قبل أن تذهب الفرصة ولا تعود. .

●●●

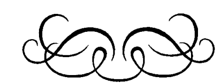
إن الإنسان لا يصعد الشجرة. . لمجرد أنه ينظر إليها. . ولكن. . لا بد أن يدفع الثمن. . ليكون فوق الشجرة أو فوق المدفع!

إن الأصـدقاء كـانوا يتجـولون في الأسواق لمجـرد أن يسأل الصـديق صديقـه: كيف حالك؟ ليكون جوابه: الحـمد لله. . فيكون سبـبًا في زيادة رصيده من الطيبات. .

ثم كان الصـديق ـ وهو يمر بأزمة مـالية ـ لا يلح في الطـلب حتى لا يورط صديقه لم يلب حاجته. . وكم يكون حق الزوج هنا؟

إنه لأجدر بالزوجة أن تتحرك. . قبل أن يتحرك الزورق. .

ليعود الشمل كما كـان جميعًا. . وليكون في نفس الوقت أجمل هدية إلى صغار يعيشون اليوم أجمل انتصار.



قد تذبل شجرة الود لكنها لا تموت

يقول الله (عز وجل)
﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا.. ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

هذا هو فارس الأحلام قادم.. يمتطي صهوة جواد أبيض.. كما تصورته البنت.. زمان!

ومع فارس الأحلام.. طاب الكلام.. وطاب المقام.

●●●

ثم تبدأ المعاشرة بالمعروف.. والمعاشرة تعني الإحتكاك..

ومعنى الإحتكاك: أن تنطلق - كما يقول الأدباء - شرارة.. شرارة تضيء.. وتحرق..

ثم تبدأ المشكلات.. مع غروب الشخصية الوردية لفارس الأحلام.. وفي أغلب الأحيان تكون المشكلات سهلة.. ميسورة الحل.. ولكن بعض الناس لا يملكون من الشفافية ما يستعلون به على الواقع الطارئ... ثم.. تجيء ساعة الصفر.. ويتفق الطرفان على.. على الطلاق!

●●●

ولكن الإسلام المسماح.. يبقى على الباب مفتوحًا.. ليظل طريق العودة لاحبًا..

فقد يكون هناك تحت الرماد.. وميض نار!.. لعل هناك في القلب من الود القديم بقايا.. تؤكد أن ذلك الود.. وإن تجمد يومًا.. فإنه.. لا يموت أبدًا.

إن الإسلام متـحيز للعلاقة القديمة أن تعـود.. بل وأقوى مما كانت.. والإصلاح.. إصلاح العلاقة الأولى.. أولى من السراح!

الإبقاء على الزوج الأول.. أفـضل من الاستفتـاح مع زوج جديد.. ذلك بأن تذكر الماضي مع الزوج الجديد.. يفسد الحاضر..

طبق القاعدة القائلة: (تذكر الماضي.. يخل الحاضر)

ونستمتع الآن بما قاله صاحب المنار هنا..

(هذا لطف كبير من الله (سبـحانه وتعالى). وحرص من الشارع على بقاء العصمة الأولى.

فإن المرأة إذا طلقت لأمر من الأمور.. فقلما يرغب فيها الرجال. وأما زوجـها المطلق.. فـقـد يندم على طلاقهـا. ويرى أن مـا طلقهـا لأجله لا يقتضي مفارقتها دائمًا. فيرغب في مراجعتها.

ولاسيما إذا كانت العشرة السابقـة بينهما جرت على طريقتها الفطرية: فأفـضى كل منهما إلى الآخـر بسره. حـتى عرف عجـره وبجره. وتمكنت الألفة بينهما.

وإذا كانا قد رزقا الولد.. فإن الندم على الطلاق يسرع إليها.

لأن الحرص الطبـيعي على العناية بتربيـة الولد وكفالته بالاشـتراك.. تغلب.. بعد زوال أثر المغاضبة العـارضة على النفس. وقد يكون أقوى إذا كان الأولاد إناثا.

لهذا.. حكم الله (تعـالى) لطفًا منه بعـباده.. بأن الزوج أحق بردها في زمن العدة.

وفي هذا بيان حكمة أخرى للعـدة ـ غير تبين الحمل أو براءة الرحم ـ وهي: إمكان المراجعة.

نعلم بذلك أن تربص المطلقات بأنفسهن: فيه فائدة لهن. وفائدة لأزواجهن)

●●●

وقد كان توجه المستبصرين من الفقهاء ماضيًا على هذا السنن تأكيدًا للأمل الوطيد في العود الحميد.

وإذا كان الإمام مالك يقول عن زوج المعتدة:

(لا يدخل عليها إلا بإذن. ولا ينظر إليها إلا وعليها ثيابها. ولا ينظر إلى شعرها. ولا يبيت معها في بيت).. إذا قال الإمام مالك ذلك.. فإنما هو في الأساس صيانة للمرأة حتى لا تمتهن..

ثم هو لا يقطع خيط الوصال تمامًا.. حين يسمح له بمؤاكلتها إذا كان معها غيرها.

●●●

أما الإمام أبو حنيفة فقد وسع الدائرة حين أباح للمطلق أن ينظر إلى معتدته:

(فيجوز له أن يرى شيئًا من محاسنها. وأن تتزين له.. أو تتشوف).. وربما كانت هناك نظرة.. تهدي إلى الوجه نضرة!

●●●

ولكن.. لماذا كان الزوج أحق بالرجعة:

أولاً: لأنه «البعل» والبعل هو السيد المالك..

المالك أعصابه: المتحكم في جهازه العصبي.. أما «هن» فيتمنعن.. وهن الراغبات.. وقد تأخذ العزة بالإثم هذه المعتدة فتظلم نفسها.. وغيرها.. حين تنطلق ضد مصلحتها.. إرضاء لهواها عينها بينما في بعلها!

وهن . . بنص الحديث الشريف: «**يكفرن العشير**» . . تحسن إليهن أعواما . . ثم يذهب الجحود بهذا الإحسان في لحظة من زمان!

●●●

وثانيًا: هو صاحب الأرض . . وحامي العرض:

والطلاق ابتداء . . حقه . . لا حقها: يقول المفسرون:

(لأن من عرف أن حقله غير مناسب للزراعة . . لا ينبغي أن يرغم على الازدراع في حقل لا يناسب الزراعة.

ويوضح هذا المعنى:

أن آلة الازدراع بيد الرجل:

ولو أكره على المباشرة . . ما استطاع . فلا نسل . ويخرب العالم.

أما لو أكرهت . . لجاز ذلك).

●●●

ومن حقوقه هنا:

(الاستغناء في المراجعة عن الولي . وعن رضاها . وعن تسمية المهر . وعن الإشهاد على الرجعة . . على الصحيح) إنه الأحق بالرجعة . . بمعنى:

أنه إذا أراد الرجعة . . ورفضتها هي . . أخذ برأيه . . لا برأيها . .

والنتيجة في النهاية لصالح الطرفين معًا!

●●●

لكن ذلك الحق غير مطلق . . وهو مقيد بإرادة الإصلاح:

فقد يبيت الزوج نية العدوان:

بالانتقام منها . .

أو منعها من الزواج بآخر . . جاعلاً منها المعلقة المعذبة بهذا الوضع

المهين. . إرضاء لكبريائه المزيف. .

ألا فيـعلم أن الله (تعالى) مـعهـا. . عليك. . وويل للذين يعـرضون أنفسهم لسهام الأقدار. . التي لا تخطئ الهدف أبدًا:

إن لم يكن اليوم. . فغدًا.

والحكمة تقول:

لا ترم سهمًا... لا تملك إزجاعه!



المطلقة في منطقة شبه الظل

يقول (عز وجل):

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

لا تنتهي العلاقة الزوجية بالضربة القاضية !.. وإلا كان المطلّق كما يقول الفلاحون الطيبون: «عدو.. ينتظر نائبة» بمعنى أنه يتربص بغريمه المصائب.. فإذا سنحت الفرصة انتهزها كأنها بعض أمانيه!

●●●

ولكن الإسلام.. ومن خلال هذه الآيات الكريمة.. يشير إلى إن للعلاقة جذورًا ضاربة في الأرض.. لا تقتلع هكذا وفي لحظة طارئة.. ومن أجل ذلك.. لا تكلف المطلّقة بالخروج فور كلمة طلاق غير مأسوف عليها. من الظل الظليل.. إلى وهج الظهيرة.. وإنما تبقى.. في بيتها.. مكفولة الرزق.. موقورة الكرامة.. إعلامًا بأن الأمر ليس شركة تجارية تنفض في لحظة واحدة:

وإنما هي عزة الإنسان.. التي هي فوق انفعالاتنا.. ونزواتنا.. وعلى كل الأطراف المعنية أن تتوقف.. ثم تراجع نفسها فلعل الله (تعالى) أن يجعل.. بعد عسر يسرا..

وإذا توترت الأعصاب يومًا بوسوسة الشيطان المريد.. فلنفسح من بيوتنا وقلوبنا.. لرفاق الأمس.. فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

●●●

وتوكيد لهذا المـعنى: أُمر المطلِّقون بالإبقاء على المطلقة في بيـتها حتى تنتهي عدتها. .

ولكي تظل في البيت مـصونة. . يجب عليه أن ينفق عليهـا. . صيانة لها من التبذل في طلب لقمة الـعيش. . وفرارًا بها من القيل والقال. . ولو أنها مشـت في الأسواق. . وما يثيـره من شبهات. . وتقـولات. . قد تسد طريق العودة إلى زوجها. . تارة أخرى.

●●●

ومضيًّـا مع حكمة الإسلام في أنه: لا ضرر ولا ضـرار. . فإن المطلق مأمور بهذا الإنفاق. . على قدر طاقته:

فلينفق ﴿ . .مِّن سَعَتِهِ ﴾:

على قدر إمكاناته المتاحة. .

لا تسرق. . لتوفر لها لقمـة العيش. . ولا ترهق نفسك بالعبور إلى ما وراء حدود مملـكتك المتواضـعة. . خارج «سـعتك» فليس مـن الإنصاف أن نريح طرفًا على حساب غيره. .

وإذ يحرص الإسلام على التـرفق بالمطلِّق فليس ذلك انحيازًا له. وإنما كل ذلك مقصود به إتاحة فرصة العـودة بمثل هذا التيسير الذي يتيح للنفوس فرصة المراجعة. . في جو نظيف.

●●●

ثم إن مـا تؤمـر بإنفـاقه ليس مـالك. . وإنما أنت حـارس. . خـازن أمين. . وصاحـب المال (سبحـانه) هو الذي يأمـرك بالإنفاق من مـاله (عز وجل). .

ثم هو (عز وجل) لا يـأمرك بإلقائه في البـحر. . أو تذريتـه في الجو

وإنما يتلطف بك لتنفقه على الصاحب بالجنب.. وفاء للعشرة..

●●●

ومما يحملك على الإنفاق والتسامح فيه.. ما تعلمه من وقائع التاريخ الشاهدة بذلك:

(فقد فتح الله عليكم جميع جزيرة العرب.. ثم فارس والروم: أطحتم بهذه.. وأزلتم تلك.. ثم فزتم بكنوزها حتى صرتم أغنى الناس..)

وإذن.. فأنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا.. فغدًا تكون السعة.. بعد الضيق.. والغنى بعد الفقر..

ومن صور السعة والغنى.. أن تعود إليك مطلقتك أسلس ما تكون قيادًا.. بعدما أوسعتك بالأمس عنادا.

●●●

وإذا كان الإنفاق على من لا تباشرها.. عطاء بلا ثمن.. فإنها فرصة للتدريب على «السعة» النفسية.. قبل السعة المالية.. فليتسع صدرك ليتقبل عودتها.. فلعل العود أن يكون حميدًا سعيدًا.

●●●

أما من قُدِر عليه رزقه.. فضاق عن تغطية كل احتياجاتها.. فلا تثريب عليه.. فقد تصرف في حدود استطاعته.. وما فوق ذلك يكون تكليفًا بما لا يُقدر عليه.

●●●

ولاحظ من بلاغة الآية الكريمة:

أن الله (تعالى) ـ في حال تضييق الرزق ـ يبني الفعل للمجهول هكذا

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وفي حال العطاء.. يقول (عز وجل): ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

إنه التلطف بالعبـد وبخاطبه في ساعات الضـيق: ففي حال العطاء.. يظهر الفاعـل.. أما إذا كان الأمر مؤلمًا للعـبد فإنه (تعالى) لا يواجـه عبده الضعيف.. بما يحزنه..

وإذا كان ذلك كذلك.. فليعـامل المطلق الزوجة باللطف والإحسان.. ليكون عونًا لها على ريب الزمان.

●●●

ومن تلطفه بـها أن يعيـد مراجعـة الموقف كله.. ليخـرج بالتأمل من الخيال الذي يعيشه.. إلى الواقع الذي يرفض أن يعيشه!

وليحاول إقناع نفسه بأنه مسئول معها عن كل ما انتهى إليه نزاعهما.. وأنّ عليـه أن يكون زوجًـا ناجـحًـا.. قـبل أن يطلب من غـيـره أن يكون كذلك.. وإذا كان يطلب الزوجة المثالية.. فهل هو مثاليّ؟

ونذكر هنا واحدة من تجارب غيرنا:

فقـد تفرغ وزير العـمل في دولة غربية لتـربية طفليـه بعد نجاح عـشرِ سنوات في عـمله.. وثقة رئيـسه به.. وفـضَّل في النهاية أن يكـون زوجًا ناجحًا.. على أن يكون سياسيًا لامعًا!

●●●

ثم على الزوج إدراكُ طبيـعة المرأة وجوهرها مما يعين على الوفـاق بعد الفراق. بمزيد من مشاعر الإشفاق

هذه الطبيعة التي قـال فيها النبي(ﷺ): «**إن النسـاء خلـقن من ضلع**

أعوج وإن أعوج شيء في الضلـع: أعلاه: فإن ذهبت تقيمـه.. كسرته.. وإن تركته.. لم يزل أعوج.. فاستمتعوا بهن على عوجهن».

●●●

وكما ظفـرت بها أولاً.. فاظفر بها اليـوم.. وهي بين يديك.. وقبل أن يظفر بها غيرك.. بعدما تذهب الفرصة.. ثم لا تعود.

●●●

أما بعـد: فقد زعم بعض المسـتشرقـين أن الطلاق.. طرد للزوجة.. خارج البـيت، ولكنه في الحقيـقة إنهاء لعـقد الزوجيـة. ثم لا يتم إلا بعد محاولات ومداولات تستنفـد كل وسائل الإصلاح. فإن لم يكن صلاح.. فلا جناح.



الزوجة ... ومبادرة الصلح

يقول الله (عز وجل):

﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ .. ﴾ [الطلاق: ٧].

بعد أن أرسلت الزوجة إلى زوجها «قصيدة» أفرغت فيها كل أمانيها.

عاد الطير المهاجر.. عاد الزوج إلى بيته مستجيبًا لنداء الزوجة التي وصلت رسالتها العاتبة الغاضبة إلى سويداء قلبه: هذا القلب الذي تفجر نهرًا بعد أن كان حجرًا!

وقد حدث بعد نشر قصيدتها أو رسالتها أن هبت عاصفة من قِبَل بعض النساء اللاتي انحزن لها.

والحمد لله أن هبوب العاصفة كان.. بعد أن عاد الزوج فعلاً إلى البيت.. فلربما كان حدث ما لم تحمد عقباه.. لو هبت العاصفة قبل أن يتخذ الزوج قرار العود الحميد.. عنادًا وتحديًا..

●●●

ومن تدبير الله (تعالى) أن وقفت الزوجة العاتبة نفسها تشكر الزميلات المجاملات الغاضبات.. راجية إغلاق ملف القضية. فقد عادت المياة إلى مجاريها.. وهذا ما قالته شعرًا أيضًا:

فتيات مصر تحية	أنتن ربَّات العزائم
إني أَدِينُ بعطفكن	وشكركن عليَّ لازم

ثم عززت ذلك بقولها:

يا سيداتي الفضليات: لكُنَّ حق الشكر .. دائم
قد عــاد لي زوجي الكريمُ.. وجــاء يقرع سنَّ نادم
من بعدما قدَّرت أن رجوعه أضغاث حـــالم
والحُرُّ يرجــع.. حين يعلم أنه في الحـــق آثم.

●●●

وقلت لصديـقي تعليقاً علـى إعلانها رجـوع زوجها. .إنـها هي التي رجعت إليه باستـعطافها له. . فكانت صاحبة مـبادرة الصلح ولا يضيرها أن كانت البادئة بالكلام. . فـخيرهما الذي يبدأ بالسلام. . فـإذا كان المبدوء هو الزوج. . فأنعم بها مبادرة للسلام.

لقد وضَّحت الزوجة هنا أبعاد معنى المودة في قوله (تعالى): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وعلاقة المودة بين الزوجين تتميز عن غيرها من العلاقات: فهي باقية ما بقى الرجل رجلاً. . وبقيت الأنثى أنثى. . كما يقول العارفون المجرِّبون.

فطالما بقى إحســاس الزوجة بأنوثتـها وضعـفها قـائماً. . فإن جـسور التفـاهم تظل قائمـة على أصولها. . ليـعود الصفـاء من فوقـها إلى قلوب المختلفين.

أمَّا لو ترجَّلت الأنثى. . متـمردة على طبيعتهـا. . فإن هذا الود سوف يخرج. . ثم لا يعود. . وكيف يعود في الوقت الذي يركب كل طرف رأسه زاعماً أن الكل سواء. . ومما يخدش الكرامة أن نبدأ أحبَّاءنا بالكلام!

●●●

إن هذا الود قد «جعلهُ» الله (تعالى). . وما جعله (سبحانه) لا يغيب

وقد تسألني: لكنه قد يذهب بالطلاق؟

وأقول لك:

إنه لم يذهب بالطلاق. لأن الطلاق هو الضربة الأخيرة التي سقط بها القصر المُنيف.. ولكن الضربات قبلها مسئولة عن انهيار البنيان الشاهق من علٍ.

ومن هذه الضربات السابقة تجاوزات الزوجين على مدار الأيام: والتي تراكمت حتى صارت من «قشٍّ وطين» ثم صارت عبرة للمعتبرين!

إن «الود» رزق من الله. وعطاء غير مجذوذ.

وإذا كان رزقنا المادي حاضرًا مصونًا.. وفي السماء.. حتى «ندب» لنصل بالدبيب إليه.. فكذلك «الود».. وهو رزقنا المعنوي.. حاضر.. مصون.. لكننا نتصرف مصرِّين أن نمضي بتجاوزاتنا عكس الاتجاه؟!

فكيف نحصل على مودتنا.. على رزقنا.. ونحن بالعناد نسحب رصيدنا منه وبلا إيداعات جديدة تنمِّيه وتزكيه؟[1].

●●●

لقد أحسَّت الزوجة الشاعرة أن رفيقها الغاضب.. قد أخذته العزة بالإثم.. والحكمة تقول: إذا عز أخوك.. فهن..

واستعطاف الزوجة ليس هوانًا..

فقد يكون وليد دراسة ميدانية.. ظهر بها أن الزوج يُفَضل الأوهام تناوشه.. على الواقع المُعاش فعلاً. فقررت ألا يفلت الصيد من بين

(١) قد لا تكون «فصيلة الدم» متوافقة مع سلامتها في ذاتها.. فالدم صالح.. فالود موجود.. لكن «الفصيلة» في الإثنين سالبة.. أو موجبة.. ومن الإبقاء على الود أن يتفرقا ليغني الله كلا من سعته بمن يشاكله؟!

يديهـا . . فصـبت كل أشجـانها على الورق شـعرًا . . ردَّه سـالمًا من سكرة الأوهام . .

وقد يسعفها الواقع الماثل بما يفرض عليها أن تبدأه بالكلام:

فلقد يكون «عجوزًا» إلا أنه مغرم بالفتاة الصـغيرة زاعمًا أنه بها ومعها يستـرجع شبابـه الغارب . . وهكذا . . كلما «هَرِمت الأسـنان» تَطلَّب الأمر صغار الحُملان!!

●●●

ولقد أدركت عِوَج الحاضر وخطورة المستقبل حيث النار تندلع . . والماء ينقطع. ثم راجعت نفسها التي وجدتها :

دجاج: ـ مع الفارق طبعًا ـ

وللدجاجة جناحان . . ولكنها لا تسـتطيع الطيران إلا في مجال الأسرة الجوي! . وتحت سقف البيت . . وفي ظل رجل تطارحه الهوى. هو زوجها الحلال.

وإذن . . فالشجـاعة الأدبية تفرض عليـها أن تفعل ما تظنـه الزميلات خطأ . . وكانت بمبـادرة الصلح مُبَـرأة من الملام . . مُرَشَّحـة بوفائهـا لتصنع الوئام بديلاً للخصام.

لقد كانت كما قال الأدباء:

(لا أحد يحاسب صحراء العطش. إذا توحَّمت على قطرةٍ من الماء . .

ولا أحد يحاسب جائعًا . . يحلم بسوق الخبز).

لا أحد يحاسب زوجة سويَّة ذكية تفرد شراعها في الاتجاه الصحيح . . غير مصغية إلى غضب الغاضبين العاذلين . .

فمن كانت يده في النار . . ليس كمن كانت يده في الماء!

والأطفال: لمبتهجون اليوم: هم أطفالها هي..

والزوج العائد العائد هو زوجها هي..

والنار لا تحرق إلا من أمسك بها..

وقد أحرقتها هي وحدها.. نارُ العزلة والاغتراب.. فقررت بالعفو أن تضع حداً لهذا العذاب.



فليحذر الذين
يخالفون عن أمر الله

يقول الله (عز وجل):

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

تصوروا دارًا غائبـة هناك في شعاب الوادي.. رزقها يأتيهـا .. يأتيها رغدًا من كل مكان وفجأة قرر سيد البيت أن «يغير الفراش» في الوقت الذي كانت فيه ربة هذا البيت على غاية ما تكون من الوفاء والولاء..

ومع أنها دار بين ملايين الدور.. ومع أنه زوج من ملايين الأزواج.. إلا أن هذه الدار وإن لم يرها أحـد.. وأن أنين الزوجة.. وإن لم يسـمعـه أحد.. فـإن عرش الرحمن ليهـتز رحمـة بهذه الزوجة التي قرر زوجـها أن ينقض غزل البيت من بعد قوة أنكاثًا.. وتنزل الآي تتـرى مهدِّدة متوعدة.. فيما يشبه بلغة العصر إعلان حالة الطوارئ القصوى.

من أجل بيت واحـد من بيوت المسلمين.. تظلم فـيه زوجـة مكسورة الجناح: جبـرًا لخاطرها.. وكسرًا لـغرور زوج يحاول من موقع رجـولته أن ينقضَّ على الفريسة وبلا مقاومة!

وكأنما تدمغة الآية الكريمة بهذه الحقيقة:

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس.. فتذكر قدرة الله عليك.

لا.. بل قدرة الله على القـرى العاتية كلها. و التي أعـرضت عن أمر ربهـا ورسله.. فـدمرها الله (عـز وجل).. فكانت أثرًا.. بـعد أن كـانت عينًا..

يقول صاحب الظلال:

(ونقف لحظة أمام التحذير:

فنرىٰ أن الله أخذ القرىٰ: واحدة بعد واحدة. كلما عتتْ عن أمر ربها ورسله.

ونجد أن هـذا التحـذير يساق هنا بمناسـبة الطلاق وأحكامـه. فيـرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية. ويوحي هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمرَ أسرٍ أو أزواج. وإنما هو أمر الأمة المسلمة كلِّها:

فهي المسئولة عن هذا الأمر. وهي المسئولة عن شريعة الله:

ومخالفـتها عن أمر الله فيه.. أو مـخالفتها عن أمـر الله في غيره من أحكام هذا النظام.. أو هـذا المنهج المتكامل للحـيـاة ـ هي: عتـو عن أمـر الله.. لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه.

إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيـها المخالفة. والتي تنجرف في تنظيم حياتها عن منهج الله وأمره.

فقد جـاء هذا الدِّين ليطاع. وليُنفذ كله. وليهيمن علىٰ الحـياة كلها.. فمن عتا عن أمـر الله فيه ـ ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصـية ـ فقد تعرَّض لما تعرضت له القرىٰ من سنة الله التي لا تتخلف أبدًا.

تلك القرىٰ التي ذاقت وبال أمرها. وكان عاقبة أمرها خسرا) أ.هـ .

ولكن هذا التهديد الرعيب يأتي في أوانه: بعد سلسلة من الترغيب.

تودَّد بها الرحمن (سبحانه وتعالىٰ) إلىٰ عباده الخاطئين..

علىٰ أنَّ الوعـيـد نوع من التـحذير ببـيـان مـا مضىٰ من العـقـوبات والمَثُلات.. والجـمع بين الوعد والوعيد أسلوب يأخـذ بالقلوب.. أملاً في تحـقق الوعد وحـذر تنفـيذ الوعـيد.. ليـجيء تصـرف المدعويين جـادًا..

ومجديًا . .

●●●

لقد فصَّل الله (عـز وجل) أحكام الأسرة تفصيلاً . . ثم هو (سـبحانه) يحذر المؤمنين حتى لا يقعوا في مَهواةِ الضلال:

فكم من قـرى كثـيرة . . وقـوية . . عتت . . وتمردت على أمـر الله . . على وجه التكبر . .

كم من قرية ظالمة ومن ظلمـها أنها لم تكتف بالغـرور . . إعراضًا عن أمر الله . . ولكنها اتخذت خطوة عملية . . فكانت معارضة . . بعد أن كانت مُعْرضة!

وذلك مفهوم من التضمين هنا:

فقد عتت عن أمر ربها: بمعنى أعرضت . .

ثم إنه الإعراض المنتهي بالمعارضة وهو معنى العتوّ . .

●●●

وهذا الغرور النظري «العمليّ» هل له ما يسوغه:

إنها لم تكن عاتية عن أمرٍ قاهرٍ لها أو ظالم . . بل تمردت على أمر من رباها (سبحانه وتعالى) . . والذي تتقلب في نعمه (عز وجل):

وبينما خيـره (تعالى) نازل . . إذا سخطهم إليه سبـحانه طالع! ثم كان من تمام تمردهم أن كـذبوا رسله (تعالى) والذين كـانوا واسطة هذه النعم . . فكان أن دمّر الله عليهم . . ولم تغن عنهم قوّتهم ولا كثرتهم شيئًا.

●●●

وفي ضوء هذا النذير المدمدم . . لا تبرح خيالنا صورة هذا الظالم الذي يتخـذ من الطلاق هوايةً يشبح بها نـزعة التشفـي! . . فليكن على حذر أن

يصيبه مثل ما أصابها!

وإذا كانوا يقـولون ساخـرين: لسعادة الزوجين فـالمطلوب هو زوج لا يســمع.. وزوجـة لا ترى.. فإننا في ضـوء الآية الكريمة فـي حاجـة إلى زوجة.. وإلى زوج.. يسـمع هذه النذر.. ويتصور هذه الفـواجع.. حتى يتعظ.. قبل أن يكون هو للناس من حوله عبرة وموعظة!

ومما يعينه على الاتعاظ.. ومراجعة الحساب.. ما في الآية من عناصر الردع.. لمن أراد أن يتذكر:

إن القرى الظالمة دمرها الله (تعالى):

وتخيل ناطحات السحاب، والحصون.. وكلّ ما أبدع البشر من فنون الحمـياة والوقاية.. كـيف تصير.. وبالضـربة القاضيـة رمادًا.. وعلى هذا الزوج المفتون بحـاله ورجاله أن يتصور نفســه واحدًا من أهل هذه القرية.. وكيف يطيـر هباء لا أترى بالعين المجـردة.. في أتون هذا الخطر الداهم.. والذي يدمر ما في لقرية ومن فيها..

●●●

إنه الحســاب العسير: لا بالكلام.. وإنما بالزلازل.. والبـراكين وآفات الزرع.. وتحطيم ما صنعت يد الإنسان من عـابرات القارات! وسوف يكون حسابُ الزوج الظالم عسيرًا شديدًا: ومن مظاهر شدته:

أولاً: باستقصاء كلِّ ما عملوا.. حتى النّقير والقطمير..

وثانيًا: بالمجازاة على كل فعل بما يليق به.. ثم يكون العذاب نُكرًا:

ينكرونه مندهشـين: فلم يروا من قـبل مثله.. ولا قـريبًـا منه.. وإذا القرية تذوق وبال أمرها.. الذي صار مرعى وخيمًا ذميمًا:

مرعى: يُمرض.. ولا يشبع

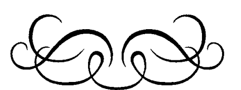
ثم كانت العاقبة على غير ما يشتهي الطغاة:

لقد ظنوا في الدنيا أنهم كسبوا بإعراضهم.. ثم فوجئوا يوم الحساب:

بأنهم ما جنوا إلا الخسر.. نفس الخسر الذي لا ربح فيه أبدًا:

وأينما يولون وجـوههم فثم الخسران المبين بين أيديهم.. جـزاءً وفاقًا: ومن زرع الشوك لا يجني الورد..

ومن طلّق بلا سـبـب.. فليـأخـذ مكانه في هذا الطـابور الطويل.. الوبيل.



الذين يقتلون القتيل
ثم يمشون في جنازته

يقول الله (عز وجل):

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

قد يحسب الزوج المغرور أنه «على شيء»

ومن هذا الشيء الذي يشد من أزره:

أنه «رجل» وفي استطاعته أن يتزوج الآن مثنى وثلاث ورباع!

وقد يقف «القزم» الضئيل على كومة من المال. فيبدو أطول من هذه التي تبكي على حالها ومآلها؟

ولكن فرحته المغشوشة لا تتم إذا أنصت إلى النُّذُر تهز كيانه.. من خلال الاية الكريمة:

إن لك عذابًا: مُعدًا.. جاهزًا.. وهو في انتظارك هناك..

(و ما هو كائن..فكان قد)! وعليك أن تترقب ... هذا العذاب من الآن..

وحين يقول (عز وجل) في الآية السابقة:

حاسبناها.. وعذبناها.. بصيغة الماضي.. فإن ذلك يعني:

أنها حُوسبت فعلاً.. وأن عذابها قد نزل وفُرغ منه..

وأنت كذلك محاسب.. معذب من الآن.. وعَهْدنا بالظالم أن يكون متمزقًا.. خائفًا خوفًا يُفقده الإحساس بطعم الحياة..

بينما إحساس المظلوم يصبح مريحًا.. اتكالاً على الله المنتقم الجبار.

ويجيء الأمـر بالتـقـوىٰ. . يتجـه اتجـاهًا أوليًـا إلىٰ هذا الزوج الذي افترىٰ. . والذي يعود من سوق الحياة كأنما لا باع ولا اشترىٰ!

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

إن لكم من موانع الانحراف والإجحاف ما يلي:

أولاً: فأنتم أصحاب الألباب. . أصحاب العقول. .

ومن شأن الألبـاب أن تمنع من السقوط في مـهاوي الظلم. . ثم إنكم مؤمنون:

وبعهد الإيمان أنتم مـأمورون بالعدل في معـاملاتكم مع: رفاق الأمس وأحبائه. .

إلىٰ جانب أنكم تعملون الصالحات. . فاعملوا صالحًا. .

وفي مقدمة ما تعملون: «إنصـاف من كنتم تحبون» وإلا فإن عملاً ظالمًا واحدًا. . قد يكون نقطة الخل التي تفسد كل ما تعملون وما تدّعون!

●●●

ومما يحـملكم علىٰ الإنصاف أن الله (تـعالىٰ) قـد أنزل إليكم: إليكم بالذات أنزل رسولاً. . ذِكْرا. . نفْس القرآن الذي كان خلقه. . فتمت النعمة بسنته. . وسيرته (ﷺ). . ثم بتلاوة كتابه. .

وإذا كان الإنســان يتلقىٰ خطاب القـائد بالاعتزاز. . فكـيف إذا كانت الرسالة من الملك. . فكيف إذا كانت من ملك الملوك (سبحانه وتعالىٰ). .

ولاحظوا: أنه ذِكْر: شرف لكم. .

شرف: ترتفعون إلىٰ مستواه. . لا لمجرد التباهي به. .

يقول صاحب التحرير:

(وفي نداء المؤمنين بوصف «أولي الألباب»:

إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعوا إلى تقوى الله: لأنها كمالٌ نفساني.

ولأن فوائدها حقيقية ودائمة.

ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة.

قال (تعالى) ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

●●●

ومن ثمرات الذكر أنه:

(.. يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور:

من ظلمة الكفر.. إلى نور الإيمان

ومن ظلمة الشبهات.. إلى أنوار الحجة.

ومن ظلمة الجهل.. إلى نور المعرفة.

ومن ظلمة الباطل.. إلى نور الحق.

هذا في الدنيا.. وأما في الآخرة:

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وهو رزق واسع واسع.. عظيم عظيم.. عجيب عجيب..

قال القشيري:

«الرزق الحسن: ما كان على حد الكفاية..

لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه.

ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رُزق.. لحرصه.

وكذلك أرزاق القلوب:

أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها . . من غير نقصان .

ولا يتعذب بتعطشه .

ولا يكون زيادة . . فـيكون على خطر من مغـاليط لا يخرج منـها إلا بتأييد من الله سماوي» .

●●●

ومضيًا مع أخذ المؤمن إلى الحق بمشاعر الرهبة يقول (عز وجل) :
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

ومن حكمة ما أشارت إليه الآية الكريمة :
﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢]

يقول البقاعي:

(لتعلموا بهذا العلم الذي أوجده :

بتسوية كل واحد من القبيلين سبعًا :

كل واحدة : بينها وبين الأخرى مسافة بعيدة . . مع الكثافة الزائدة .

وأنتم تعلمون أنه لا يفصل الجسم ـ ولا سيـما الكثيف ـ عن آخر مثله إلا فاصل قاهر : بقـوةٍ قاهرة . وقدرة ظاهرة . . وعلم شامل لِما يحـتاج إليه ذلك .

فكيف إذا كـان هذا المنهـاج البديع . والوجـه المنيع . على مـر الدهور والأحقاب . وتعاقب الشهور والأعوام . . على حسابٍ معلوم . ونظام منظوم لا يدركه إلا أعلم الناس حسابا . وأعظمهم صوابا) .

و(سبـحان) ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢]

ليعلم كل الناس.. وبالذات من يحاولون هدم الأسرة القائمة..

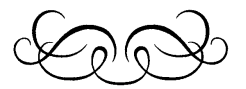
أما بعد

فقد كان الفلاح يقول:

فلان «رمَى» على زوجته اليمين..

يريد: لقـد أمسك بيده حـجرًا.. فـرماها به.. دَمَغَـها: أصـابها في دماغهـا.. وقلتُ: ولا بأس أن يبكي وهو يفعل فعلته... ويا للرجـال بغير دين:

قد يقتلون القتيل.. ثم يمشون في جنازته!!



الزوجة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه

١ ـ للزوج في عنق زوجته من الحقوق ما ليس للوالد ولا للأخ.

وما كان لبــشر أن يسجد لبشــر إلا لله (تعالى).. ولكن.. لو فرض وسجد لبشر لسـجدت الزوجة لزوجها من عظم حقه عليـها.. ومن حقوقه لديها:

٢ ـ المحافظة على بيت زوجها الذي هو من كده وعرقه.

٣ ـ طاعة زوجها ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤]

٤ ـ لا ترهقه بما لا تتحمله ميزانية البيت.

مع العلم بأن إرهاقه.. وبال عليها.. وعليه معاً فقد يسول له الكسب الحرام.. وهذا ما أدركته الزوجة الصالحة والتي قالت لزوجها يوماً:

إياك وكسب الحرام.. فإنا نصبر على الجوع.. ولا نصبر على النار.

٥ ـ ألا تغادر البـيت إلا بإذنه.. لتكون دائماً في شـرف استقـباله.. وفـراراً من الظنون في زمـان يبعث على هذه الـظنون: يقول (عـز وجل): ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٦ـ التفاني في خدمة البيت.

٧ ـ معرفة ميوله وما يُحب.. ولا بأس أن تركب معه الموجة فتحب ما يحبه وبهذا تمتص من قلبه بعض أسباب النزاع.

فإذا تأزمت الأمور.. وكان لا بد من الطلاق فللإســلام منهجه الرشيد والذي وضحته سورة الطلاق.

●●●

أما بعـد

فقـد يحاول المغـرضون.. افـتعال مـشكلات ليس لهـا وجود إلا في أدمغتهم..

ونسوا أن الله (تعالى) حافظ كتابه.. ودينه. ولو كره المغرضون..

ومما قالوه:

الإسلام يجعل من كلمة واحدة.. فصلاً للمرأة.. وردا عليهم:

يقول الشعراوي:

(كيف دخلتم على كلمة الفراق.. ونسيتم كلمة التلاق؟:

إن التلاقي أيضًا يكون بكلمة وهي: زوجني.. وزوجتك.

فلماذا تستبعدون أن يكون الطلاق بكلمة طلقتك؟!

إنه يدخل الحلال بكلمة..

وإلى الحرمة بكلمة!

ولذلك.. كـان لا بد من الدقة في اخـتيار الزوج.. فـرارًا ممن يسيء استغلال هذا السلاح الماضي في العدوان.. وعليها أيضًا أن تكون على غاية الحذر!!

حذر.. الطرفين على سواء:

يقول الإسلام للرجل:

فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ويقول لولي الفتاة: «**إذا جاءكم من ترضون دينه فـزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**».

فإذا تعذر الوفاق:

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ويبقى أن تقول مع المجربين:

(هل يتم الطلاق فعلاص بكلمة واحدة؟ أبدًا!!

فهناك فرصة.. وفرصة..

ثم الثالثة:

إنه يدقق.. تأديبًا للرجل والمرأة على سواء. ولذلك لم يقل القرآن: الطلاق كلمتان..

بل ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَان﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وأخيرًا.. قد يكون الطلاق آخر الدواء..

وهو في موضعه رحمة بالطرفين.. حين تنتهي به.. حياة كلها نكد.. بالجمود؟

ولكن الحل هو: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].أ.هـ. بتصرف.

في مجال التطبيق:

ولقد كان هناك متقون يخافون ربهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومنهم ذلك الصوفي.. الذي كان من قدره أن يتزوج من امرأة سيئة الخلق.. فكان يصطبر على نشوزها.

فلما أشفق عليه أصدقاؤه اقترحوا عليه أن يطلقها.. فما كان جوابه إلا أن قال:

(أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها.. فيتأذى بها).

●●●

ولا تملك إلا الانبهار.. أمام الإيثار..

الإيثار الذي يسقط بين يديه منطق الفلاسفة الكبار.. والذين زعموا

فعل الخير أنانية مقنَّعة!

إن هذا الصوفي: بصفاء قلبه.. قد يكون فلاحًا لا يسمع عنه أحد.. ولكنه بعمله هذا يهز ضمير كل أحد أن يرتفع إلى مستوى الميثاق الغليظ: بذلاً.. ومددًا.. وعطاء..

إنه لا يتحدث عن الوفاء شعارًا.. وإنما يقدمه شعورًا ملك عليه أقطار نفسه فبرز في الواقع عملاً.. بعد أن كان في قلبه أملا..

●●●

وهو يذكرنا بواحد من رواد مدرسة الإيثار.. والذي أدى فريضة الحج.. ثم وهب ثوابها لمن لم تقبل حجته من أفراد المسلمين..

وليت شعري.. إن الزوجة.. وإن الزوج لأحق بهذا الإيثار.. الذي هو شِرعة الأخيار..

ومن لا خير فيه لرفيقه.. فلا خير فيه لأحد..

«**وخيركم خيركم لأهله.. وأنا خيركم لأهلي**».



حديث.. مع الشباب

في تحقيق صحفي تقول إحدى الباحثات:

(إن صلة الرجل الفـرد بعـدد من النســاء من الأمـور التي تبت فـيهـا الأحوال الإجتمـاعية. . فالنسبة ـ في رأي فضـيلة الشيخ الغزالي ـ بين عدد الرجال والنساء. . إما أن تكون متـساوية. . وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيـتين. . فإن كانت مـتساوية. . أو كـان عدد النساء أقل. . فـإن تعدد الزوجات لابد أن يخـتفي من تلقاء نفســه. وستفرض الطبـيعة ـ ساعـتها ـ توزيعها العادل قسراً!

أما إذا كان عـدد النساء أربى من عدد الرجال. . فـسنكون إزاء واحدة من ثلاث:

١ ـ إما أن نقضي على بعضهن بالحرمان حتى الموت!

٢ ـ وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات، ونقرّ جريمة «الزنا»!

٣ ـ وإما أن نسمح بتـعدد الزوجات. ولأن المرأة ـ قبل الرجل ـ فـيما يرى الشيخ الغزالي ـ تأبى حياة الحرمان، وترفض فراش الجريمة والعصيان. . فلم يبق أمـامهـا إلا أن تشرك غـيرها في رجـل يحتـضنها. . وينسب إليـه أبناؤها. . ولا مناص بعـدئذ من الاعـتراف بمبـدأ «التـعدد» الذي صـرح به الإسلام شريطة أن يتحقق العدل. . فإن لم يتحقق العدل. . فلا تعدد هناك.

●●●

قلت ذلك للفتى المتحمس. . والذي وقف ـ يرضي غروره ـ زاعماً أن التعدد هو الأصل. .

ولما كان من المحبين للشيخ الغزالي.. فقـد حاولت إفحامه بوجهة نظر الشيخ الغزالي تلك!

وإذا كان هنـاك من يرفض التعـدد منساق وراء هواه فـقد نجد أنفـسنا أمام: تفريط.. أو إفراط.. يتقاضان الاقتراب من الآية الكريمة.. مستنيرين بما قرره المجربون.. فلعل ذلك مما يحسم القضية أو يكاد:

يقول الله (عز وجل): ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]

●●●

والآية الكريمة تخـاطب الناس جمـيعـاً.. والأزواج منهم بخـاصة.. وتشمل شمولاً أوّلياً منهم:

أولئك الراغبـون في التعـدد.. حتى يراجعـوا حساباتـهم.. التي قد تنتهي بهم إلى صرف النظر عن فكرة «التـعدد» إيماناً منهم بأن أحداً لن يجد الراحـة عند أحـد.. وإنما الراحـة هناك عـند نفـسك الراضـيـة.. وقلبك الوسيع.. ونقترب مـن الآية الكريمة متأملين مسترشدين بمـا قاله الثقات من العارفين: يقـول (عز وجل): ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

●●●

الآية الكريمة تدل على اهتـمام الإسـلام بالواقع.. لا واصفـاً.. وإنما كاشفاً عن الأسباب.. ثم محاولة علاج الانحرافات.. أما نحن اليوم:

فنحن فـقط نحبّر الصـفحـات عن التعـدد وزسبابـه.. دون أن نقدم العلاج.. إننا فـقط منساقـون وراء أهوائنا التي استـبعدتنا حين أبـعدتنا عن الفهم المصحح.

يقول المغرضون:

١- أباح الرسلام التعدد

٢- ثم اشترط فيه العدل.

٣- ثم حكم بأنه غير مستطاع؟!

ولكن الصحيح زن يقال:

المطلوب هو: العدل المستطاع وهو:

المساواة في الحقوق والواجبات..

أما عدل القلوب.. فغير مستطاع.

●●●

من آثار التعدد:

إذا كانت الطبيعة من حولنا تنطق بلسان الحال:

إن الورقة تسقط.. وتبقى الشجرة.. لتجدد شبابها في ربيع قابل..

إذا كان هذا هو منطق الطبيعة.. فإنه وفي العلاقات الإنسانية.. يكون الزمر بالعكس:

فبعض الأزواج يرغب في تجديد الفراش منطلقًا من رجولة متسلطة.. أو من فحولة جائرة: يقول:

(إن الحياة قـد كلفت الذكر بأن يمد الحياة.. ولذلك جاء قـويًا.. أكبر حجمًا.. أقدر على المطاردة. والمنافسة والمشاجرة).



مظاهرة سلمية في بيت النبوة

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

قصة نزول الآيتين:

الآيتـان الكريمتان أمـر للرسول (ﷺ) بالـشفـقة على أحق الخلق بهـا وأهلها وهن: زوجاته (ﷺ).. وذلك عـندما اجتمعن فـقرن المطالبة بزيادة النفقة بعد ما كن صبرن على شظف العيش زمانًا طويلاً.

والقصة كما رواها الإمـام أحمد عن جابر (رضي الله عنه) قال: أقـبل أبو بكر (رضي الله عنه).. يستأذن على رسـول الله (ﷺ) والناس ببابه جلوس والنبي (ﷺ) جالس فلم يؤذن له.

ثم أقبل عـمر (رضي الله عنه).. فاسـتأذن.. فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعـمـــر (رضي الله عنهما) فـدخلا. والنبي (ﷺ) جـالس وحوله نسـاؤه وهو (ﷺ) ساكت.

فقال عـمر (رضي الله عنه): لأكلمن النبي (ﷺ).. لعله يضحك فـقال عمر (رضي الله عنه) يا رسول الله لـو رأيت ابنة زيد - زوجة عـمر - سألتـني النفقـة آنفًا فوجأت عنقها.

فضحك النبي (ﷺ) حـتى بدت نواجذه وقال: «**هن حولي يسـألنني النفقة**» فقام أبو بكر (رضي الله عنه) إلى عائشة ليضربها.

وقام عمر (رضي الله عنه) إلى حفصة: كلاهما يقولان: تسألان النبي (ﷺ) ما

ليس عنده؟! فنهاهما الرسول (ﷺ)، فقلن: والله لا نسأل رسول الله (ﷺ) بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

قال: وأنزل الله (عز وجل) الخيار وبدأ بعائشة (رضي الله عنها) فقال: «**إني أذكر لك أمرًا.. ما أحب أن تعجلي فيه.. حتىٰ تستأمري أبويك**» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**﴾ الآية.. قالت عائشة (رضي الله عنها): أفيك أستأمر والدي؟!

بل أختار الله (تعالىٰ) ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال رسول الله (ﷺ): «**إن الله (تعالىٰ) لم يبعثني معنفًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا. لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها**».

●●●

ولنا هنا وقفات:

١- إن الناس أبناء الدنيا.. فلا جرم أن الناس يحبون الدنيا.. وزوجاته (ﷺ) ناس من الناس.. فيهن رغبة في الدنيا ولهن تطلع إلىٰ متاعها. ولو اختفىٰ هذا الدافع فزهدن في الدنيا زهدًا مطلقًا لجاز لكل امرأة بعدهن أن تتعلل في تعلقها بالدنيا.. بأن زوجاته (ﷺ) لم يكن بشرًا.. بل كن ملائكة يحفظن.. ولا يقاس عليهن من حيث يستحيل علىٰ البشر أن يرتفعوا إلىٰ أفق الملائكة. فلما طالبن بزيادة النفقة، دل علىٰ أنهن من الناس.. فيهن ما فيهم من تعلق بالدنيا.. ورغبة في الاستمتاع بها.. وإذا كان هناك من فارق فهو: أنهن يطالبن حين يطلبن.. لا عن تعنت.. وتحد.. وإنما الأمر علىٰ ما قيل: أبت السماوات والأرض إباء إشفاق لا إباء تكبر وشقاق!!

٢- ولاحظ موقف والد الزوجة في شخص أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما).

إن انحياز الوالد للزوج.. إنما هو لحساب الزوجة أولاً وأخيرًا.. من حيث كان ترضية لزوج يأسره الجميل.. فيهب للدفاع عن زوجته.. أمام أبيها. لا كما يحدث اليوم من دفاع والد الزوجة عنها بالحق وبالباطل مما يزيد القضية تعقيدًا!!

●●●

درس في التربية:

٣- كان في موقف أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ما يكبت في صدر الزوجة رغبة فطرية، كبتًا يؤذن بالإنفجار من بعد.. أو تتسرب•به العقد النفسية في الأعماق. ولكن الرسول (ﷺ) مع ترحيبه بموقفهما يتصدى للنزعة الكابتة من قبل الشيخين ،ثم يفسح الطريق أمام الرغبة الفطرية لتعبر عن نفسها. وتلك واقعية الإسلام التي لا تواجه الدافع المناسب من أعماق النفس يطلب الإشباع، حتى لا يرتد حسيرًا ليكون من بعد عقدة نفسية تنتهز الفرصة المواتية لتصفي حساباتها.

●●●

ودرس في الدعوة:

٤- وإذا سولت الغيرة المشروعة لعائشة (رضي الله عنها) أن ترجو كتمان اختيارها عن بقية أمهات المومنين لتبقى في الطليعة ودائمًا فإن الرسول (ﷺ) يؤكد أنه داعية إلى الله. والداعية ميسر لا معسر ومن صميم وظيفته أن يعين المدعو على الإلتزام ليزيد المهتدون واحدًا. وما أكثر الذين يحاولون وضع أسئلة الامتحان معقدة راغبين في أن تكون شخصياتهم مرهوبة: والمطلوب منهم أن ييسروا.. لا أن يعسروا!!

من الفرش.. إلى العرش

يقول (عز وجل) في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨, ٢٩].

من مقومـات الجندية الإسلامية أن يكون للقيـادة المؤمنة عون على أمر الله:

لقد أحس عـمر (رضي الله عنه) بأن الرسول (ﷺ) يغالب ظرفًـا صعبًا. .وإذا كان إدخال السرور على قلب المسلم أدبًا إسـلاميًا فكيف إذا كان قلب الرائد الذي لا يكذب أهله؟ إن إدخال السرور عليـه يكون أولى. . من حيث كان غمه مانعًا من خير كثير تحرم الأمة منه. . بقدر ما يكون السرور بابًا إلى خير كثير. . ثم إن الجندي ـ عمر (رضي الله عنه) ـ ينسى همه مع زوجه ليذوب في هم الرسـول (ﷺ) وهو مـاض على نفس الطريق الـذي مضى عـليه رفـيـقـه الصديق. . عندما عـرض نفسه للخطر فداء الرسول ليلة الهـجرة الذي كان الإضرار به إضرارًا بالأمة كلها.

●●●

التعاون على البر:

لقد تعاونت كل الأطراف المعنية على إثبات أن الحق لم يكن في جانب الزوجات الطاهرات. فاسـتأنف السفين سيره بـاسم الله في ظل هذا التعاون وما زلت أذكر أم الزوجـة التي أفسدت ما أبرم الرجال من إصـلاح بقولها: ابنتي لا تخطئ، وكان من حق قسيـمتها أن تقول: لا . . بل ابني هو الذي لا يخطئ! ويتحول الموقف إلى تئق. . ومئق. . وإذن فـيستحيل علينا؟؟ أن نتفق!

ذلك بأنه إذا تعصب كل طرف لولده.. وإذا لم يخطئ أحد من الزوجين.. فالذي أخطأ هو أعضاء مجلس الصلح؟! الذين تركوا المشكلة عائدة إلى حيث بدأت.. بل زادت تعقيدًا في هجمة التعصب الذي برئ منه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما).. حيث آثرا الحق على الهوى فكانت في النهاية لصالح ابنتيهما قبل أن تكون لصالح الزوج!

●●●

ومن فقه الآية الكريمة:

ولاحظ واقعية الإسلام في عرضه (ﷺ) حين قدم اقتراح إرادة الدنيا.. كما ذكرته الآية الكريمة.. على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة.. لا إيثارًا للأول على الثاني. وإنما هي الواقعية التي تقدر ميل الإنسان إلى العاجلة.. وهذا حقه.. ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أما واجبه فهو: إدراك تكاليف بيت القيادة ونصيبه الأوفى من الصبر والتضحية إيثارًا للمبادئ على المنافع.

وكانت خطبته (ﷺ) هي الأخذ بأيدي أمهات المؤمنين إلى التي هي أقوم..

●●●

من مفردات هذه الخطة:

التلميح بزوال الدنيا.. التي هي مجرد زينة: طلاء لا يصبر على البقاء!

والعاقل ينأى بنفسه عن الوقوع في شرك الفاني.. والذي يحرمه من سعادة الأبد في دار هي الحيوان.

والأمر أولاً وأخيرًا على الاختيار.. وليس على الإجبار. وعلى كل

واحدة أن تختار ما يحلو لها. . وعلى كل إنسان أن يتحمل نتيجة اختياره. . وحده.

●●●

من خصائص الزوج الصالح:

وتبدو ملامح الزوج الصالح الوفي فيما ذكرته الآية الكريمة، فالآية الكريمة لا تقول: اقبلن. . وإنما تقول: تعالين والمراد هنا أن تكون الحركة رأسية. . وليست أفقية: حركة إيمانية صاعدة في جو السماء: من الفرش. . إلى العرش. . بمعنى تعالين. . ارتفعن. . عن وخامة الأرض وطينها فمكان المؤمن هناك في السماوات العلى.

الأرض ميدان البلابل للترنم والغناء
والقبة الزرقاء ميداني إلى غير انتهاء
أنا سائر بين الصخور وموطني عرش الهواء
لا يبتني الشاهين وكرًا.. إن موطنه السماء

ويبدو الزوج وفي معمعان الأزمة يبدو ثابت الخطو رابط الجأش. . متحملاً قسوة الموقف كأنه شيء يألفه. فلو اجتمعن عليه جميعًا ما ضره ذلك. . ولا حرك في رأسه شعرة واحدة.

بل إنه سوف يحسن إليهن مقدرًا عشرة الأمس. . غير فاحش ولا متفحش من مثل ما يحدث اليوم في معارك الفرقاء. .والتي تأكل الأخضر واليابس. . وإنما هو الإحسان وبالذات لحظة الخطر. . شأن من يترك للصلح موضعًا. . مبقيًا على بقية من الود. . فلعل المياه أن تعود إلى مجاريها حين تعطي القوس باريها.

إن الزوج هنا كما يقولون: «يشتري» ولا يبيع يحاول أن يسدد الخطى

علىٰ الطريق. . فـرارًا من مرارة الطلاق. . أو الفـراق. . إنها صـورة الوفاء يتمثلها الرائد الذي لا يكذب أهله: (ﷺ). . الوفاء لعـقدة النكاح وللميثاق الغليظ. . وبخاصة في اللحظة التي يتعرض فيـها الزورق الصغير للعواصف الهوج. . فيتجاوزها الملاح الماهر. . ليستقر علىٰ الشاطئ الآمن .



أم الزوج
بين الحماية والحمية

سـقى الله أيامًا كـان البـيت فـيهـا هو سكن العـائلة الكبـير: الجـد والأولاد.. والأحـفـاد.. وكـانت «الحـمـاة» «والدة الـزوج» وكـان الحم «والده».. كـانا يشكلان خط دفاع.. خط «حـماية» لزوجـة الابن.. التي تظل في تقديرهمـا منطقة محرمة.. مـحظور على أحد أن يقتحـمها.. أو يجترئ عليها، وحتى الزوج نفسه ـ وهو ولدهما ـ كان يعمل لهما حسابًا.. قبل أن يظلم زوجته!

وقبل ذلك كانت أم العـروس تقول لها وهي تتخطى عتـبة الدار ذاهبة إلى رجلها.. كانت تقول لها: إنك تفارقين أمًا هي: أنا التي ولدتك.. إلى أم.. هي حماتك.. التي ولدت لك.. ولدت لك زوجًا لم تعاشريه.. في بيت لم تدرجي فـيه.. فكوني للبـيت كله أرضًا.. يكن لك سـماء تمطرك بالأمان والـقرار.. فرصـيدك من الخـير الذي تفـعلين راجع إليك منه الحظ الكبير.

وهكذا كانت الوقـاية من مشكلات المستقـبل.. خيرًا من عـلاجها.. فوفى الله (تعالى) الأسرة بما عملت.. أمـانًا واطمئنانًا.. نجاها الله (تعالى) به من مثل مـصير أولـئك الذين يبنون دورهم فوق البراكـين.. وفي منطقة الزلازل.

●●●

مدرسة البر:

إنها إذن مــدرة البر: بر الآباء بالأبناء.. والذين يسـتجلبون به سـعادة الدارين.. في الآخـــرة.. بالثـواب.. وفي الـدنيـا ببـر الأبـناء.. وفـاء بالجميل.. وهي مـدرسة لها قانونهـا وهو: أن يكون والدا الزوج: أبًا وأمًا للزوجة بمقـتضى القـانون: ووالدا الزوجة للزوج كـذلك.. إلى الحد الذي يؤلف بين قلوب العائلتين فـي «مصاهرة» تصهـرهما.. ليخرجـا من تجارب الحياة انصع جوهرًا.. وأصبر على لأواء الحياة.

●●●

مدرسة العقوق:

وفي مـواجهة مـدرسة الـبر.. تحاول «مـدرسة العـقوق» أن تـفرض وجودها في شخص «حـماة» قد تتخلى اليـوم عن وظيفة الحماية.. لتـصير حـمة تلدغ وتلسع.. أو على الأقـل حمـو الشمس وحـموها.. في شـدة حرارتها. وقد تشتد وطأة «الحماة» مدفوعة بمثل غرور الشاعر القائل:

ونرعى حـمى الأقوام غـيـر محـرم

حمـاها علينا.. ولايرعى حـمانا الذي نحـمى

وفي هذا الجـو المكفهـر.. يكثـر التطاول.. والادعاء.. فـإذا رحت تفض هذا الاشتبـاك سمعت من كل طرف عن قيم.. نـدعو لها.. لكن لا نمارسها.. وأخرى نمارسها.. بيد أننا لا ندعو إليها!

ومن خلال هذا الصخب.. وهذا الادعاء.. يوافـيك من بعيد صوت الزوجة الشابة..

وهي تتغنى خارج السرب بهذه الأبيات:

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني

إن النفيس غريب حيثما كانا

●●●

موقف المصلحين:

وفي الوقت الذي تخلع فيه الزوجة الشابة آمالها في تحقيق أحلامها.. يحين الوقت لتدخل الحكمـاء: من أهلها.. ومن أهله .. في الوقت الذي صار فيه البيت شجرة من الشوك: تلمسها.. ثم لا تستقر عليها، ثم صارت الزوجة فيه مثل عقـارب الساعة.. تتحرك.. ولكن في الدائرة.. في الدار لا تتعداها.

●●●

بداية العلاج:

وعلى المصلحين أن يدركوا مـا يلي وهو: أن «الحماة» أم.. مـحكومة بغريزة الأمومة الضاغطة.. والتي لا تستطيع الإفلات من قبضتها، وإذا كان زوج ابنتها رجلاً يضاف إلى أسرتهـا.. طائرًا في منظومة «السرب» فإنها لا تنسى.. ولا تستطيع أن تتناسى أن زوجة ابنهـا التي أخذته منها طرحت من مجموع الأسرة واحدًا.

ومن أجل ذلك.. فإن مفتاح القضية ليس في يدها.. وإنما هو في يد الزوجة الشابة ـ في بعض الأحيان على الأقل ـ وعليها أن تدرك ما يلي:

أن الإنسان لا يشعر بقـيوده إذا تبعه من يحبه.. مـختارًا.. فإذا بدأت المقاومة .. ومحاولة البعاد.. كان الألم أشد ما يكون.. وهذا ما تخطط له «الحماة» الناشز.. في مواجهة الزوجة العاجزة!!

لقد خطبت لابنها فـعلاً.. لكنها لم تكن تتصـور أن عقبى الزواج أن

تخطفه غيرها!

إنها ترى. . وتسـمع ما لم تكن تحب أن ترى وأن تسـمع. وهناك في أعماقها معركة بين فكرها. . ووجـدانها. . بين عقلها وقلبها. . وهي مصرة على أن تحسم المعـركة لحسـابها ولو على أنقاض ولدهـا. . فلنكن منها . . على حذر!!!



نختلف.. وفي النهاية نأتلف

يقول الله (عز وجـل) في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا..﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

يقول الشاعر المسلم في وصف بيت تدبره حرة مؤمنة:

ودونك بيـــتًا.. قـــد تحلى بـالنهى — كـمـا يتـحلّى مـعـصم بـسـواره

إذا لم يـكن في منـزل المرء حــرة — تدبره.. ضـاعـت مـصـالح داره

وقد تختلف الأمـزجة يومًا.. ولكن الزوجة الحرة تتنازل عن رغـباتها في مرضاة بعلها. ألا وإنها هذا الغراب الأعصم:

وهو الأبيض الجناحين.. فـلا يكاد يوجد في هذا الزمان. وقـد أشار إلى ذلك قوله (ﷺ): «**ألا أخبركم برجالكم في الجنة..؟**».

ثم قال عن الزوجة المـؤمنة الوفية: «**ودود ولود إذا غضـبت أو أسيء إليهـا أو غضب زوجـها قـالت: هذه يدي في يدك لا أكتـحل بغمـض حتى ترضى**» [رواه الطبراني]..

وموقف أمهات المؤمنين هنا يذكرنا بهذا الصنف النبيل وما يترتب عليه من عطاء جزيل. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

يقـول الـرازي: والأجـر العظيم: الكـبـيـر في الذات «الحـــسن في

الصفات»، الباقي في الأوقات، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الـطول وفي العـرض وفي العـمق. حـتى لو كـان زائدًا في الطول يقال له: طويل، ولو كان زائدًا في العرض يقال له: عريض وكذلك العمق.

فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم فـيقال: جبل عظيم إذا كان عاليًا ممتدًا في الجهات.. وإن كان مرتفعًا فحسب يقال: جبل عال.

إذا عرفت هذا.. فأجـر الدنيا في ذاته قليل.. وفي صفاته غـير خال من صفة قبح، لما في مأكوله من الضـرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات.. وهو غير دائم، أمـا أجر الآخرة: فكثير.. خـال عن جهات القبح.. دائم.. فـهو عظيم. وهذا الإغراء الواضح الداعي إلى إيثار المـتعة الباقية.. نجـاة بالأسرة.. ثم بالأمة من الترف وغوائله.. وما يـجره عليها من ويلات تدخل بها نار الدنيا.. قبل نار الآخرة.

والموقف في جملته دعوة إلى الصبر على مرارة العيش.. ثم التضحية بالمقدور عليه من المباحات.. ادخارًا لما تحتاجه الأمة من خدمات:

يقـول الله (تعـالى): ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

تشير الآية الكريمة إلى لون من الظلم.. ظلم الناس أنفسهم:

أ- حين أهملوا مرافق الأمة فعطلوها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾.

ب- وحين انغمسوا في الترف إلى آذانهم ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

وكيف جر ذلك عليهم الخراب.. فخر عليهم السقف.. ثم كانوا أثرًا بعد أن كـانوا عينًا. وهكذا يفـعل الترف بأهله وهو الداء الذي يراد حـماية الأسرة من تبعاته.

قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها) مؤكدة هذا المعنى: إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاة نبيها (ﷺ) هو: الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم.

فانظر كيف خربت الشخصية أولاً.. ثم كيف كان الجزاء بخراب الديار.. وأي خراب للشخصية أمر من سمن الأبدان.. ومرض القلوب.. وانطلاق الشهوة كالفرس الجموح! فإذا أرادت أمة صلاح حالها ومآلها.. فلتغير نفوسها فإن التغيير النفسي مقدمة للتغيير الاجتماعي ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

●●●

بيضة الديك:

لقد كانت رغبة أمهات المؤمنين في العيش الرافه.. كانت بيضة الديك.. لم يعدن إليها أبداً راضيات بما هن فيه من بساطة فيها الخير كله.. وذلك ما يشير إليه قولهن: (والله لا نسأل رسول الله (ﷺ).. بعد هذا المجلس ما ليس عنده).

وها هي ذي عائشة أم المؤمنين(رضي الله عنها) تؤكد أن ما حدث كان هو الاستثناء من قاعدة الرضا بما قسم الله.. وذلك قولها في الموقف الآنف: (إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاته (ﷺ).. هو: الشبع).

●●●

مع التوحيدي:

ولنا هنا وقفة مع التوحيدي في «الإشارات الإلهية» يهيب بالمؤمن أن يؤثر الآخرة على الأولى مستعيناً بربه الذي كان رضاه أعظم من كل متاع زهرة الحياة الدنيا.

قال: «اللهم أنت بـنا أبصر ونحن على مصـالحنا أقصر فـرقنا بكرمك إلى حظيرة القدس.. واسقنا بكأس القـبول شراب الأنس، فإنك إن فعلت ذلك بنا.. لم نظمأ بعده أبدا.. ولم نؤثر عليك أحداً».



قبل أن يدفع الأطفال
«فاتورة الحساب»

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

استـجابت أمهات المـؤمنين لنداء الواجب قانتات تائبـات.. وكان هذا العود الحميد إلى الحق بعدمـا تبين.. كان رسالة موجهة إلى بعض الأزواج اليوم «ليـوفقوا أوضاعهـم» طبق سنته (ﷺ) وبخاصة في تلك البـيوت التي حولها الانفـعال إلى ساحة للقتال.. أو حلبـة مصارعة تنتهي حتـمًا بهزيمة الفريقين .. فـلا غالب في معارك الأزواج ولا مغلوب، وإنما المـغلوب حقًا هم الأطفال.. الـذين يدفعون «فـاتورة الحسـاب» في قضيـة ليسـوا أطرافًا فيها؟!

ولا نستبعد ،الخلاف بين الزوجين أبدًا.. لأن الاتفاق على «كل شيء» صلح قصير الأمد!

ولكن الخلاف عندما يكـون على عرض الدنيا.. فإننا محـتاجون إلى رجل مثل «التـوحيدي» لنسـتمع إلى موعظـة منه بليغة.. حـبذا لو أنصف الأزواج إلى مـا وراء سطورها.. والتي تؤكـد أن الحـيـاة بسـيطة.. ولكننا نعقدها بأطماعنا.

يقول التوحيدي:

(آه على أقدام كانت تستثقل حـمل رقيق النعال، كيف تطيق غدًا ثقل القيود والأنكال؟ «القيود الشديدة».

آه.. على جنوب: كانت تستشخن لبس الحرير.. كيف تصبر غدًا على مقاساة لهب السعير؟

آه.. على خدود في ظلال الترف.. تتدلل ناعـمة.. كيف تكون غدًا في أطباق الثرى ساهمة راغمـة.. آه على أجساد في حلل الدنيا مصونة.. إذا أصبحت غدًا في أثناء الجنادل مهينة مدفونة.. آه على من قـد غدا في دروب المعاصي مشتبكًا.. كيف يكون إذا وقف بين يدي الملك الجبار مرتبكًا.. عجيب لقلب سكنه عقل أو اطمئن به فهم أو سنحت فيه فطنة، أو هب فيه انتباه.. أو ألم به رأي: كيف ركن إلى الدنيا جهلاً ورضي بها وطنًا.. ووجدها من الجنان بدلاً.. وغفل عن صنيعها بمن مضى وخلا.. أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها وورود الفجائع على أهلها: من علة مفاجئة. أو ميتة قاضية. أو دار بعد ساكنها موحشة. أو حال بهولها مدهشة؟! قد كدر منها المنون.. ما صفا.. وتركها ريب الزمان قاعًا صفصفا.

يا هذا: شمر، وخذ في الجد.. فالأمر والله حق.. أتدري ما الأمر؟!

الأمر هو: الرحيل عن هذا الموضع النابي بأهله.. المزعج.. إلى محل آخر.. إما أن يكون أنعم منه.. وإما أن يكون أنبى منه.. وبين الرحيل والوصول.. وحشة الفراق وبلوغ الروح التراق.. والتفاف الساق بالساق وحشرجة الصدور وتسكاب المآق.. يا عاشق الدنيا.. لا تجهلن فيمن جهل.. فكل ما أحيا.. قتل].

ولأن استدبار الدنيا.. واستقبال الآخرة.. عسير لأن الدنيا حاضرة.. والآخرة مغيبة.. فقد شغلت هذه القضية بال الصالحين.. الذين ما فتئوا يلومون أنفسهم على ما قدموا.. حتى قال قائلهم:

قلبي إلى ما ضرني داع ... يكثر أحزاني وأوجاعي
كيف احتراس من عدوي إذا ... كان عدوي بين أضلاعي

وقال آخر زائدًا على هذا:

هذا فؤادي.. وطرفي ... قد سببا لي حتفي
فكيف أحذر يا قوم.. ... من فؤادي وطرفي؟!

ويعلق التوحيدي هنا قائلا: صدق الرجلان:

[أما الأول.. فوجد عدوه نفسه فاستصعب الخلاص منه.. ولعمري هو صعب. وأما الثاني.. فجمع بين فؤاده وعينه ثم استغاث منهما، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حتفة.. وهذا كله من الكسل.. وإلا لو صدقت النية، وجدت المرة ـ القوة ـ وخلصت العزيمة لكان قهر القلب إذا عتا.. سهلاً.. وغض العين إذا طغت قريبًا. .ولكن النيات مدخولة، والعزائم ضعيفة.. والتمني غالب.. والنفس مسوفة.. والطباع خوارة. وهكذا الإنسان إذا وكل إلى حوله الضعيف.. ورأيه السخيف، وقد عصم الله (تعالى) أمهات المؤمنين بما أنزل من آيات بينات.. فكن حجة على كل عاشق للدنيا.. كيف صار عبدًا لها لا تقف آمانيه عند حد.. وكلما طلب نعمة كان شأن دنياه التسويف على حد قول «أبي حنيفة الصوفي» لما قيل له كيف أنت قال: كلما قلت: غدًا موعدنا.

ضحكت هند وقالت: بعد غد!

ولنترك العشاق.. حيارى في الآفاق.. ثم لنعش مع أمهات المؤمنين.. وكيف تنزل الوحي غضًا طريًا آخذًا بأيديهن إلى الكمال، وذلك

قوله (تعالى): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

والفاحشة هنا هي: طلب مـا لا ينبغي مما يؤذي رسول الله (ﷺ) وإنما كانت مضاعفة العذاب نظرًا لحساسية موقعهن، وعظم مسئوليتهن.



نعمة التوفيق

تعني كلمة «الزوج» المكمل للفرد.

ولا يكون مكملاً إلا إذا كان موافقًا.. وهكذا كانت استعمالات القرآن الكريم لهذه الكلمة.. والتي تدل على.

التوافق في الطبع.. والمشاكلة في الدِّين.. والموافقة في المزاج.

يقول (عز وجل): ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وهو خطاب إلى المجتمع يقول له:

إنه إذا كان هناك توافق وتشاكل بين الطرفين. فلا تقفوا حجر عثرة في الطريق.. وَدَعُوا الموافق يلتقي بموافقته. دعوا السالب يلتقي بالموجب.. ليضيء المصباح!

يوضح هذا المعنى قوله (عز وجل):

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالتعبير بالزوجة هنا في مجال التوافق بين الزوجين.. وأن محاولة فكٍّ هذا الارتباط ظلم.

ويقول (عز وجل):

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ..﴾ [الأحزاب: ٥٩]

ومعلوم أن التوافق بين النبي (ﷺ) وأزواجه كان على غاية ما يكون الوئام.. ومن ثم عبَّر.. بأزواجك.

●●●

ثم اقرأ قوله (تعالى):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

إنها مجرد «امرأة».. لأنه لا توافق بينها وبين زوجها في الدين..

وقد ضربهـا الله (تعالى) مثلاً.. وهي جـديرة أن تكون مثلاً أعلى.. تتملاه نساء العالمين كنموذج يُحتذى..

لأنها استطاعت ـ على ضعفـها ـ أن تثبت على إيمانها وهي تحت هذا السفاح الطاغية..

ويقول (عز وجل):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠].

كلهن.. إمرأة.. وليست زوجة.. فالفارق هائل.. والشقة بعيدة بين الزوجة.. والمرأة.

●●●

وهذا هو الزواج:

هذا هو الزواج الدائر على عنصر الصراحة والموافـقة.. أما التسرع في الإختيار طمعاً في الدنيا.. فلا خير فيه:

لا خـيـر في حُرٍّ يجـالس حـرة ... ويبـيع قِـرطَيـها إذا هو أعـدَما

[أعدما: افتقر].

كما أنه لا خير في حياة كان من ورائها الطمع الذي يحطم جسور الثقة بين الزوجين اللذين صار أمرهما على ما يقول الشاعر:

ومما أدام الـرزء: تكـذيبُ صـــــادق ... على خـيـرة منـا.. وتصـديق كـاذب

وفي هذا الجو المكفهر . . ماذا يفعل الطرف الضعيف؟

مـاذا تفـعل الزوجـة التي باتت ـ وفـي بيت الزوجـيـة ـ ذلك الطائر الغريب . . والذي يعزف خارج السرب منفرداً؟!

لقد بَهَرَنا المال . . وكثرةُ الرجـال . . ولكن ظهر لنا أنه مامن بستان إلا وبه أفعى؟!!

إنه الخوف من المـستقـبل . . وسوف يتـحول هاجس الخـوف إلى فزع يحملهـا على التآمر . . ولـو انهدم المعبـد على رءوس الجميع . . بما فـيهم أفلاذ الأكباد!

●●●

وبنفس القوة نقول مع القائلين:

أحياناً . . يتسرع الفتى في الاختبار . . قبل أن يتعمق في قراءة الواقع :

قد يأسره السمت الهادئ . . والجمال الطاغي . . ثم يلهيه عن الغوص في الأعماق .

وتكشف لك المعـاشرة أنك على بـركان يَجـدُ متنفَّـسه الوحـيد فـيك وحدك . . وما زلتُ أذكر ذلك الفلاح الذكي والذي قال لولده المفتون بجمال مخطوبته :

يا بني : من أجل جارحة واحدة وهي : (وجهها) تتزوجها (كلها)؟!

●●●

إن هذا الوجه الخـادع . لَهُوَ ذلك «الفخ» المنصـوب في الغابة . . وأنت ذلك الطائر البرِّي الذي انزلق إلى مصيره . . بالطُّعم الذي بهره فأسكره .

●●●

ولقد قال الحكماء:

إن البيــت والمال. . ميراث الآباء. . أمــا الزوجة: فــمن عند الرب. . ويعني ذلك أنها هبة. . نعــمة ينبغي أن نشكرها بحسن اختــيارها. . وقد لا تكون جمــيلة. . ولكنها تعــوِّضك بالمودة. . ورعاية حــدود الله (تعالى). . ومع الأيام. . ســوف تجتــمع خيــوط الود. . لتصنع حــبلاً قــوياً يربط على القلوب. . أما من لا تُوافق ، ولا تفارق. . فهذا هو البلاء المبين!

وقد يشتد حبها مع هذا العــذاب. . ولكنه سيفسر في النهاية عن شدة الخوف على ضياع من تحب!

وعندئذ سوف تكون الحياة كزهرة يانعة. . سرعان ما تجف أوراقها كما تجف أعشاب الحقول!

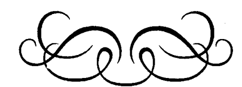
●●●

وإذن.. فاظفر بذات الدين

ألا ما أصدق ما قيل:

إن المرأة الجميلة.. ليست دائماً فاضلة

أما المرأة الفاضلة.. فهي أبداً جميلة!



نعمة الزوج

اشتكت أنثى «النسر» لذكر «الحـدأة» أنها بحثت فلم تجد الزوج الكفء اللائق بها!

وعرض عليها ذكر «الحدأة» نفسه ليكون الزوج الكفء الموافق. وسألته أنثى النسر عن مدى قدرته على توفير العيش الرغيـد لها.. فأجابها معتزاً: سوف أصطاد بمخالبي هذه تلك النعامة الكبـيرة. ثم أحملها إليك في عشنا الجميل!

وتم الزواج.. ولكن النسر المحلق أخلف موعده.. وبدل أن يأتي إليها برأسالنعامة.. جاءها بفأر صغير!!

●●●

وإذا كان لهذه الأسطورة سحرها وجاذبيتها.. فإنها تحكي قصة الحالمين بالقصر المسحور.. وكيف تنكشف الرغوة العائمة عن الماء الآسن..

وعندئذ يبدأ التلاوم.. ثم تبادل التهم.. على حساب زغب الحواصل من فلذات الأكباد.. والـذين يدفعون هم «فاتورة الحسـاب» في نهاية رحلة العذاب.

●●●

الواقع.. أكبر شهادة:

والواقع الماثل أكبر شـهادة.. وأصدق إنبا بفشل كـل علاقة بنيت على محور المال أو الجمال.. ولم تدر على محور المودة والتراحم..

●●●

والفضل ما شهدت به الأعداء:

وهذه واحدة من أشـهر نساء العـالم.. تؤكد ما سـبق به الإسلام من ضـرورة الأسرة.. التي تتنـامى في أحضـانهـا الأجيـال.. في ظل زوجين سعيدين.. سعادة هي أغلى من المال. والجمال. والحسب. والنسب:

تقول:

(هل هناك في عصرنا هذا من حيزت له متع الحياة وزخارفها: من مال وشهرة وانـطلاق إلى أبعد الحدود أكثـر من الفنانة الهابطة الشهيـرة «مادونا» سيـتفق مـعي الكثيـرون: على أن هذه المرأة قد نالـت من متع الدنيـا ما لا يحتاج إلى مزيد:

فهي تملك ثروة ضـخمة تقدر بأكثـر من ١٣٠ مليونًا من الدولارات. وليس هذا فـقط: بل إن لديهـا تعـاقدات للـعمل خـلال الخـمس سنوات القادمة.. ستدر عليها مثل هذا المبلغ الخرافي).

والسؤال الذي يطرح نفسه:

هل باتت هذه الممـثلة سعـيـدة بما تملك من رصيـد.. وما تحـوز من جواهر وآثار؟

أبدًا.. لم ينفعها الجمال.. ولا المال.. ولا ذيوع الصيت.. وها هي ذي تعـترف صـراحـة.. اعتـرافًـا يعكس خيـبـة أملهـا: لقد قـاربت سن الأربعين.. وهو السن الذي لا أمل بعده في الإنجاب..

ومن أجل ذلك فهـي نادمة أشد الندم.. مـذعورة أشـد الذعر.. من تفلت عمرها دون أن تسعد بزوج.. أو بولد!

(وقد صرحت لمجلة نمساوية بأنها نادمة ندمًا شديدًا على تلك السنوات التي أضـاعتـها وراء الغناء هـنا وهناك دون أن تفكر في الزواج.. ودون أن

تفكر في إنجاب طفل أو أكثر. . ليكونوا حولها دون أن يكونوا في دمها ولحمها.

وليس بينهم زوج يحبها وتحبه بما فيه الكفاية. . وصولاً إلى الشعور بالسعادة والأمان).

●●●

وتضيف «مادونا» ـ والحديث هنا موجه إلى المفتونات بها ـ إنها تملك المال الوفير . . ولكنه لم يسعدها. . بقدر ما سيسعدها أن تجد زوجًا مناسبًا: رجلاً يحترمها وتحترمه. حتى لو اضطرت إلى اعتزال الفن من أجله.

وتقول:

إنها تتمنى أن يكون لها طفل قبل سن الأربعين. الذي يخيفها جدًا).

●●●

وهذه شهادة تؤكد صدق ما ذهب إليه الإسلام من ضرورة الأسرة كمحضن طبيعي للعواطف الكريمة. . وأن الزوج نعمة كبيرة. . وإن كان فقيرًا معدمًا. . وكما يقول الفلاحون:

ظل رجل.. ولا ظل حائط!!

●●●

ولم تكن مادونا وحدها الشاهدة بهذه الحقيقة التي يستشعرها عشاق الأخلاق. . وإنما جاءت الشهادات تترى. من قبل نساء. . اكتشفن الحقيقة المرة. . بل وأعلنّها على الملأ. . تنويهًا بنعمة الأسرة. . ونعمة الزوج:

* في مقابلة أجرتها مجلة «الوطن العربي» في عددها رقم ٣١٤ مع امرأة فرنسية متخصصة في الفن الإسلامي واسمها نادية أويبريه وردت إجابة لها على أحد الأسئلة:

(وجدت المرأة العربية المسلمة محترمة ومقدرة داخل بيتها أكثر من المرأة التي تعيش في بلدان أوربا، واعتقد أن الزوجة والأم المسلمتين تعيشان سعادة تفوق سعادتنا).

بعد ذلك وجهت المرأة الفرنسيةنصحها للمرأة الأوربية قائلة:

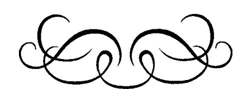
(لا تأخذي من العائلة الأوربية مثالاً لك.. لأن عائلاتنا اللواتي يعشن عصر المادة في أوربا الغربية هن نماذج رديئة لا تصلح أن يحتذى بهن ابدًا).

* وفي مقابلة أخرى أجرتها مـجلة «صدى الأسبوع» مع امرأة انجليزية تدعى براونين موراك إلفانز أعلنت إسلامـها في البحرين بينت أن من الأمور التي دفعتـها إلى أن تترك دين النصرانية وتدخل في الإسـلام ما شاهدته من حيـاة المرأة المسلمة داخل أسرتها ومكـانتها في المجتـمع الإسلامي وفي هذا الصدد قالت السيدة براونين:

(إن المرأة المسلمة دائمًا في حماية ورعاية، وهي في المجتمع المسلم تجد من يعـيلها أينمـا حلت، وهي جزء هام في هذا المجـتمع الإسـلامي الذي تعيش فـيه ضـمن جو عائلـي آمن تفتقـده الكثيـر من الأسر النصـرانية في المجتمعات الأوربية).

وأضافت الانجليزية المسلمة تقول:

(إن المرأة وسط العائلةالمسلمةتعيش في مـجتمع سليم وكأنها في مملكة آمنة واسعة الأطـراف، أما العائلة النصرانيـة فإنها تقتصـر على رجل وامرأة فقط، فـهمـا طرفان لا توابع لخلفهـما، فـالقسيس يتـحكم في كل شيء، ويتدخل في كل الأمور، أما في الإسلام فلا يوجد شيء من هذا ولا وسيط بين الله وعبده).



قبل أن تغرد الزوجة خارج السرب

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

* قد تتـأزم الأمور بين الزوجين.. ثم تنقلب الصـورة: الصورة التي كـانت بالأمس مـشـرقـة.. زاهيـة بمخـتلف الألوان، فـإذا أنت ناظر إلى ظهرها.. وظهرها لا شيء!! وقد يحسب الزوج أنه على شيء حين يتخيل أنه حقق نصرًا مؤزرًا في مواجهـته لزوجته.. إنه لا يكفي أنك لا تؤذيها.. ولكن لا بد من الإحسان إليها.. ويجـب أن تعلم أن الانتصارات في مجال العواطف انتـصارات زائفة لأنها انتـصارات مغشـوشة.. ولا يمكن لمثل هذه المعارك أن تحقق سـلاماً! فالبذور السليـمة.. تنتج ثماراً سليـمة.. والبذور الفاسدة تنتج لا محالة ثماراً معطوبة.

وإذا أردنا الإحسان إلى أنفسنا.. فلنحسن إلى صاحباتنا..

وما الحسن في وجه الفتى شرف له   إذا لم يكن في فعله والخلائق

●●●

* ولنعد إلى الموقف كما وضحته الآية الكريمة.. فماذا نرى؟!

إن القاعدة تقول:

إنما الملام.. على قدر علو المقام

والنقمة على قدر النعمة

ويشتد العتاب . . بين الأحباب

ولقد كان الملام وكان العتاب هنا شديدًا . .

يقول الرازي في تعليل ذلك:

(لما خيـرهن النبي (ﷺ) . . واختـرن الله ورسـوله . . أدبهن الله . . وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه الصلاة والسلام . . يقبح الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته .

وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان :

إحداهما:

إن زوجـة الغيـر تعذب على الزنا بـسبب مـا في الزنا من المفاسـد . . وزوجة النبي تـعذب إن أتت به!! وهذا مسـتحيل . . تـعذب لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه .

ولأن امرأة لو كانت تحت النبي (ﷺ) وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غيـر النبي (عليه السلام) . . ويكون ذلك الغير خـيرًا عندها من النبي وأولى . . والنبي أولى من النفس . . التي هي أولى من الغير .

فقد نزلت بمنصب النبي مرتين فتعذب من العذاب ضعفين .

ثانيتهما:

أن هذا إشارة إلى شرفهن :

لأن الحرة عذابها ضـعف عذاب الأمة إظهارًا لشرفهـا ونسبة النبي إلى غيـره نسبة السـادات إلى العبـيد ، ، لكونه أولى بهم من أنفـسهم ، فكذلك زوجاته .

وأما قـوله (تعالى) ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [الأحـزاب : ٣٠] . فـمـعناه : ليس كـونكـن تحت رسـول الله (ﷺ) . . وكـونكن شـريفـات

جليلات.. مما يدفع العذاب عنكن..

وليس أمر الله كأمـر الخلق: حيث يتعذر عليهم تعـذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم وشفعائهم.

ثم يقول (عز وجل):

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

ولاحظ من تكريم الله (تعـالـى) لهن ـ كـمـا يقـول المفـسـرون ـ أنه (سـبـحـانه) عند إيتـاء الأجـر ذكـر المؤتى .. وهو الله (تعـالى).. وعند العذاب.. لم يصرح بالمعذب فقال.. «يضاعف».

إشارة إلى كـمال الرحـمة والكرم.. كـما أن الكريم عند النفع يـظهر نفسه وفعله.. وعند الضرر.. لا يذكر نفسه!»

ومما يعوضهن الله (تعالى) به: الرزق الكريم..

ومن كرمه أنهن لا يفارقنه.. كـما وأنه لا يفارقهن.. ثم.. إن الرزق بين الناس داخل فيه تصرف الغير.. بمعنى أن الناس يتبادلون المنافع.. وكلا طرفي البـيع والشـراء مـسـتـفـيـد.. من أجل ذلك لا يوصف رزق الدنيـا بالكرم.. لأن كل واحد من البشـر مسخر للغيـر: يمسك رزقه.. ثم يرسله إليـه.. إلا الرزق من الله (تعالى) في الآخـرة.. فلا ممسك له ولا مـرسل لأنه يأتي بنفسه تفضـلاً منه (عز وجل).. من أجل ذلك كان أجدر بوصف الكرم.

أما بعد ..

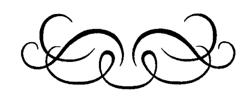
فلنطو هذه الصفحـة محتفظين لبيت الـنبوة بما هو أهل له من الإجلال والإكبار..

إجلال ناس كانوا على ما يقول (تعالى):

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ويبقى إن نعيش نحن لحظات في ضوء المشهد النبيل.. لنصلح ما بدا من عيوبنا.. في تعاملنا مع الدنيا وزينتها.. مؤكدين: أن القليل مع البركة كثير..

ولعمري.. إن كثيراً من ساكنات الخيام لأسعد من ساكنات القصور!



سورة الطلاق
والأمل في عودة الوفاق

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

تمهيد:

تسمى سورة «الطلاق» سورة: النسـاء الصغرى. لأن بينها وبين سورة النساء «الكبرى» أن سورة النساء محط مقصودها هو: العدل المطلق.

أما سورة الطلاق فهي تتحدث عن العدل في الفراق وهو بعض العدل المطلق.

ومقصودها هو: كما جاء في «نظم الدرر»:

(تقرير حسن التدبير في المفارقة. والمهاجرة. بتهذيب الأخلاق.. بالتقوى:

لا سيما في الإنفاق.. ولا سيما إذا كان ذلك عند الشقاق.

ولا سيما إذا كان في أمر النساء.. وبالذات عند الطلاق..

ليكون الفراق على نحو التواصل والتلاق).

●●●

أما صلتها بسورة «التغابن» قبلها:

فقد جاء في أواخر سورة التغابن أمرٌ بضرورة المسامحة والصفح والعفو..

وقبل ذلك كان هناك حديث عن العداوة بين الزوجين.. ولما كان الامر كـذلك.. جاءت سـورة الطلاق محـذرة من أن هذه العـداوة قد تجـر إلى الفراق.. مفتتحة: (بما يَزُم النفس عن ثوران النفوس بزمام التقوى).

●●●

وسبب نزولها ما روي:

من أن الرسول (ﷺ) أفضى إلى حـفصة (رضي الله عنها) بحديث.. فـأظهرته لعـائشـة (رضي الله عنها).. فغضب عليـها.. فطلقها.. فـأتت أهلها. فأنزل الله (تعالى) عليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء...﴾ [الطلاق: ١].

وقـيل له: راجعـهـا فإنهـا صـوامة. قـوامـة. وهي من أزواجك في الجنة)[1].

●●●

وقد حدث مثل ذلك لعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما):

(فقد طلق زوجته وهي حائض..

فذكر عمر لرسول الله (ﷺ).. فتغيظ رسول الله (ﷺ) ثم قال:

«**فليراجعها. ثم يمسكها حتى تطهر .. ثم تحيض فتطهر ..**

فإن بدا له أن يطلقها.. فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها..

فتلك العدة التي أمر بها الله (عز وجل)» [رواه البخاري].

●●●

لمن الخطاب؟:

يقول المفسرون[2]:

(١) رواه ابن أبي حاتم. وساقه ابن كثير في «التفسير» ج (٤/ ٣٧٧).

(٢) راجع «أضواء البيان».

(الخطاب الموجه للنبي (ﷺ) على ثلاثة أقسام:

الأول:

قد يتــوجه الخطاب إليه (ﷺ)، ولا يــكون داخلا فيــه قطعًا. وإنما يراد به الأمة. بلا خلاف من ذلك. قوله (تعالى) في بر الوالدين:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فكل صيــغ الخطاب هنا موجهــة للنبي (ﷺ). وهو قطعًــا ليس مرادًا بذلك: لعدم وجود والدين أو أحدهما عند نزولها كما هو معلوم).

الثاني:

أن يكون الخطاب خــاصًا به. لا يدخل معــه غيــره قطعًا. نحــو قوله (تعالى):

﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

والثالث:

وهو الخطاب الشامل له (ﷺ)، ولغيره بدليل الاية التي معنا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...﴾ [الطلاق: ١].

وأول سورة التحريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١].

●●●

لماذا كان الخطاب إليه:

ليدل هذا على أنه إمام أمته. وقدوتهم. وسيدهم. وأنه وحده ـ (ﷺ)

في حكم كلهم. وأنه سادٌّ مسدّهم جميعهم.

ويعني ذلك أنه لا يجوز لهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته.

ولا يستبدّون بأمر دونه حتى لا تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. إلى جانب ما في اختصاصه بالخطاب من تكريم وتعظيم.. كان به أحب إلينا من أنفسنا. وإذن.. فالقضية المأمور بها خطيرة. وينبغي أن تظل في بؤرة الشعور. وإذا اختُص الرسول الكريم بالخطاب.. فإن معه أمته. فهو خطاب له.. ثم هو تكليف للأمة التي يجب أن تتلقى الأمر بما يناسبه من تعظيم..

•••

وإنما خاطبه (ﷺ) بوصف كونه نبياً:

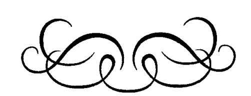
لأنه (الوصف الذي هو سبب التلقي لغرائب العلو ورغائب الحِكم والفُهوم) [البقاعي]

•••

ألا إن الأمر خطير حقاً:

لأن الطلاق إنما يحدث في لحظة من هياج الغضب.. والغضب كما يقولون: جنون مؤقت..

وإذا كان السعداء متشابهين في الهدوء.. والقرار.. والتبصر.. فإن التعساء من المطلِّقين أشكال وألوان.. ومن ثم كان لا بد من النذير المدمدم.. عن طريق افتتاح السورة بما يَفِرّ بالغاضبين من منطقة الجنون.. إلى حيث يَسعدون.. ويُسعدون!



أتبكي على «ليلى» وأنت قتلتها؟!!

يقول اللـه (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ..﴾ [الطلاق: ١].

في مسـتهل الحيـاة الزوجية يكون الانسـجام والوئام نهراً دافـقاً.. لا يتوقف..

يضبط كل واحـد من الزوجين أذنه على صوت صاحبـه.. وعينيه.. على صورته.. وقـلبه.. على وجوده كله..وفـجأة.. وعلى غـير ميـعاد يكفهر الجو.. ويكون الطلاق هو الحل الوحيد!

ولا بأس.. فالطلاق مباح.. وكما يقول صاحب «التحرير»:

(لأنه قد يكون حاجيًا لبعض الأزواج:

فإن الزوجين شخصان.. اعتشـرا اعتشارًا حديثًا في الغالب: لم تكن بينهـما قـبله صلة من نسب ولا جـوار. ولا تخلّقـا بخلق مـتقـارب.. أو متـماثل.. فيكثـر أن يحدث بينهمـا بعد التزوج تخـالف في بعض نواحي المعاشـرة.. قد يكون شديدًا.. ويعثـر تذليله. فيمَلُّ أحدهمـا. ولا يوجد سبيل إلى إراحتهما من ذلك إلا التفرقةُ بينهما.

فأحله الله. لأنه حاجيّ ـ ضـروري ـ ولكنه ما أحله إلا لدفع الضُّر.. فلا ينبغي أن يُـجعل الإذن فيه ذريعة للنكاية مـن أحد الزوجين بالآخر. أو من ذوي قرابتهما. أو لقصد تبديل المذاق.

ولذلك قال النبي (ﷺ):

«أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وفي رواية «الطلاق أبغض الحلال إلى الله»[1].

أجل: إن الطلاق أبغض الحلال إلى الله لماذا؟

لأنه انفكاكٌ لأوصال الأسرة التي تتحول به إلى أنقاض مبعثرة.. بعد أن كان شملها جميعًا.. وكان البيت حصنًا منيعًا..

ومن أجل التصدي لعاصفة الطلاق الهائجة المائجة.. تحتشد في السورة الكريمة كل هذه الصور من الترغيب والترهيب:

لإنشاء شعور الخوف من الله (تعالى)..

ثم شفقة من نزول العقاب..

وهيبة من جلال الآمر (سبحانه)..

وترغيبًا في الصبر على تجاوزات الرفيق.. أو هذا الغريق!

●●●

وإنه ليرُوعك هذا الجو المهيمن على السورة كلها.. حفاظًا على العُش ليستقر.. ثم يستمر:

فالسورة الكريمة مبتدأة بخطابه (ﷺ).. ثم هذا الحشدُ الهائل من صور الترغيب والترهيب.. إلى هذا التفصيل الدقيق للأحكام..

وكل حكم مذيَّل بما يدعمه ويؤكده من مثل قوله (تعالى):

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨) والحاكم (٢/١٩٦)، والبيهقي (٧/٣٢٢) من حديث ابن عمر. وابن حاتم في «العلل» (١٢٩٧). وله شاهد من حديث «معاذ» أخرجه الدارقطني (٤/٣٥)، وابن الجوزي في «العلل» (٢/٦٤٣)، وفي إسناده حميد بن مالك. ضعيف. وكذا فيه مكحول. وهو لم يلق معاذًا. وله شاهد آخر عند أبي داود (٢١٧٧).

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] و ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق: ٦]. و ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٩]. و ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

●●●

ثم إن قضيــة الطلاق ليست قضية فـردية.. وإنما هي مرتبطة بسنن الله (تعالىٰ) في هلاك الظالمين العاتين وذلك قوله (تعالىٰ):

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الطلاق: ٨].

كل هذا الحشد الهـائل ترغيبًا وترهيـبًا.. يتم .. لا من أجل دولة ما وإنما كله.. كله من أجل أسرة واحدة.. خلية واحدة!!

●●●

ويعني ذلك كله أن يقدِّر الزوج لرجله قبل الخطو مـوضعها.. قبل أن يقول بفمه كلمة ينهار بها الصرح.. بعد ما جاءه من الأنباء ما فيه مزدجر!

فـ ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ.. ﴾ [الطلاق: ١].

إذا أردتم تطليقـهن فإياكم والتـسرع.. لا تبادروا بالطلاق فـور وقوع سببه.. لا تنساقوا وراء الانفعال.. وإذا كان ولا بد من الطلاق:

فتذكروا عقاب الله (تعالىٰ).. بتوخي مقصود الشارع هنا:

لا تطلقوهن في الحـيض.. لأن هذه الحيـضة لا تحتـسب.. ويترتب علىٰ ذلك أن يطول عليها الأمد.. فيلحقها ضرر..

ولا تطلقـوهن في طُهـرٍ جامـعتـموهن فـيـه.. لأنه عندئذ لا يؤمن حملها.. وقد يختلط النسب..

والمطلوب هو: الطلاق في طهر لا يكون فيه جماع..

ليكون ذلك الطهر: أول عدتها.. فلا تُضار.

●●●

ومن فقه الآية الكريمة أنه (سبحانه) كرَّر الفعل ﴿طَلَّقْتُم﴾ كما كرر الفعل في قوله (تعالى) ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]. فلعل في التعبير بالفعل الماضي.. ثم بتكراره ما يصدم إحساس المخاطبين بأن الطلاق قد تمّ.. وأصبح مفروغًا منه.. فلعل ذلك يُحرك في قلوبهم الأسى على عشٍّ تهدَّم فعلاً.. مما قد يحمل الغاضب على حساب ربحه وخسارته.. وما قد يترتب على ذلك من مراجعة النفس.. والفرار بها من هذا الواقع الأليم.. ثم النجاة بالأسرة كلها من هذا اليمّ الذي يوشك أن يحتوي الصغار والكبار!

●●●

أجل: فربما إذا سمع الزوج الغاضب: طلقتم.. طلقتم.. مرتين..

ربما أفاق على دقات الواقع المر.. فأعاد قراءة هذا الواقع لا بالعقلية المتزمته.. ولا بالقلب الأناني..

وصحيح أن البيت أمام رجولته المتحكمة.. كأنما هو «الشاشة» ودماغه هو مستودع «الفيلم».. والأضواء.. التي تعكس الصور.. كما شاء له الهوى..

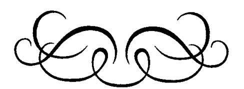
ولكن صحيح أيضًا أن تلك الزوجة التي تستعد للرحيل.. لم تكن لُعبة في يديه.. لم تكن ذلك التمثال النّحاسيّ.. تضعه على مكتبك الوسيم.. ثم تخرج.. ثم تعود.. لتلقاه في مكانه.. لم يتحرك!

وإنما لها كبد تهفو ككبدك.. ولها فؤاد مثل فؤادك.. شاعر!

والمثل الصيني يقول:

إن لم يأتوا هُمْ إليك . . فاذهب أنت إليهم . . فهم في حاجة إليك!
إذهب إليهم . . بدل أن تذرف دموع التماسيح على اللبن المسكوب .
لتكون على ما يقول الشاعر :

أتبكي علـى ليلى.. وأنت قـتلـتـهـا؟ لقد ذهبت ليلى.. فما أنت صانع؟!!



حتى لا نلوث البئر القديمة

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ...﴾ [الطلاق: ١].

قد يسيء الزوج استعمال السلطات الممنوحة له كرجل يملك إصدار القرار..

والآية الكريمة تقطع عليه الطريق.. لتكف بأسه المتوقع.. حتى لا يتصرف لحساب مصلحته.. غافلاً عن حق زوجته التي تتأهب للرحيل.. متجاهلاً ضراعة أولاده التي يسمعها بلسان الحال إن لم تكن بلسان المقال..

فماذا تقول له الآية الكريمة؟: كأنما تقول له:

هل أنت مدرك خطر ما أنت قادم عليه؟

إنه الطلاق .. إنه الفراق!

الطلاق المكرر مرتين.. تركيزًا على حسك الذاهل عن حقيقة النتائج المترتبة على كلمة الطلاق:

إنها فعلاً «كلمة»..

ولكنها في آثارها.. مدمرة:

إنه جبل الثلج الذي يوشك أن ينهار!

وهل أدركت مدى هذا الانهيار الثلجي؟

يتراكم.. ويتدافع.. لا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم..

ومع أنه جبل له نقاء الثلج.. لكنه في النهاية يُصبَغ بالدماء!!!

فلا ينجو أحد من شره:

لا أنت.. ولا هي.. ولا الأولاد.. ولا حتى الجيران والأصدقاء الذين سوف تجعلهم النكسة تفاريق.. لكل منهم حكم في القضية التي جَعَلْت الحي كله شريكًا فيها!

●●●

ولكن الكتلة الضخمة من هذا الجبل.. سوف تسقط على رأس «سيدة القصر».. التي تُغادر اليوم مملكتها.. وتنزلُ عن عرشها. وكأنما هي التي عناها الشاعر القائل:

غـريق ..مسـتجير بغـريق

لا تَدَعْني أشـتكي طول الطـريق

ثم أغـفـو فـوق وهم كـالحـريق

إن قلبي بعد أن ذاق الرحيق.. لا يفيق!!

●●●

تقول المسكينة هذا .. بينما خمر الرجولة تلعب برأسك.. في قضية هي: أكون.. أو لا أكون .. هذا هو السؤال!

وهكذا نرى دائمًا صاحب المعدة القوية يظن أنه بنجوة من الضرر.. لا يخشى من تناول أي طعام؟!!

●●●

فلتشرِّق بك الأوهام.. أو تغرّب.. المهم أن تعرف ثمرة ما أنت مُقدم عليه:

إن الآية الكريمة تقول لك:

إذا طلقتم النساء. .

فالأصل أن يكون وفاق. .

القاعدة هي: الاستقرار. . ثم الاستمرار. .

فـإذا حدث وكـان الطلاق. . فتـحَمَّل مـسئـوليـتك ليكون التسـريح بالإحسان. .

فالوفاق هو الأصل. . والطلاق هو الاستثناء. .

ومعنى ذلك أنك تهـدم أصلاً. . وتقتلع أساسًـا. . فهل أنت مستـعد لذلك؟! هل أنت على مستوى الموقف؟

انظر إلى عـيون أبنائك. . زغب الحـواصل. . املأ عينيـك من وجوه هؤلاء الأحباء. . أجّل ساعة الصفر. .فأنت قادر عليها غدًا. . أو بعد غد.

ولا تؤجل كلمة الحب التي ينتظرونها منك

فلقد يجيء الغد ـ فلا تجدهم في جوارك.

.. ثم ينهشك الندم على أن رحلوا .. .. .

من الحياة قبل أن يرتووا مـن نهـــر

حُبِّك لهم.. كما ارتويـــت أنت حتى

البَشَم.. من نبـــع حبهم الصافي لـــك

●●●

وقد تسمع في مثل هذه اللحظات لغطًا. . وادّعـاء. . وكلامًا منمقًا. . وقد يكون أحد الزوجين ألحن بحجته من غريمه. .

ومهما يكن اللسـان لبقا. . ومهما كان الذكـاء خارقًا. . فإنه لن يحل المشكلة. . بل قد يزيدها تعقيدًا. .

والمهم هو:

القدرة الانفعـالية على ضبط المجداف.. والسيـر بالزورق المترنح نحو الهدف..

وإلا.. فإذا غابت الحكمة.. كان الغرق.. كان الفراق.. أو الطلاق!

●●●

وإذا بقيتْ الإرادة على صلابتها.. فأصرت على الطلاق..

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

فطلقوهن في طهر.. لم يكن فيه جمـاع.. مستقبلات العدة من أول الطهر..

ذلك بأن بعض الأزواج قـد يريـد التـوسـعـة لنفـسـه.. فـيطلق في الحيض.. فتطول عليـها مدة الانتظار.. رهينة المحبس.. بينمـا يستطيع هو أن يتزوج في نفس الليلة.. مضيفًا إلى عذاب النفس عذاب الحبس. عذاب الجنس؟!

●●●

﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾

(اعرفـوا بدايتها ونهايتـها.. لما يترتب على ذلك من أحكام المراجـعة والنفقة والسكنى وغيرها)

ومن معاني الإحصاء: الضبط: بمعنى: معرفة العَدَد وضبطه.

(وهو مشتق من الحـصَى وهي صغار الحجارة التي كـان العرب يَعُدُدن بها الأشياء.

وللدقة في الإحصاء آثارها الإيجابية:

منها: حل زواج أخت المطلقة.. بعد انتهاء العدة.

ثم ضــمان عــدم اخــتلاط الأنســاب. . حين تتـزوج على وجـه غيـر مشروع.

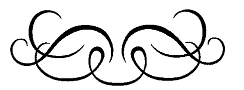
ثم هو منع للمشاحنات. . وذهاب للأموال مما يزيد الخرق اتساعًا. .

ويظل الإحصاء للزوج:

لأنه الملتزم بالحقوق. .

ولأن هموم المطلقة قد تشوش عليها. . فتنْسى. .

وفوق ذلك. . فـإن التزامـه بالإحصـاء لمصلحة الزوجـة. . حين تظل المشكلة مُـــلازمـةً له. . وفي باله. . كلـمـا أحـصى. . فلعلـه أن يتـذكـر فيـخشى. . ثم يتـراجع. . فلا يبـصق في البئـر القديمة. . فلعلـه يعود. . ليشرب منها مرة ثانية!



هذا عفو الخالق..
فأين عفو المخلوق؟

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: ١].

إذا لم تقم العشرة الماضية شفيعًا إلى جانب الزوجة.. جبرًا لخاطرها.. تسريحًا لها بإحسان..

وإذا لم يكن للحرص على مستقبل الصغار مكان في قلب والدهم.. فإن الأمر بالتقوى يجيء في أوانه ردعًا لمشاعر الانتقام.. وحتى لا يفجر الخصام. ويفحش الكلام.. وذلك ما يشير إليه قوله (عز وجل):

﴿ ..وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ..﴾.

اتقوا الله الذي يرعاكم.. برعاية عياله..

إن القضية المطروحة هنا خطيرة.. لما يترتب عليها من آثار بل آصار. من حيث النفقة والسكن.. والرجعة.. والذرية.

أجل إن الامتحان صعب.. بل على غاية ما تكون الصعوبة:

فالإحصاء: إحصاء العدة:

حق لله (تعالى)..

حق للزوج.. وللزوجة..

ثم للزوج المرتقب..

وإذن.. فالتساهل فيه مغامرة غير محسوبة النتائج..

ولاحظ أن الآية الكريمة لم تقل [فـاتقـوا. .] بالفاء. . حـتى لا يكون الأمر بالتقـوى تفريعًا على ما قـبله. . منصبًا على الإحـصاء وحده. . وإنما تقول: ﴿ . .وَاتَّقُوا اللَّهَ . .﴾:

اتقـوه في كل أمـر لا في الإحـصـاء وحده. . اتقـوه وبخـاصـة في نسـائكم. . وبالذات في نسـائكم المطلقـات. . اتقوا الله. . ولا تضـاروهن لتضيقوا عليهن.

●●●

ولا تخاطب الآية الكريمة الزوج مفردًا لتقول له: اتق الله. .

ولكنه الأمر العـام الشامل كل من يطلق. . ومن لا يطلق. . ليتـحمل كل فرد في الأمة كلها مسئوليته في رأب هذا الصدع في جدار المجتمع كله.

●●●

وإذا كانت أفضل حالات الإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء. . فإن الآية الكريمة تخاطبه بالأسلوب المنسجم مع هذه القاعدة:

فهي تذكره بالله (سبحانه): وذلك هو الجلال. .

ثم بقوله (تعالى): ﴿رَبَّكُمْ . .﴾. . وذلك هو الجمال. .

فلعل في تمثل الصفتين ما يتيح لمن أراد الطلاق أن يتريث. ليعيد تصور الزوجة من جديد.

فليس هو ذلك الحـجر الأصم. . الجامـد. . وليست هي تلـك الرمال المبعثرة بين يديه: لا يحس بها. . ولا تحس به. .

وإنما هو إنسان مسئول. . وهي كائن حي. .

وليس من المروءة بعد العشـرة الطويلة أن تصير في حسه حمـلاً ثقيلاً على كتفيه يرمي به بعيدًا. . وينتهي كل شيء!

ولأن الموقف كما قلنا مغامرة.. أو مقامرة غيرُ محسوبة العقبى..

فإن الحق (سبحانه وتعالى) يقدم عنصر التخويف: عنْصر الترهيب..

على عنصر الترغيب في قوله (تعالى):

﴿ ..وَاتَّقُوا اللَّهَ.. رَبَّكُمْ ..﴾

إن الزورق الذي كان بالأمس يتهادى فوق أثبــاج الماء.. حافلاً بمشاعر الابتهاج.. يوشك اليوم أن تتناثر «مســاميره» وتطفو ألواحه على الماء.. ثم ليكون الركاب أثرًا بعد عين..

وفي هذه اللحظة الـعصـيـبـة.. يكون من الحكمـة أن يطغى عنصـر الترهيب.. وأن يبـدأ به.. فاللحظات العصـيبة لا تتحـمل الهَدْهدة.. ولا الملاطفـة.. وإنما المقام للتـهديد الذي يكف الله به بأس الراغب نقـضَ غزل البيت. ليكون من بعد قوّة أنكاثا.

●●●

وإذا كان العقلاء يقولون:

هناك رجل.. يمضي في غضبه.

ورجلٌ.. يملكه غضبه..

فإن أفـضل من هذين.. ذلك الرجل الذي يملك غضـبه .. ثم يملك أيضًا غضب الآخرين من حوله.. مسـيطرًا عليهم في النهاية وهم غاضبون سيطرة تعيد المياة إلى مجاريهـا.. ولا تتم هذه النهاية السعيدة.. إلا بتقوى الله ربنا (سـبـحـانه وتعـالى).. والذي أرانا.. ويريـنا كل يوم.. بل كل لحظة.. من انعامه مـا يحملنا على أن نجعل من شكر نعِـمَه (عز وجل).. إحسانًا إلى الذين كانوا أحباءنا يومًا:

وكم أحسن إلينا (سبحانه).. فأسأنا إليه..

وكم غفر لنا ذنوبنا.. فتمردْنا عليه (سبحانه).

وقد يكون ذنبنا عظيمًا.. لكن عفوه (تعالى) كان أعظم..

وإذا كـان الخالق الرازق يعـامل مـخلوقاتـه هكذا.. فكيف بالمخلوق الضعيف؟!! كيف لا يعفو.. ولا يصفح.. ولا يغفر خطأ من أحبه يومًا؟

بعض الناس يحلو لهم أن يسيئوا إلى أعزائهم .. ثم لا يدركون حجم خسائرهم إلا بعد أن تذهب بعيدًا!

ومن هذه الخسائر: أطفالنا.

أطفـالنا.. الذين نحرمـهم من غـذاء الحنان تغمـرهم به أمهـاتهم.. أمهاتهم اللائي نجفف بالطلاق ينابيع الحنان في قلوبهم..

إن الطفل في حاجة إلى أمه التي يجب أن يخلوَ له وجهها..

وكيف تنفرد به بينما تعيش أزمة حياة أو موت؟

ولا يزال للكارثة بعد آخر:

فهذا الصدام.. ثم الخصـام.. تنقسم به السلطة على الطفل.. تنقسم على اثنين هما: أبوه.. وأمه.. بعدما ذهبت مشرِّقة وذهب هو مغربًا.

ولن يصلح القدر بين طباخين!!

●●●

وليت شعري: إن البدائل من الطلاق كثيره.. فلماذا نختار ما ينهدم به المعبد على وعوس من فيه؟ بما فيهم الهادم نفسه؟!

لقد كـان هناك عقلاء.. حاولوا أن يتكيـفوا مع الزوجة تكيفًـا يحقق الوئام: فإن كانت أخطاء الزوجة.. هَنات هيِّنات.. تجاهل.

وإن كانت كبيرة.. عاتب.. ثم حاسَب..

وإن كانت أكبر.. عاقب..

عاقب.. لا بالطلاق الذي يجب أن يكون آخر الدواء:

وإذا أغنت الكلمة.. فلا داعي للعصا..

وإذا أغنت العصا.. فلا داعي للسيف!!

●●●

ويبقى أن يدرك رب البيت هذه الحقيقة:

إذا دعتك قدرتك إلى التحكم والتسلط.. فتذكر قدرة الله عليك!!



الأزواج..
ومحاولة فرض المزاج

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: ١].

المبنى الفـخم الضخم الذي تعـيش فيـه الأسرة.. لا يقوم فـقط على قواعد حجرية أو حديدية..

وإنما هو في جوهره قـائم على قواعد من الأخـلاق المستطابة.. والتي بها يرسخ البناء.. بل ويطاول السماء..

إنها القـيم التي لا بد منها لاسـتمرار الحـياة.. وإن فقـد الإنسان كل مظاهر هذه الحياة.

وهو الأمر الذي تنبه له «المثنى بن حارثة» (ﷺ) حين قال:

لأن أموت عطشًا.. خير لي من أن أُخلف موعدا..

●●●

ذات يوم أفْرغ «سيد القصر» كل ما في جعبته من سهام.. صوبها كلها إلى «ربة البيت»..

ثم نزل إلى حديقته الغناء. في حركة لا إدارية..

وكان عليه أن ينظر إلى أوراق الشجرة التي تداعب رأسه:

فكل أوراقهـا أيدٍ مبســوطةٌ.. متجـهةٌ إلى السمـاء تدعو.. خاشـعة

ضارعة . .

وكل زهرة بين يديه متفتحة . . متبسمة . .

وكان عليه أن يتأمل كتـاب الكون هذا المنظور . . فلعل في مشاهده ما يكفكف به من غضبه الذي يوشك أن يكون إعصارًا . . فدمارًا . .

وكان عليه قبل ذلك . . وفوق ذلك . . أن يتقي الله (تعالى) ذاكرًا كتابه الذي سُجلت فـيه كل أقواله وأفعـاله . . وفي مقدمتـها ما صبَّـه على دماغ زوجته آنفًا . .

ذلك الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وليت شعري : في كم مجلد سجل : بل وفي كم ساعة؟

لقـــد آمن الأولون بـذلك فكف الله (تعـــالى) بهـــذا الإيمان أيـديهم وألسنتهم . .

ثم جاء العصر الذي لخَّـص فيه العلم الحديث مكتبة كـاملة في صفحة واحدة؟!

فـلا تحاول أيهـا الزوج أن تتـفلت من مسـئولـيتك . . فكل كلمـة . . منقوشة هناك وسوف تُسأل عنها . .

●●●

دارت هذه الخواطر في رأسي قُبـيل مجلس الصلح الرامي إلى «ترميم» العلاقة بين الزوجين المتخاصمين .

ولم تكن بين الطرفين «قـضيـة» تستحق الاندفـاع ليقـفا مـعًا . . ومع الصغـار . . على حافة الهـاوية . . وما أدراك مـا هية : نار حامـية . . تأكل الأخضر واليابس!!

●●●

كان هناك فقط «اختلاف مزاج» هذا يـحب طعامًا.. والآخر يعافه..

وأذواق الناس مختلفة كما هو الشأن في الكائنات حولنا:

فورَقْ التوت.. يأكله دود القز.. مع أنه ليس أمتع الأوراق طعمًا..

وهذه الأوراق ذاتها.. لو وضعتها أمام الأسد

فإنه لا ينظر إليها..

ولو أنك وضعت اللحم.. وهو طـعام الأسد.. أمام دود القـز.. ما التفت إليه..

وكلٌّ ميسر لما خلق له..

ولكنها الأنانـية التي تريد أن تفرض مـزاجها عـلى الآخرين.. مع أن شريعة المتحابين هي:

أن نترك بعض ما نحب.. إرضاء لمن نحب.

ولكن عـاصفة الحب تراجـعت.. لتنفرد الأنـانية بالموقف.. لحـساب طرف واحـد.. هذا الطرف الذي ينتقـل غضـبه بالعـدوى إلى عضـو لجنة التحكيم الذي بدا أنه منحاز إلى الزوجة وهي الطرف الضعيف!

وقلت له:

إذا ناديت بضرورة عودتهـا إلى البيت.. فهذا العود الحـميد لا يراد به متعتـها فقط.. وإنما متعتك معـها أيضًا.. لأن الزواج بين اثنين.. ولا تتم المتعة إلا بهما معًا.

يقول صاحب الظلال هنا:

(إن الحياة البـشرية تُثبت أن هناك حالات تتهـدم الأسرة وتتحطم على رغم كل الضمانات.

وهي حالات لا بد أن تُواجـه مواجـهة عمليـة: اعترافـًا بمنطق الواقع

الذي لا يُجـدي إنكاره. . حين تتعـذر الحيـاة الزوجيـة. ويصبح الإمـساك بالزوجة عبثًا لا يقوم على أساس.

والإسلام: لا يُسرع إلى رباط الزوجية المقدسة. فيفصُمه لأول وهلة. . ولأول بادرة من خلاف:

إنه يشـد على هذا الرباط بقـوة. فـلا يدعـه يفلت إلا بعـد المحـاولة واليأس.

إنه يهتف بالرجال:

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]. فيميل بهم إلى الـتريث والمصابرة. حتى في حالة الكراهية. ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة:

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

فما يدريك أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرًا،

وأن الله يدَّخر لهم هذا الخير. . فلا يجوز أن يُفلتوه) أ.هـ .

●●●

ولكن بعض الأزواج ـ والزوجات ـ أيضًا حراص على أن ينبذوه!

وأكرر: والزوجات أيضًا:

فمازلت أسمع من وراء الستار هذه الزوجة المندفعة كالإعصار. . تدافع عن وجهة نظرها كفيلسوفة تحول البيت إلى قاعة للمراء. . والدهاء:

وقد ذكرتني بواحدة من مجالس «سقراط».

فقد استأذنه أحد تلاميذه في الخروج. . فأذن له.

فلما سأل زملاءَه عن سبب خروجه قالوا:

إنه ذاهب ليتزوج يا أستاذ!

فقال سقراط:

من الضروري أن تتزوجوا:

فإن كانت الزوجة طيبة.. فسوف تجعلكم سعداء.

وإن كانت شريرة.. فستجعلكم فلاسفة!!

●●●

وقلت للاثنين معًا وأنا أغادر البيت:

مشكلتكم: أن أحدكما.. لا يحس بالآخر..

وعلى كل طرف أن يتحدث عن واجبه نحو رفيقه.. قبل أن يتحدث عن حقوقه وإلا [فما فائدة يد التضرع للعبد المحتاج: يرفعها وقت الدعاء إلى الله (تعالى).. ثم يضعها وقت البذل في إبطه؟!

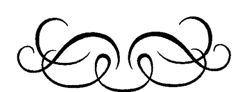
تمر عليك السنون.. وأنت لا تمر بتُربة أبيك.. فأي خير أديت في حق أبيك.. ترجوه من بنيك؟!

كل من زَرَع بَذْر الشر.. وتوقع الخير.. فكَّر عبثًا. وتخيل باطلاً.

يا من جعلت ثيابك بيضاء للشهرة.. من أجل إيهام الخلق.. وكتابُك أسود:

قصِّر اليد عند الدنيا.. وسواء أن يكون الكُمّ قصيرًا أو طويلاً.

إذا أردت ميراث أبيك فتعلَّم علمَ أبيك. لأن مال أبيك يُنفق في يوم واحد].



زاد الأمل..
نواجه به المستقبل

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ...﴾ [الطلاق: ١].

متى تبدأ المشكلات التي تلقي بظلالها على البيت الآمن؟

إنها تبدأ - كما يقول البصراء - عندما يغيب إحساس أحدهما بالآخر..

عندئذ.. يبدأ التنافر.. ثم المراء.. ثم العداء..

ولقد يحاول أحدهما أن يتحامل على نفسه.. فيتودد إلى صاحبه بالكلمة الحانية.. والتصرف الحميد.

ولكنه عطاء فارغ لا وزن له.. يودعه الإنسان في «مصفاة» يتسرب منها هذا العطاء، رويدًا رويدًا..

يتسرب كالماء من فروج الأصابع..

أجل.. تتسرب العواطف رويدًا رويدًا.. لتصبح النفس بعد حين من الدهر صحراد جرداء قاحلة!

●●●

ويترتب على ذلك: النفرة النفسية بين الطرفين..

تلك النفرة التي عبَّرت عنها الآية الكريمة:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وذلك عكس المؤمنين الذين هم:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤].

●●●

ونفترض أن «الفأس» وقعت في «الرأس».. وتم الطلاق فعلا..

فماذا على المطلق بعد أن وقع المحذور؟!

تقول الآية الكريمة:

﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .....﴾ [الطلاق: ١].

يجب أن تظل المعتدة في بيت الزوجية.. وليس من حق الزوج أن يُخرجها.. ولا من حقه أن يأذن لها بالخروج لو رغبت فيه..

أولاً: لأن ذلك حق الله (تعالى).. ولا يجوز الافتيات عليه..

وثانيًا: لمصلحة الزوج نفسه..

فالمعتدة الباقية في البيت.. ربما فكر الزوج في مراجعتها.. وعندئذ سيتم المراجعة في هدوء.. بلا وسطاء ولا شفعاء. ولا إجراءات ترهق الزوج.. أو تحرجه..

فلو أنها عادت إلى بيت أبيها في العدة.. لسوف يحدث لَغَط كثير يتسع به الخرق على الراقع..

وربما تأخذها العزة بالإثم.. فتمتنع وهي الراغبة.. أمام أهلها.. وأهل حيِّها.. لتثبت أنها لا تريد العودة متنكرة لنداء الفطرة في كيانها.

أما لو بقيت في البيت.. فهي مستعدة أن تبدأ بالكلام أو بالملام.. من أجل أولادها على الأقل.. وما دامت في مأمنٍ من أعين الرقباء وآذانهم..

فكل تنازل يهون!

وأما من ناحية الزوجة:

فإنها. . وبعد هدوء العاصفة قد تتراءى له أجمل ما تكون. . فيكون العود أحمد. . بعد أن هدأ تراب المعركة. . فرأى الزوج في صفائه. . ما لم يره في جفائه!

●●●

ثم إن المطلقة لو خرجت من البيت. . فما أكثر الطامعين فيها. . بعدما ذهب العائل. . حامي الذمار. .

لقد كان لحمها من قبل وفي كنف الزوج مُراً. وهي في حماية الأسد. . أما اليوم. . فقد عرَّضت هذا اللحم للهر الجائع. . الذي لا يريد الزواج. . وإنما يريد فقط أن يتذوق؟!

ولن يتحمس أقرباؤها لحمايتها. . فكلهم مشغول بليلاه!!

وحتى لا يساء بها الظن. . يجب أن تعتد في بيتها. .

●●●

ثم إن البقاء في بيت الزوجية يعفيها من التبذل وهي تجوس خلال الدروب تبحث عن سكن يؤويها. . وكيف يُؤويها. . بينما هي وحيدة شريدة. بلا خطٍّ دفاع يصونها؟!

●●●

ثم إن البيت بيتها كما يقول (عز وجل): ﴿**لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ**﴾ وإذن فهو مستقرها. . فلتستمسك بهذا الحق المكفول لها. .

بلا منَّة من الزوج. . وإنما هو منحة من الخالق (سبحانه). . فليس لها أن تفرط فيه. .

•••

لكن هذه السكنى مشـروطة بأن تحسن عشرتهـا لكل من في البيت. . فمـا دام الشرع كان حَفـيًّا بها. . حامـيًا لها. . فيـجب أن تكون أهلاً لهذه الحمـاية بالتزام العـفة والأدب. . أما لو بذوت على من فـي البيت بذاء. . فإنها تسقط حقها في البقاء في بيت لم تحترم قواعد الزدب فيه. .

يقول صاحب الظلال:

(إن الحكمـة في إبقـاء المطلقـة في بيت الزوج هي: إتاحـة الفـرصـة للرجعة. واستـثارة عواطف المودة. وذكريات الحياة المشـتركة. . حيث تكون الزوجة بعيدة... بحكم الطلاق. . قريبة من العين.

فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين.

•••

فأما حين ترتكس في حمأة الفاحشة ،وهي في بيته أو تؤذي أهله. أو تنشزُ عليه. . فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة. . واستجاشة المودة الدفينة.

ولا حاجة إلى استـبقائها في فترة العدة: فإن قـربها منه حينذاك يقطع الوشائج. . ولا يستحييها) أ.هـ.

•••

فالمفروض في المعتدة أنها تعيش أسوأ لحظات عمرها والمفروض لهذا. . أن تبدو في أجمل أحوالها. .

أما أن تُصرَّ على العصيان. . فذلك مما يدعم وجهة نظر المطلّق. .

والكارهين لها في البيت. . يؤكد لهم أن قرار الطلاق كان صائبًا!

وأنها تستأهل ما حدث لها.

لقد كانت الزوجة بالأمس القريب مِلك يديه. . أما اليوم. . فقد صار

بينه وبينها حاجز . .

وربما حرَّك ذلك مكامن الشوق إليها . .

وعليها أن تمهد طريق عودته بحسن الأدب . .

وإلا فلا مناص . . من الخلاص . .

●●●

أما بعد:

فمن خلال تأملي أقوال المفسرين حول المراد بالفاحشة. أحسست بالميل الشديد إلى رفض أن يكون المراد بالفاحشة: الزنا . . وإنما هي البذاء والجفاء . . شريطة أن يكون واضحًا تبجحًا!

وقلت: وهكذا يحسنون الظن بالمرأة الحرة . . وعليها أن تثبت بالأدب ـ أنها أهل لذلك!



عندما يفرض الزوج
طريقه.. وطريقته

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

إنه لشيء محزن حقًا أن يذهب الراعي في الأرض حيران.. فإذا القطيع وقد تفرق: كل شاة في طريق..

ينقطع الخيط الحريري.. فإذا حبات العقد النضيد تتناثر هنا وهناك.

والشمل الجميع يصبح أجزاء وتفاريق.. حين يتحول الخلاف ضعفًا.. والضعف محنة.. يجيء من بعدها الفراق.. الذي يدق الباب بلا إذن من الصحاب! ثم يتساءل عضو مجلس الصلح:

ما الذي حدث ؟! والجواب:

إن هناك بين الأطراف المعنية دائمًا: ما هو منشود.. وما هو موجود..

هناك الأمل.. وهناك الواقع الصارم..

وبين هذا الأمل .. وهذا الواقع ما يمكن إنقاذه..

وبين إدراك الواقع.. وإرادة التغيير دائمًا مساحة تضيق وتتسع لمبادرة الصلح..

لكننا قد نكون أسرى انفعالاتنا.. فنحاول أن نفرض إرادتنا: نفرض الطريق.. والطريقة أيضًا!

وكان على الرجولة القـادرة على إنهاء العلاقة الزوجية أن تجـعل العفو عن الرفيق شكرًا للقدرة عليه . .

بيـد أنه لم تفعل . . فـكان لا بد من هذه اللحظة القـاسيـة . . وليس أقسى من مشهد الأعزاء . . وهم يتأهبون للرحيل . .

فماذا نحن فاعلون؟

●●●

تقول الآية الكريمة :

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ... ﴾ [الطلاق : ١] .

وفي هذا ترهيب أي ترهيب . . يكف الله به بأس الراغـبين في الفراق بالطلاق :

ولاحظ أن الأحكام التي مـضت في هذه السـورة مـشار إليـهـا باسم الإشارة للبعيد : ﴿ وَتِلْكَ . . ﴾ ومعنى هذا :

أنها هناك في مكانها العالي . . ومكانتها السامية . .

هناك . . بعـيدًا . . بعـيدًا . . لا تطولـها يداك . . وليـست لعبـة في يديك . .

ثم إنهـا ﴿ حُـدُود ﴾ : موانع أسلاك شـائكة لا تمزق ثيابك وإنما تحرمك ثوابك ! . . فلا تضر نفسك بمحاولة تجاوزها . . وإلا فأنت ظالم لنفسك :

لأنك تتعدى . . لأنك متعد . . متعد حدود مَنْ؟ حدود الله القادر على إهلاكك . . فهي حدود المنتقم الجبار وليست حدودًا من صنع البشر . .

إنك بالظلم . . تعبـر حقل ألغام . . وتوشك بالاسـتبداد أن تُغـتال من تحتك ! ! فالحذر الحذر . .

والذين يسيـئون استغـلال السلطة الممنوحة لهم من الشـرع لا يظلمون الشرع . . وإنما يظلمون أنفسهم يظلمونها مرتين :

مرة في الدنيا.. بالهموم..

ومرة في الآخرة.. بالعذاب الأليم.

وكل محاولة لإهدار كرامة رفيقة الأمس مقضي عليها بالفشل..

بل إن آصارها عائدة على الظالم نفسه. الذي يصير أمره على ما يقول الشاعر:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

●●●

كل ما حدث أنه أورد نفسه موارد الهلاك.. وأوقعها مواقع الضرر عقابًا وِفاقًا على مجاوزته حده.. وتعديه رسمَه.

●●●

وليسأل العازم على الطلاق نفسه: لماذا لا أؤجل القرار الصعب.. وأنا قادر عليه غدًا؟!..

﴿ **لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا** ﴾.

وقد أحدث الله (تعالى) أمورًا في حياة من ترى من جيرانك وخلانك.. إن كل شيء يتغير في حياتنا.. إلا قانون التغير نفسه..

وإذا كانوا يقولون:

إذا أردت الحَبَّ فازرع الحقل.. وإذا أردت الحُب فازرع العدل..

فإنا نقول: فازرع الفضل.. حتى تستمر فاضلاً!

ومن الفضل أن تُرجيء خرق السفينة حماية لحياتك أولاً..

ادفع بها إلى الساحل.. فعسى أن يُبعث الحب القديم!

﴿ **لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا** ﴾.

يقول صاحب الظلال:

(إنها لمسة موحية مؤثرة:

فـمن ذا الذي يعلم غـيب الله. وقَدَره المخـبـوء. وراء أمره (تعـالىٰ) بالعدَّة؟ وأمرِه ببقاء المطلقات في بيوتهن؟

إنه يَلُوح هناك أمل. ويوصوص هناك رجاء. وقد يكون الخير كله..

وقـد تتغـير الأحـوال وتتبـدل .. إلىٰ هناءة ورضىٰ. فقـدرُ الله دائم الحركة.. دائم التغيير.. ودائم الأحداث.. والتسليمُ لأمر الله (تعالىٰ) أولىٰ والرعاية له أوفق. وتقواه فيها الخير .. يلُوح هناك).

وخالقك وخالقها (عز وجل) يقول لك:

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النسـاء: ١٩].

●●●

وهكذا يداول السياق بين الترغيب والتـرهيب.. فلعل الغيب أن يُسفر عن أمر لم يخطر لنا علىٰ بال. وهو كما يقول صاحب التحرير:

(تقليب القلوب: من بُغْض إلىٰ محبة، ومن غضب إلىٰ رضىٰ.

ومن إيثار تحمل المخالفة في الأخـلاق ـ مع المعاشرة ـ علىٰ تحمل آلام الفراق. وخاصة إذا كان بين المتفارقين أبناء.. أو من ظهورِ حمل بالمطلقة.. بعد أن لم يكن لها أولاد..).

●●●

لقد وسَّع الله زمن العدة شهوراً..

وإذن .. فهي كـافية للتشـاور والمراجعة.. يخرج من خـلالها الرأي ناضجًا.. مدروسًا..

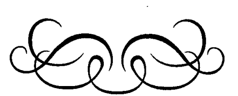
فلماذا نجعل من شكر التوسعة.. أن نكون متسرعين؟!

●●●

وإذْ يتــجه الخــطاب هنا إلى الأزواج بالذات.. فــإنه متــجــه في نفس الوقت إلى كل من يستطيع أن يقــول كلمة يجتمع بها الــشمل.. وتلتئم في ظلها الجراح..

وما أكثر الذين يجلســون اليوم على مقاعد المتفــرجين.. بينما الأحبَّاء يغالبون الموج.. بلا يدٍ تمتد إليهم..

ألا وإن سكوتهــم عندئذ.. لدليــل على أن مـــا يحــدث هــو بعض مآربهم.. وســوف يشربون غــدًا من نفس الكأس.. ثم يستــغيثــون.. فلا يغاثون!



سبب الشجار..
مختبيء خلف الستار

يقــول الله (عــز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

يقولون:

إذا غلبك عقلك.. فإنه لك.. وإذا غلبك هواك.. فهو لعدوك!

وعدوّك هو: الشيطان..

الشيطان.. الذي يوسوس للزوجين.. وبخاصة لحظة الغضب..

فإذا حجر على حجر.. ثم يتطاير الشرر..

أو كما يقول الفلاحون الطيبون:

طوبة على طوبة.. فـإذا المعركـة منصوبة!.. وكلـما التـأم جرح.. جدّت بالوسوسة جراح!

●●●

إنه الشيطان المريد إذن يريد بالوسوسة هدم العش على من فيه..

بما ينفخ في القلوب من الوساوس التي تَرين عليهـا.. فإذا هي جمرة من النار..

وقد نستـحضر من الحِكم ما يخفف من هذا السعـار.. لكننا مصرون على التزام التعسف سبيلاً إلى التنكيل برفاق الأمس الدابر..

وما أحـوجنا إلى استحضـار مثل هذه المرطِّبات.. من مـثل قول عليّ (رضي الله عنه):

(والذي وسع سمـعه الأصـوات: ما من أحـد أدخل على قلب فقـير سرورًا.. إلا خلق الله له من هذا السرور لطفًا.. فإذا نزلت به نائبة. جرى إليها لطف الله في انحداره.. حتى يدرأها عنه).

وأحق الناس بهـذا السرور أحـباء الأمس القـريب.. واللائي نرى في عيون أبنائنا صورتهن!..

ولكننا نستسلم لكيد الشيطان لأنه يُرضي غرورنا..

ولسوف يتحول الموقف من سيء إلى أسوأ..

أرأيت إلى النقطة المتمركزة وسط الصفحة البيضاء؟:

حاول أن تدخل عليها بمجموعة من الخيوط.. فماذا ترى؟

ترى أنها كلما ابتعدت عن المركز تضـاءلت المسافات بينها حتى صارت في المركز عقدة تجتمع.. بل تذوب فيها كل الخيوط..

وهكذا يريد لنا الشيطان أن يـتخذ كل واحد منا إلهـه هواه.. ليذهب كلّ في سبيل.. وعندئذ فـقد تعذر اللقاء.. بعدما صـار الأمر على ما قال أبو العتاهية:

أرى صاحب الدنيـا.. مقيمًـا بجهله

على ثقـة من صـاحب لا يوافـقـه

●●●

ألا إن إدراكنا لخطة الشـيطان في نقض بيت الـزوجيـة يعـيننا على أن نجمع الشمل المـبعثر.. وأن ندّخر الطاقـة والحيلة.. لنوجهها معًا إلى هذا العدو المشـترك: الشيطان.. والذي كـان أقرب جنوده إليه من فـرّق الشمل الجميع!

إن الشيطان كما يقول علماؤنا[1]:

[يريد أن يظفر بولاية الإنسان ـ وبخاصة الزوجين ـ أو أن يظفر به في عقبة من عقبات الطريق: بعضها أصعب من بعض:

ينزل منه الشيطان. من العقبة الشاقة.. إلى ما دونها إذا عجز أن يظفر بالإنسان فيها:

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله.. وبرسالاته..

فإن ظفر هنا.. استراح.. فإن نجا الإنسان منها طلبه على:

العقبة الثانية وهي:

عقبة البدعة: إما باعتقاد خلاف الحق. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله. فإذا أفلت الإنسان من كيده طلبه على:

العقبة الثالثة وهي:

عقبة الكبائر:

فإن ظفر به فبها.. زينها له وحسنها في عينه وسوّف به. وفتح له باب الرجاء..

فإن أفلت العبد من قبضته.. طلبه على **العقبة الرابعة وهي:**

الصغائر:

الصغائر.. التي يهوّن عليه أمرها .. فإن رفضه العبد.. طلبه على:

العقبة الخامسة وهي:

عقبة المباحات التي يغريه بالإكثار منها ليكون أداؤها على حساب الطاعات المهمة..

---

(١) انظر مدارج السالكين ج (١/ ٢٢٢).

فإن أفلت منه العبد بتوفيق الله (عز وجل) . . طلبه في **العقبة السادسة وهي**:

عقبة الأعمال المرجوحة . . المفضولة . . والتي يزينها الشيطان للعبد . . لينصرف بها عن الطاعات الراجحة الفاضلة . . حتى يخف ميزان حسناته . .

●●●

وعلى الأزواج بالذات أن يعلموا:

أن المعركة بيننا وبين الشيطان شرسة طويلة الزمد:

وذلك قوله (تعالى):

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٧٩ - ٨٣].

ذلك بأن الشيطان الرجيم يقعد لنا على الطريق مُقسمًا على أمرين:

إغوائنا . .

وإغوائنا أجمعين. إلا من عصم الله . .

يقعد لنا في معركة . . على كل الجبهات.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ... ﴾ [الأعراف: ١٧].

ويرخي القدر الأعلى للشيطان من حبائل الأماني . . ثم يعلن:

أن كيده إلى زوال.

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

عندما يتزوج الفيلسوف فيلسوفة!

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

●●●

إذا أردنا حل مشكلات الأسـرة.. فلن يكون ذلك في قاعـات الحوار والفلسفة! وإنما هي التـجربة في صحبة إيمان عـميق بالله (تعالى).. والذي نتحمل به مسئولية الإحسـان إلى عياله.. وبخاصة تلك الزوجة التي تتأهب اليوم للرحيل!

●●●

كنت في مجلس الصلح بـين زوجين طال على خلافهمـا الأمد: قلت للزوج المغـرور: إمسـك عليك زوجك واتق اللـه. وبدأ الزوج المعـتـد برجولته.. بدأ يفلسف القضية التي أراد أن «يكحلها» فأصابها بالعمى!

قال.. كأنما ينقل من كتاب مفتوح:

(إذا كانت للأشياء قيمـة.. فقيمتها بقدر حاجتنا إليهـا. وليس بقيمتها المجردة.

فالرشفة الأولى من كوب الماء.. ترتفع قيمتها إلى الحد الأقصى عند من هدّه الظمأ والجفاف.

والرشفة الثانية.. ومن نفس الكوب.. تنخفض منفعتها بقدر ما روت الأولى من ظمئه.

وتنخفض قيمة الثالثة عن الثانية.. بنفس القدر.. إلى أن يرتوي المرء تماماً.. وعندئذ يفقد الماء كل منفعته.. بالنسبة إليه.

ثم تستوي قيمة ما لديه مع بقية الأشياء. ولقد تصبح الرشفة الزائدة بعد ذلك عبئا عليه. بعد أن كانت منذ قليل.. أملاً له!

مع أن الماء هو الماء في كل الرشفات).

●●●

وقلت للفيلسوف الذاهل عما حوله.. ومن حوله من أطفاله زغب الحواصل. قلت له:

أمسك عليك زوجك واتق الله!

اتق.. وتخل عن هذه النظرة المادية للإنسان.. وبخاصة هذه التي أسعدتك بذرية هم في أشد الحاجة إليك:

هؤلاء الضعاف:

الذين إن خرجوا معها.. جاعوا..

وإن أبقت عليهم معك.. ضاعوا..

●●●

واسأل نفسك.. هل هذا هو الزواج.. وتلك مقاصده.. التي تلخصها في ضمّة.. ثم شمّة.. ثم ينحل من بعدها الميثاق الغليظ؟!

إن الأمر في الإسلام غير هذا.. حين يتراجع الحب القلبي العاطفي..

لـيـفسح الطريق أمـام الحب العـقلي. . والذي نخص به من جـاءتنا بالولد. الذي هو المقصـود الأصلي من الزواج. . والذي يجعل من الرشفة المـتأخرة معه أحلى من الرشفة الأولى. . وأغلى؟!!

وذلك. . لمن كان له قلب إنسان. . لا عقل فيلسوف!!

●●●

وإذا كنت تتحدث عن السنة التي أباحت لك الطلاق. . حين لا يكون وفاق. . فإنهـا السنة السيئة التي تحـدرت إليك من الذواقين الذين لم يجدوا للعلاقة الزوجية طعماً. . بعد أن فقدوا حاسة التذوق.

وبينما الزواج عندنا: سكن. . ومـودة. . ورحمة. . فإن الزواج كـما يقول فلاسفتهم

(إن الزواج في حـالتـه الراهنـة: هو أسـوأ أنواع الكـذب. والشكل الأسمى: للأنانية)

●●●

و (كل شيء يبعث على السأم لدى الأزواج)

و (أساس الزواج الصحيح: سوء فهم متبادل)؟!

و (يقترن الرجل بالمرأة ليهرب من الوحـدة. . وبعد ذلك مباشرةً ينضم إلى أحد الأندية ليهرب من المرأة).

وهكذا قالوا.. وما يزالون يقولون..

يحكون تجاريبهم الخاصة. . المشتقة من بيئة غير بيئتنا. .

وفي ظل عقيدة غير عقيدتنا. .

إن الحب هناك. . هو الأسـاس. . والحب رغوة عـائمة سـوف تنطفئ يومًا. .

أما في الإسلام.. فإن الأســاس مكين وهو: المودة والرحمة.. والتي تظل تربط على قلبي الزوجين حتى في أسوأ الظروف..

وحتى إذا غاب الحب.. فإن المروءة.. فـإن الأربحية.. فإن الوفاء.. قائم مقامـه.. يمد السفين المتأرجحة بالوقود.. حتى يأخـذ طريقه في البحر سربا!

●●●

وعدت على بدء أقول للزوج الفيلسوف:

أمسك عليك زوجك. واتق الله..

لقد «ظفرت» بها من قبل جوهره.. ســبقْتَ الراغبين فيها.. وظفرت أنت بها.. واليوم أمسك بها.. إنها توشك أن تخرج من العش.. بلا تحية وبلا إيل.. فأمـسك بها قبل أن تحاول إعـادتها من بعد.. فـلا تستطيع.. لأنها صارت عندئذ في حمى غيرك؟!

●●●

وتفَصَّد جبين الفتى عرقًا.. وكأنما قرر أن يمسك بها!

وعدت سعـيدًا إليها.. لتكون على مـستوى الموقف.. على الأقل.. من أجل الصغار. ومن قبل أن يصير أمرهما فرطا..

●●●

وصـحيح أن مـعـادن بعض الناس.. كالماس: تـشع في الليل المظلم ضياء..

ولكن هذا الضياء أحـيانًا يغشي العيون.. فلا ترى من المسـتقبل أبعد من أنفها!

وليت شعري: أحيانًا تتيح لنا الأيام ما لا نريد.. ثم تمنعنا مما نريد!!

ولقد منعتنا الأيام هنا ما نريده من هذه الزوجة الفيلسوفة

والتي بدأت تشقق.. وتدقق.. فتردم بالتشقيق والتدقيق طريق عودتها إلى البيت الذي يفتح أبوابه لاستقبالها!.. ثم تتراجع آمال المصلحين.. في الوئام والسلام.. وهكذا .. يفرض الشيطان خطته.. بعدما أفضى بعضهم إلى بعض وأخذن منهم ميثاقًا غليظا.

•••

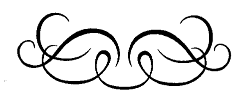
ولاحَظَ زميلي في المجلس غضبي لما حدث.. ثم تحامُلي على من أغلقت الباب وكنا من أعتابه غير بعيد.. وقال صاحبي:

أرأيت إلى «الزوجة» عندما ترتدي مسوح الفلاسفة؟!

ثم قال: زمان.. كانت المرأة الريفية تخرج متمنطقة «بالملَس»: عباءة فضفاضة لا تشف.. ولا ترسم.. وهي داخلها لا تنتمي لمذهب.. وإنما هي الحرة التي.. لا ترى رجلا.. ولا يراها رجل.. وكانت بساطتها سرّ جمالها.. ثم صارت اليوم فيلسوفة «مسترجلة»!!

وقلت له: هون عليك وجفف دمعك الغالي: فما أكثر.. المؤمنات.. القانتات.. التائبات.. العابدات.. السائحات..

أما هذه الفيلسوفة فإنها «واقعة حال»: تُحفظ.. ولا يقاس عليها!!



قبل أن تغرق السفينة

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ.... ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وصلت العلاقة بين الزوجين.. لا.. بل بين الأسرتين.. وصلت إلى طريق مسدود..وبدأت تترنح على حافة الهاوية. هذه العلاقة التي كانت من قبل «هوى» تصبح اليوم هاوية.. وما أدراك ما هية: نار حامية..

حامية من شدة الاحتكاك بين أحبّاء الأمس.. الذين نزغهم من الشيطان نزغ.. فقرروا من حيث لا يشعرون أن يسروا العدو ويسيئوا إلى الصديق؟!

وتعجّب من أناس يخرقون السفينة بأيديهم.. بينما هي من الشاطئ بالمكان القريب..

أجل.. تعجب من الإنسان الذي بيده أن يكون كاملاً.. لكنه في لحظة طائشة يهدم كماله.. وبنفسه؟! حين يجعل من لسانه شراعًا يتجه به إلى حيث يبتلعه اليم بأمواجه الغاضبة.

●●●

هؤلاء الغافلون.. الذين أتاح لهم ربهم «العدة» وعاء زمنيًا كافيًا لمراجعة النفس.. والموازنة بين الربح والخسارة..

ولكنهم.. وها هي ذي الفرصة توشك أن تفلت من بين أيديهم وليس فيهم رجل رشيد.. يمسك بالزمام.. قبل أن تذهب الفرصة المواتية.. ثم لا تعود..

ها هو ذا الكتاب يوشك أن يبلغ أجله. . ها هـي ذي «العدة» تشارف نهايتها وقد بلغن أجلهن). . فأين العقل. .

وأين التـشاور. . على الأقل من جـانب الأقرباء. . إذا كـان الزوجان يعيشان الآن لحظات لا تسمح بالتفكير السديد؟

إن كل فرص التفاهم تتسـرب من بين أيدينا. . ليذهب الأحباء. . كل في طريق، مخلفـين من ورائهم ذرية ضعافًـا. . خافوا عليـهم. . ادِّعاء. . وإلا. . فلماذا يديرون معـركتهما فوق ذريتهـما الذين يخلفونهم من ورائهم جياعًا. . تائهين حيارى؟!!

●●●

وأحـيـانًا ترى الزوج ـ وهو صـاحب القـضيـة ـ تراه: مـدهوشًـا. . مـبهـوتًا. . حائرًا. . خـائر العـزيمة. . وسهـام أبيه. . وأبيـها. . وأمـه. . وأمها. . تمر من فـوق رأسه في معركـة يصفون بها حسـابات قديمة. . على حساب حياته هو!

إنه قد يريد زوجه. . وزوجته بنفس القوة تريده.

ولكن اختـلاط الأوراق غبش الجو من حوله. . فلم يسـتطع أن يسأل نفسه: ألا يُسعد ما يحدث أعداءَنا. . فلماذا نسعدهم. .

ونغم أنفسنا. . ؟!

وقد تأخذه العزة بالإثم ـ حياء من أمه وأبيه ـ فيقول:

عليَّ.. وعلى أعدائي..

ولكني أقول له: بل هي عليك أنت وحدك. . أما أعداؤك فهي لهم. . لأنك تحقق بالطلاق أعز أمانيهم:

ومـــا يـبلغ الأعــداء من جــــاهل ... مـــا يبـلغ الجــاهل من نـفـســـه!

وقد ينتصر الآباء والأمهات. . لكنه النصر المخصوم من حساب العائلة كلها. .

ثم تكون النهاية: وحيل بينهم وبين ما يشتهون.

•••

وفي مـعركـة من هذا الطراز. . قـررت أن أخـوض التجـربة إغـاظة للشيطان الذي أشعل هذه الفتنة التي كانت بالأمس نائمة. .

وقلت: بدل أن تلعن الظلام. . أضئ شمعة. . إيمانًا مني بأن «الود» لا يموت أبدًا. . مهمـا نازعته الأعاصيـر، والأحقاد. . ومهمـا صوَّب إليه من سهام الكارهين. . والمنتفعين. . والنمامين. . الصائدين في الماء العكر.

•••

وقلت للزوج:

(أمسك عليك زوجك. . واتق الله).

اتق الله. . وامسكها. . بمعروف. .

وليكن للقضية تكييف آخر:

فإذا كنت بالـطلاق. . تسعد أعـداءك الذين يرون غزلك من بعـد قوة أنكاثًا. . فإنك تسعد أعداء الإسلام الذين يتهمون الإسلام بأنه دين هدام. . يهدم البيت على ما فيه. . وبكلمة واحدة. .

بل إن الرجعة قـد تكون بمجرد «الإمساك» عليهـا ولا داعي للمقال. . ويكفي لسان الحال!

ألا يســرك يا رجل أن تكون ســلاحًـا من أسلحـة القـدر يسكت الله

(تعالىٰ) به نيران العدو . .

ثم ها هي ذي توجيهات الإسلام: من بين يديك . . ومن خلفك تأمرك . . وتأمرها بالصبر الجميل . . الذي تستعلىٰ به علىٰ انفعال الكراهية . . فلا يجمل بالمؤمن أن يفرك مؤمنة؟!

●●●

ثم تركت الزوج حائرًا . . حيرة قد ينحل بها عزمه علىٰ الطلاق . .
وكان لا بد حتىٰ تتم الرجعة ـ كان لا بد بلغة الجيش من عملية:

إنزال خلف قوات الخصوم:

فقد استدعيت والدة الزوج . . وقلت لها بمحضر من الشهود:

مشهود لك «بالانتصار» في معارك الكلام . .

ولكنني أريد أن تهزمي نفسك . . وباختيارك هذه المرة . .

فاذهبي إلىٰ أم الزوجة . . وفاتحيها في الصلح . . ثم تحملي الغارة الشعواء . . صابرة محتسبة . .

وتمت «المؤامرة» الشرعية بنجاح . . عندما أفرغت «الحماة» كل ما في جعبتها من سهام . .

فلما انعقد مجلس الصلح كان الحق في جانب أم الزوج . . بما شتمت أمُّ الزوجة واعتدت عليها.

وكفىٰ الله المؤمنين القتال..

●●●

ولا أدعي لنفسي الفضل هنا . . وإنما أنا فقط دال علىٰ الخير . .

إن المعركة بين الأطراف المعنية قد تسوقهم جميعًا إلىٰ ساحات القضاء . .

ولكن تبـقى بذرة الود. . تحت الرمـاد. . نارًا تنتظر من يكشف عنهـا لتشع من جديد دفئًا ووئامًا. .

إن البذرة غابت زمنًا. . ولكنها لم تمت. .

ونحن مطالبـون أن نزيل عنها التـراب. . حتى تسـتوي عـلى سوقـها شجرة تعجب الزراع. . نغيظ بها الشامتين. .



وآخر الدواء: الكي

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:
﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ.... ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أيها الزوج المفارق:

ها هي ذي ساعـات الحياة تمضي.. تدق.. فـاضبط قلبك عليـها.. حتى لا تفوتك اللحظة المناسبة.. فيصبح الممكن اليوم مستحيلاً غدًا..

أمامك فرصـة للتفكير والمراجعة.. والآية تقول لك.. بل للمـجتمع كله:

إذا بلغن آخر العدة.. مشارفات لها.. فأنتم بالخيار:

إن شئتم .. أمسكتم..

وإن شئتم .. فارقتم..

على أن يتم الأمر في الحالين «بمعروف»

لم تقل الآية الكريمة «بالمعروف» معرَّفًا بالألف واللام.. لم تقل ذلك حتى لا تكلفك شططا..

وإنما تقول لك: بـأي معروف.. بكل مـا يطلق عليه اسم «مـعروف» كالاعـتذار بالكلـمة الطيـبة.. المجاملـة.. أو العِدة الجمـيلة.. بعـد العدَّة الثقيلة!

أمسكها.. بمعروف.. لا تتردد.. فالظروف مواتية:

إن الزهرة في الربيع.. لها رائحة.. ومشهد..

ولكنها في الخريف شيء آخر.. أو كما قال الأدباء:

وهكذا كل عــمل تَرَدَّد فـيه الإنســان.. ثم حــاول إنجـازه بعد فـوات الأوان..

والأوان لم يفت بعد:

وبالجهد الموصول يمكن إزكاء النار من الصخر!

●●●

لكن الأمر بالإمـساك متجـه إلى المجتمع كله.. فليســهم كل من كان قادرًا على أن يكون شيئًا..

وإذا كان الـزوج هو الممسك والمفـارق.. فإن الجـميع مـسؤلون مـعه مسئولية مباشرة..

ولاحظ قيمة المرأة في منطق الإسلام.. حين نتصور امرأة وحيدة..

في خيمة عبر الصحراء.. ومع ذلك فالأمة كلها مسئولة عن حاضرها ومستقبلها..

وإذا كان من يقتل نفسًا واحدة.. فكأنما قتل الناس جميعًا.. فإننا وبنفس القوة نقول:

ومن طلقهـا فكأنما طلق النساء جمـيعًا .. بما أحدث في المجـتمع من خلخلة مال بها الصف.. واختل بها الميزان..

إننا لكي نربـط على قلب الأسـرة الآيلة للسـقـوط.. لا بد من إرادة قوية.. يتسلح بها زوج عظيم.. يدفع بالأسرة إلى الأمام.. ناهضًا بها من كبوتها.. لتبقى ثابتة راسخة.. قبل أن تجرف الريح بمنجزاتها ومكاسبها..

وعندئذ يكون قد ضخ في شرايينها دماء جديدة..

●●●

وفي مثل هذه اللحظات الحرجة. . يكون من الحكمة أن نغوص عبر جذور المشكلة لنكشف أسباب المحنة الدامية. . بدل أن نتجمد أمام الرغوة العائمة. . لأنها دهان على وبر. .

وما زلت أذكر ذلك الزوج الحكيم. . والذي لم يضع من قدمه الطريق. .

فقبض على المجداف بقوة. . ثم أنشد في وجه العواصف الهوج:

يا فــرحـــتي الأولـى .. في رحلة الـوقت

يا كل تـاريخي.. مـــجـــدي الذي صـنعت

يـا أم أبنـائي.. يـا ريحـــــانة البـــيـت

لم أنـس عــمـــري.. مـــا قـــد تحـمَّلت

●●●

إنه لا يكفي أن نكون أحياء. . بل لا بد فوق ذلك أن نكون أحبّاء. .

وإذ نختلف على أشياء. . فقد بقيت في الحياة أشياء جميلة. .

يمكن أن نجْتمع عليها. . بعيدًا عن الهُياج الذي يسد منافذ المعرفة فينا. .

فإذا الأمور وقد ازدادت تعقيدًا. .

●●●

ولنفترض أن الرياح قد رمتنا بما لا يشتهي السفن. . فليكن الفراق بمعروف أيضًا:

ففي الإمساك. . لا بأس أن نعتذر عما سلف. .

وفي الفراق: عدم التحايل عليها.. ولعله تحذير من مثل ما كان يُفعل في الجاهلية!

حين كان الرجل يطلّق امرأته.. فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أيامًا.. ثم طلقها.. وهكذا..

يفعل ذلك ثلاثًا ليطيل عليها من العدة.. فلا تتزوج عدة أشهر.. إضرارًا بها.. ثم هو تحذير من حرمانها من ولدها.. أو تجاهل عواطفها لو كانت تحبه بينما هو زاهد فيها.. والمطلوب هو: إيفاء الحق. واتقاء الضرر.

●●●

ولاحظ أن الآية الكريمة تقدم.. «الإمساك» على الطلاق..

والذي تسميه هنا فراقًا:

أولاً: لأن الإمساك مما يرضي الله (تعالى).

ثم هو ثانيًا: أوفق بمقاصد الشريعة التي تدور على محور التسامح والعفو..

على أن التعبير بالفراق عن الطلاق.. لمسة إنسانية تنبه الزوج إلى خطورة ما هو مُقدم عليه.. إنه الفراق.. وبلا تلاق.. فهل أنت مُعدٌّ أعصابك من الآن لتحمل هذا المصير الرعيب؟!

ألا وإن الفشل في الحياة الزوجية ليس من الحكمة أن نجعله نهاية الطريق:

لأن في استطاعة المطلق أن يسعَدَ مع أخرى.. وهي كذلك... مع آخر.

ومن دروس الواقع:

قد يفترق الزوجان يومًا.. ثم يُغني الله (تعالى) كلا من سعته..

بل ويتزوج حفيده من حفيدها.. ثم يعيشان سعيدين.. بلا حساسية

من الماضي البعيـد. . لقد كان الزوج. . وكانت الزوجـة على غاية ما يكون الخُلُق الرضيّ. .

ولكن غاب الإنسجام. . فكان الخصام. . ثم الفصام!

إن كلا منهما في ذاته صالح للعيش. . ولكن مع آخر. .

●●●

وفي سورة العنكبوت. . ما تتهدى به البيوت. . يقول (عز وجل):

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُون اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لقد عبَّر (سبحانه) بالبيت. . لا بالخيط. . لماذا؟

يقول العلماء:

إن خيـط العنكبوت أقـوى من مثـيله من الصلب أو الحديد. . أربـعة أضعاف.

لكن البيت المبني منه أوهن لأنه:

مصيدة:

العنكبوت الأنثى: تأكل زوجها بعد التلقيح

ثم تأكل أولادها. . عند الفقس.

وأخيرًا: يأكل الأولاد بعضهم بعضًا!

●●●

فالضعف إذن ليس في أفراد البيت. . ولكن في نظامه. .

في علاقاته الأسرية. .

إن نسق هذا البيت وتركيبه مهلهل. .

وكذلك الأمر في حياتنا:

وأحيانًا تكون الزوجة.. كما يكون الزوج كل منهما في ذاته مثاليا.

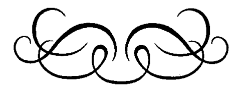
ولكنهما في البيت.. فاشلان اجتماعيًا..

وإذن فالطلاق آخر الكي..

عندما تصل العلاقة إلى الحد الذي يتآكل فيه البيت من داخله..

أجل:

يكون الطلاق هو الحل.. وهو الحلال إذن وإن كان أبغض الحلال.



رقصة الطائر الذبيح

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:
﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ..﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

كـان قدر الفـتى اليوم أن يعـيش في زمـان ضلت الآراء فيـه.. وقل الأوفيـاء.. وكان عليه ـ بناء على هذا ـ أن يـبحث لنفسـه عن واحة هادئة هانئة..

هي: الأسرة.. مع صاحبة يحبها وتحبه..

وقد يرى في طريقه وجوهًا كثيرة تعبر آفاق حياته.. ولكنه يتوقف عند وجه واحد فقطمن دون هذه الوجوه جميعًا..

وتداعبه أمانيّ حسان.. وأحلام جميلة..

ثم يجتمع الشمل.. وتبدأ رحلة المعاناة.. والكدح الطويل..

ولكنه الكدح الإيجابي.. الذي يذكرنا بالعصفور في رحلته اليومية:

إنه يعود مع الغروب إلى عشه.. إلى مسكنه أو مأمنه..

ثم يغـفو فوق الأغـصان. ثم يطيـر في الصبـاح.. مخلفًـا من ورائه مخلفات..

وهذه المخلفـات.. أو هذا العـذاب. إنما هو في بعض جـوانبه مـواد عضوية: تقوي قشرة الشجرة..

وهكذا المتاعب في حياتنا:

إنها تعطي الشجرة.. أعني: تعطينا أفضل مـا نحتاج إليه حين يخرج الزوجان معًا من بوتقة المعاناة أصبر على النار!!

وإذا كان بعض الناس يتعلم من أخطاء الآخرين.. فإن الراشدين منهم من يتعلمون من أخطائهم هم: من أخطارهم..

●●●

وهكذا - بالكفاح والسهر الدائم - يصير العصفور.. نسرًا

.. وفجأة.. وعلى غير ميعاد تتراكم الأحداث.. وتشتد ضغوطها على الزوج.. وإذا النِّسر الطليق المحلّق.. تتحطم مخالبه.. وينكسر منقاره.. ويساقط ريشه!!

وإذا الأحباب: كل في طريق:

يتشاجر الفرقاء.. فيخسرون.. بينما الأعداء هم الذين يكسبون.. وكان لا بد من عملية جراحية تفرض نفسها فرضًا.. حين تتزاحم السلبيات.. وتعلن أنه: لا علاج إلا الفراق!!

بعدما صارت الأمانيّ الجميلة مستحيلة!

●●●

ومن تقدير الإسلام للمرأة ألا يتم هذا الفراق بعيدًا عن رقابة المجتمع.. حتى لا ينفرد الأسد بالضحية.. وإذن.. فلا بد من الإشهاد عليه - ليكون في نقطة الضوء:

فالمجتمع ينتخب من أعضائه: شاهدين.. عدلين..

بل إنهما في العدل أصلان: من ذوي العدل.. من أصحابه وطُلابه..

وحين يُدليان بشهادتهما يكونان تحت رقابة المجتمع.. حتى تأتي الشهادة على وجهها: يقيما إقامة [كما يفعل من يريد إقامة شيء.. ليصير واقفًا بنفسه.. غير محتاج إلى ما يدعمه] منطلقًا من قاعدة الإخلاص.. حتى تكون لله (تعالى) خالصة.. لا لقريب.. لقرابته.. ولا من أجل

صديق.. لمحبته. وإنما يشهد شهادة مستقيمة.. لا عوج فيها..

●●●

ومن ثمرات هذا الإشهاد:

أولا: أنه حسم لمادة النزاع والتجاحد بينهما.

ثانيا: ضبط زمن العدة فرارًا من التدليس فيها.. وما قد يترتب عليه من نكاح رجل آخر وهي ما زالت في عدتها.

ثالثًا: وحتى لا يدَّعي أحدهما ثبوت الزوجية.. زورًا. ليثبت حقه في الميراث ظلمًا.

ورابعًا: صيانة لسمعة البيت.. حتى لا يخوض الناس الذين قد يعلمون بالطلاق ولا يعلمون الرجعة.

●●●

وإذا كنا نشم في السياق رائحة الترهيب من الترخّص في الشهادة.. فقد كان ذلك ردعًا لمن كان قادرًا عليها.. ثم آثر السلامة.. لأن القيام بالشهادة لله أمر مكلِّف:

ففيه مشقة على الشهود.. لأن الشاهد قد يترك مصالحه الحيوية.. إلى جانب ما في لقاء القاضي من إعداد ربما لا يكون مستعدًا له..

من أجل ذلك.. يرهِّب الحق (تعالى) من التقصير فيها..

●●●

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]:

إن في أحكام الله (تعالى) من الرقائق والدقائق ما تخشع له القلوب.. وفي طليعتها أحكام الطلاق والرجعة وغيرهما مما ذكرته السورة الكريمة.. وكما يقول البقاعي:

(أي الذي ذكـرت لكم أيتهـا الأمة. من هذه الأمـور البديعـة النظام. العالية المرام.. وأوْلاها بذلك هنا:

الإشهاد.. وإقامة الشهادة..

●●●

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]:

وهذه المبادئ الرفـيعـة.. من شأنها أن ترقق القلـوب.. وأن تلين بها الشكائم..

وهي منسجمة مع الفِطَر السوية..

ومن ثم لا ينتفع بها إلا من كان مؤهلاً لها:

بالإيمان بالله (عز وجل)..

والإيمان باليوم الآخر..

ومن تسلح بهذين الأصلين فهو المرشح للانتفاع بما ذكر من أحكام.

أما من لم ينسجم معها.. ثم تحايل عليها.. أو رفضها.. فإن العيب فيه هو.. وليس في أحكامها.. وأمره على ما قيل:

نعـيب زمـاننا والـعـيب فـينا..

..ومـا لزمـاننـا عـيب.. سـوانا

●●●

إن مجال الطلاق والفراق على غاية ما تكون الحساسية..

والطرف الضعيف فيه هو المرأة..

من أجل ذلك.. يتكفل الإسلام الحنيف بالوقوف إلـى جانبها.. وفي ساعة العسرة..

ذلك بأن الرجل يسـتطيع أن يتأهل في نفس اليـوم. . بينما تبـقى هي حاملة هم الحال. . والاستقبال. . فلا تعتدل كفتا الميزان. .

وما أكثر مـا نسمع. . وما نرى. . في مثل هذه اللحظات العـصيبة. . من دعاوي. . تُحمِّل المسكينة ما لا تطيق. .

وبينمـا يتأهب رفـيق الأمس لبناء عش جـديد. . على أنقـاض عشـه القديم. . يصير أمرها على ما يقول الشاعر:

حَـبْل الفجـيـعة مـلتف على عنقي مَنْ ذا يُعاتب مـشنوقًا.. إذا اضطربا؟!



اتقوا هجمة الأسد الجريح

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

من قصة «عوف بن مالك الأشجعي» أن العدو أسر ابنًا له.. فأتى النبي (ﷺ) يبثه شكواه.. فلعله أن يجد عنده مخرجًا لابنه من ضيق الأسر. ولنفسه من عَضّة الفقر.

فقال له (ﷺ):

«**اتق الله. واصبر .. وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**».

ففعل عوف ما أمره به الرسول (ﷺ) .. وجلس في بيته ينتظر الفرج.

وحدثت المعجزة.. والتي لم تخطر له على بال:

لقد فوجئ بابنه لدى الباب حاملاً إلى أبيه بشارتين:

الأولى: عودته سالمًا.. بعدما احتال حتى غفل عنه العدو..

الثانية: أنه استاق أمامه مائة من الإبل.. غفل عنها العدو.. فجاء بها غنيمة باردة..

وهكذا كانت التقوى.. بابًا واسعًا إلى الأمن النفسيّ.. والأمن الغذائي معًا[1].

---

(١) في رواية أن «عوف.، قال للرسول (ﷺ): أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني؟ قال (ﷺ): «**نعم**».

ولقد صدق الله (تعالىٰ) وعـده. . ويبقىٰ أن يستحضر العـبد في وعيه هذا المعنىٰ:

أن يدعـو الله (تعالىٰ). . كـما أمره. . وهـو (سبحـانه). . محـقق له أمله. . كما وعد.

ويتجـه السهم إلىٰ الزوجين المختـلفين من بين البشر جـميعًـا. . حتىٰ يجعلا من التقوىٰ ركوبًا إلىٰ فرج قريب. .

إن لحظة الفراق معترك الموت:

الموت الأدبي الذي يخـشاه كـلا الطرفين. . فيكيـد كل واحد لأخـيه كيدًا. . في محاولات مكرورة للدفاع عن النفس.

ولو علىٰ أنقاض رفيق الأمس. .

وسـوف تزل أقدام. . ثم يتـفاقم الخـصـام. . وتكثر الدعـاوي بالحق وبالباطل. . ومن أجل ذلك يجيء الأمر بالتقوىٰ مكررًا وفي أوانه رَدْعًا لكل طرف حتىٰ لا يتقول علىٰ رفيقه الأقاويل. .

وإذ يقـول بعض البـاحثين: إن العلمـاء أشـد تغايـرًا من التيـوس في حظائرها. . فإنا نقول: إن أولىٰ الناس بهذا الوصف: زوجان يفترقان:

يفـتح كل واحد علىٰ الآخـر النار. . فـيشن الغـارة الكاسحـة. . في محاولة لتشويه السمعة. . حتىٰ لا يرغب فيها بعد ذلك أحد. .

وتشويه سمعته.. حتىٰ لا ترضىٰ به واحدة من بعدها!

●●●

ولقد يظل تبادل التهم زمنًا أطول. . طمعًا في الوصول إلىٰ هذا المقصد الأناني. .

وتضيق الأمـور. . كما تضـيق الصدور. . فإذا أنت تسـمع من التهم

عجبًا:

ولقد سمعت التي تقول عن مطلقها:

لم أر معه في حياتي يومًا أبكي عليه!

وليس كمثله رجل يعيش لنفسه.. إلى الحد الذي لا يعرف في أي مستوى من التعليم ولده؟!

●●●

ولن يعدم الزوج الجريح عيوبًا يرميها بها إرادة قطع الطريق عليها.. حتى لا تتزوج زواجًا يكون شاهدًا على أن دعواه بشأنها.. كانت كاذبة!

●●●

ومن أجل ذلك كله.. كان لا بد من الأمر بالتقوى.. ردعًا لهذه الخواطر.. وحسمًا لتلك المهاترات:

فإذا كان هناك تخوف من المستقبل.. فينبغي إحالته إلى الله (عز وجل).. والمَعْنى:

(ومن يتق الله. فطلَّق للسنة. ولم يضار المعتدة. ولم يخرجها من مسكنها..

ثم احتاط فأشهد.. يجعلْ الله له مخرجًا مما في شأن الأزواج من الغموم.. والوقوع في المضايق.. ويُفرجْ عنه.. ويُعطه الخلاص).

●●●

وقد يوسوس إليه الشيطان ألا يراجعها بسبب ضيق يده.. ومن هنا تسوق إليه الآية الكريمة ما به يطمئن قلبه.. وأن الرزق بيد الله (تعالى) وحده.. ييسره للإنسان بلا أسباب.. وإذن فليس في المراجعة مسئولية مادية مرهقة.. والأمر متروك لواهب الأرزاق (سبحانه وتعالى) القائل:

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

يقول صاحب الظلال:

(إن مجال الكيد في هذه العلاقة واسع.. ومسالكه كثيره: وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد.. إلى الكيد.

وهنا إيحاء بترك هذه المحاولة. والتوكل على الله. وهو كاف لمن يتوكلُ عليه: فالله بالغ أمره:

فما قدّر.. وقع. وما شاء. كان.

والمقصود هو: إنشاء التصور الإيماني في القلب. بالنسبة لإرادة الله وقدره) أ. هـ.

●●●

إن الله (عز وجل): لا يفوته مراد. ولا يعجزه مطلوب..

وقد جعل (سبحانه) لكل شيء قدرا:

فإذا عرف العبد ذلك.. كان التوكل. وكان التسليم:

ذلك (بأن لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه قدَّر الله (تعالى) ذلك كله لا يقدِّم ولا يؤخر..

وقد تختفي عن أنظارنا الأسباب المادية.. لكن الحقيقة التي تفرض

وكم لله من لطف خفيّ

يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم أمر تساء به صباحًا

فتأتيك المسرة بالعشيِّ!

نفسها هي: أن مسبب الأسباب موجود.. وهو حي لا يموت (سبحانه):

وإدراك هذا المعنى.. مانع مـن اليأس والإحبـاط. واقف بالحائر على جادة اليقين:

(فمن توكل على الله استفاد الأجر. وخف عنه الألم. وقذف في قلبه السكينة..

ومن لم يتوكل على الله. لم ينفعـه ذلك. وزاد ألمه. وطال غمه بشدَّة سعيه. وخيـبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المُنْجـية: فمن رضي فله الرضا.. ومن سخط.. فله السخط) أ.هـ .



التقوى..
طوق النجاة

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

ما تزال أمتنا خير أمة أخرجت للناس..

وأية خيرية أعظم من أن يسارع ربها في رضاها.. كلما اتجهت إليه. وأقبلت عليه:

يسأل معاذ بن جبل (رضي الله عنه) فيقول: يا رسول الله:

قد عرفنا عدة التي تحيض. فما عدة التي لم تحض؟ فنزل قوله (تعالى):

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ ... ﴾

ثم يقوم رجل فيسأل: يا رسول الله:

فما عدة الصغيرة التي لم تحض (أو البالغة التي لا تحيض؟).

فينزل قوله (تعالى):

﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ... ﴾

ثم يقوم ثالث فيقول: وما عدة الحوامل يا رسول الله؟

فنزل:

﴿وأولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . . .﴾[1].

وهكذا تحس الأمة بحاجتها إلى بيان أحكام الله (عز وجل). . إرادة تنفيذها. . ثم تسأل ملحة في السؤال. . راغبة في الاستمساك بالعروة الوثقى. . حتى لا تسقط في قاع الضياع. .

لقد تنزلت الآي تترى آخذة بيد السائلين. . إلى مرفأ اليقين.

●●●

لقد بينت سورة البقرة من قبل عدة ذوات الحيض وهي: ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار.

وتبقى شريحة مهمة يراد معرفة حكم الله فيها. .

ولأن المجتمع راغب في أن يتهدى بنور الوحي الأعلى. . حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها. . من أجل ذلك أن ينهض نفر منه. . لينوب عن المجتمع في طلب المزيد من الأحكام الرامية إلى بقاء الأسرة في ساعة العسرة على غاية ما يكون الرشاد والسداد.

●●●

ومعنى الآية الكريمة:

إذا أَشْكلَ الأمر عليكم. . إذا التبس. . فشككتم جاهلين كيف يعتددن. . إذا ارتبتم فأجلتم النظر في القضية. . فلم تعرفوا أدمَ حيض هو أم استحاضة؟

وهل هن حاملات أم لا؟ فعدتهن ثلاثة أشهر:

وهنَّ المطلقات اللائي يئسن من الحيض لوصولهن إلى سنٍّ يجاوز

---

(١) الحمل: بفتح الحاء: ما كان في البطن أو على رأس الشجر.

والحمل: بكسرها: ما كان ظهر أو رأس.

القدر الذي ترجو فيه النساء الحيض.. فصارت بحيث لا ترجوه.. وذلك لبلوغها سنَّ الستين.. أو سنَّ السبعين.. فعدتهن:

ثلاثة أشهر: كل شهر يقوم مقام حيضة.

●●●

أما الحاملات: فعدتهن: وضع الحمل.. أي جميع ما في البطن.. لأنه أدل على براءة الرحم من ولد للمطلّق.. يبيح للمطلقة أن تبحث من اليوم عن.. نصفها الآخر.. بعدما انقطع خط الرجعة.

●●●

ثم يجيء الأمر بالتقوى ليربط على القلوب في هذه اللحظات الحرجة.

أو كما قال المفسرون:

(لأن أمور النساء في المعاشرة والمفارقة: من المعاسرة والمياسرة.. في غاية المشقة.. فلا يحمل على العدل فيها والعفة.. إلا خوفُ الله تعالى).

●●●

ولأن القضية في غاية الأهمية.. فإن الأمر بالتقوى يجيء مكررًا.. مقَرِّرًا ضرورة الوقوف عند حدود الله التي حدَّها.. لأن من لم يحفظ حدوده (عز وجل).. عسّر عليه كل أموره..

ومن التزم بها يسّر له أموره.. وحلَّ عُقَد حياته.

وذلك قوله (تعالى) على الترتيب التصاعدي:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقوله (عز وجل):

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا.. ﴾ [الطلاق: ٤].

وقوله (سبحانه وتعالىٰ):

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

إن لحظة الفراق معتركٌ يحاول كل طرف فيها أن يضيف إلىٰ نفسه حسنات غيره.. بقدر محاولته أن يضيف إلىٰ خصمه كل مساوئ غيره.. في نفس الوقت الذي يجرده من كل معروف..

جاعلاً من حياته صحيفة سوداء.. غافلاً عن سقوط هذا العار فوق رءوس ذريةٍ يسيء إليهم ما يسيء آباءهم وأمهاتهم.. من أجل ذلك يحرّص الله (تعالىٰ) الأزواج والزوجات علىٰ ضبط النفس.. وإحالة القضية علىٰ الحق الأعلىٰ.. والذي يدخر للمتسامحين الصابرين جزاء.. تتضاءل معه تلك المكاسب الرخيصة التي نحاول الحصول عليها بالبذاء والجفاء:

فالذي يتقي الله:

يجعل الله له مخرجا من كل ضيق:

وليس هذا فقط.. فهناك ما هو أعلىٰ وأغلىٰ وهو: أن يجعل الله له من أمره يسرا..يسرًا مستمرًا يواكب حياته..

بل ويكفر عنه ـ فوق ذلك ـ سيئاته.. ويعظمُ له الأجر..

إنها إذن نعمة الدفع.. والنفع معًا:

دفع البلاء.. واستجلاب النعماء.

●●●

يقول صاحب الظلال:

(واليسر في الأمر: غاية ما يرجوه الإنسان.

وإنها لنعمة كبرىٰ أن يجعل الله (تعالىٰ) الأمور ميسرة لعبدٍ من عباده.

فلا عنت ولا مشقة .. ولا عسر ولا ضيق.

إنه يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره. وينالها بيسر في حركته وعمله.

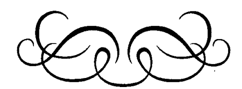
ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها. ويعيش من هذا في يسر رخيّ نديّ. حتى يلقى الله).

●●●

ومن هذا اليسر: أن تُحسَّ المطلقة.. ويُحس المطلّق.. بعد الفراق.. أن يحسا بحجم الخسارة.. وأن كلا منهما فقد شيئًا مهمًا في حياته..

وقد رأينا ذلك في الواقع.. عندما يذوب الجليد بين الاثنين.. فإذا هما يعودان إلى العش مرة أخرى.. على أوفى ما يكون الود..

والذي كان خصامًا.. صار ودًا ووئاما.



شبهات مردودة

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿وَاللائي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ ...﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

كانت للمفسرين وقفـاتهم المتأملة هذه الآيات البينات.. تلك الوقفات التي لم يكن يقنعها أن تتـجمد أمامها عند السطح.. مكتـفين بما يلقيه اليم من اللحم الطري..

وإنما غاصوا في الأعماق وراء اللؤلؤ والمرجـان. فبدّدوا شبها. وأزالوا حواجـز: ومن هؤلاء المفسرين: الإمام «زيـن الدين الحنفي» والذي قال في كتابه «غرائب التنزيل»:

(فإن قيل: كيف قال (تعالى): ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].. ونحن نرى كثيراً من الأتقياء مضيقًا عليهم رزقهم؟

قلنا: معناه: يجـعل له مخلصًا من هموم الدنيـا والآخرة. وعن النبي (ﷺ) أنه قال: مخرجًا من شبهات الدنيا. ومن غمرات الموت. ومن شدائد يوم القيامة.

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما):

ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة.

والصحيح: أن هذه الآية عامة. وأن الله يجـعل لكل متق مخرجا من كل ما يضيق على من لا يتقي.

ولهذا قال النبي (ﷺ):

«**إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿ومن يتق الله..﴾**».

وجعل يقرؤها ويعيدها.

وأما تضييق رزق الأتقـياء فهو ـ مع ضيقه وقلـته ـ يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون.

وتقليله لطف بهـم ورحمـة. ليتـوفر حـظهم في الآخرة.. ويخـفف حسـابهم.. ولتقل عوائقهم عن الاشـتغال بمولاهم. ولا يشـغلهم الرخاء. والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة.

ولهذا اختار الأنبياءُ والأولياء والصديقون.. اختاروا الفقر على الغنى) أ.هـ .

●●●

يريد الشيخ الحنفي أن يقول:

لا يقـتـصر مـعنى الرزق علـى ما كـان منه مـاديًا: من مـال ورياش ومتاع..

وأهم منه: الـرزق المعنوي.. والذي حظـي منه الأتقـيـاء بنصـيب الأسد.. والدعـوى هنا وإن كانت صحـيحة وهي: ضـيق ذات اليد.. يد الأتقياء مع بحبوبة غيرهم.. فهذا التضييق لهم .. وليس عليهم..

لأن الله (تعـالى) يعطي الدنيـا من أحب.. ومـن لا يحب.. ولكنه (تعالى) لا يعطي الآخـرة إلا لمن أحب وهم الأتقياء الذين ضـاقت أرزاقهم المادية هنا.. ليتفرغوا للعبادة التي يحصلون بها في الآخرة على ما هو أغلى من النعيم الدنيوي وأبقى.

●●●

ثم يقول الشيخ بعد ذلك:

(فإن قـيل: كيف قـال الله (تعالى) ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

(أي: من يثق به فيما نابه.. كفاه الله شـر ما أهمه.. وقد رأينا كثيرًا من الناس من يتوكل على الله في بعض أمورهم وحـوائجهم.. ولا يكفيهم الله (تعالى) همها؟

قلنا:

محـال أن يتوكل على الله حق التـوكل ولا يكفيه همـه. بل ربما قلق وضجر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضًا.. ففسد توكله.

وإليه الإشارة بقوله (تعالى) ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي:

نافذ حكمه: يبلغ ما يريده. ولا يفوته مراد. ولا يعجزه مطلوب.

وبقوله (تعالى): ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي: جعل لكل شيء من الفقر والغنى. والمرض والصحة. والشدة والرخاء. ونحو ذلك..

جعل له أجلاً ومنتهى ينتهي إليه. لا يتقدم عنه. ولا يتأخر) أ.هـ .

والمعنى: صحة التلازم بين توكل العبد.. وكفالة الله (تعالى) له..

فمن توكل حقًا كما أمره ربه.. فإن الله (تـعالى) يكفيه الهمـوم كما وعده..

●●●

ثم يقول الشيخ:

(فإن قـيل: إذا كانت المطلقـة طلاقًا بائنًا تجب لـها النفقـة عند بعض العلماء.. فما فائدة قوله (تعالى):

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦] عند ذلك القائل؟

قلنا: فائدته: ألا يتوهم متوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق.. حتى مضت مدة سقطت النفقة. فنفى هذا الوهم بقوله:

﴿ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٦] أ.هـ .

وربما جاز لنا أن نقول: إن فترة الحمل في حياة الحامل فترة عصيبة: تتناقص فيها قواها.. وتحتاج إلى تمريض وعلاج.. قد يكلف الزوج كثيرًا من النفقات التي قد يستكثرها.. فحرضه الله (تعالى) على حسن رعايتها، والوفاء لها بالتنصيص على وجوب النفقة التي قد ترهقه عندئذ فيتكاسل. ويتراخى عزمه في منتصف الطريق بينما هي تحمل له ما به يمتد عمره وينسأ أثره.

●●●

مع الفخر الرازي:

وقد تعرض الفخر الرازي لواحدة من هذه القضايا فقال:

(فإن قيل:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]. يدل على عدم الاحتياج للكسب في طلب الرزق.. وقوله (تعالى): ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]. يدل على الاحتياج.. فكيف هو؟

ونقول: (إنه لا يدل على الاحتياج. لأن قوله (تعالى):

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]. للإباحة. كما مرّ.

والإباحة مما ينافي الاحتياج إلى الكسب.. لما أن الاحتياج مناف للتخيير) أ.هـ .

ولكن قول الرازي (رحمه الله) إن قوله (تعالى): ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. يدل على عـدم الاحتيـاج للكسب في طلب الرزق.. قوله هذا فيه نظر:

لأن جوهر التوكل هو:

العمل الدءوب..

ثم تفويض الأمر إلى الله (عز وجل)..

وإذن.. فقوله (تعالى):

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله (تعالى):

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجـمعـة: ١٠].

الآيتان الكريمتان كلتاهما تؤكدان معنى واحدًا هو:

ضرورة العمل أخذًا بالأسباب.. والنتيجة بعد ذلك على الله (تعالى):

فمن تواكل.. ولم ينتشر.. لن يصل إلى ما قُدر له من رزق مادِّي أو معنوي.

●●●

أما بعد

فقد قـال الله (عز وجل) [من نسائكم].. فكل هذه الحـقوق للزوجة المسلمة.. والزوجة الكتابية معًـا.. وبلا تفريق حتى وإن بقيت الكتابية على دينها. وأعظِم بالإسلام دينًا يحترم آدمية الإنسان.. وإن اختلفت الأديان.



رفقًا بالقوارير

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

قد أسمع أحيانًا مقدم البرنامج الإذاعي وهو يقول لضيفه:

أرجو إلقاء الضوء على الآية الكريمة..

وكنت أقول:

لا.. بل أرجو أن نعيش في ضوء الآية الكريمة!

إن الآية: آية: علامـة واضحة.. للناظرين.. فليـست في منطقة من الضبـاب حتى نسلط الضـواء عليهـا.. وإنما هي كما قـيل بحق: فصّ من الماس يشع ضـياء وبهـاء في كل اتجاه.. وعلينا أن نقـترب منهـا.. لنتلقى فيوضاتها..

وهكذا الصياد الماهر:

إنه يرقب الصدفة تومئ إليه بأشعة بيضاء.. فـيهرع إليها.. ليستخرج ما في جوفها من لآلئ.

وهكذا المفسر البصير:

إنه يقترب من الآية الكريمة.. ثم يحاول اعتصارها..

ليستخرج من بطونها شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس..

ومن هؤلاء المفسـرين: زين الدين الحنفي والذي رأينا من فقهـه آنفًا ما حبب إلينا القرآن. وزينه في قلوبنا..

واليوم. نقف مع «الخطيب الإسكافي» لنرى كـيف اتخذ من هذه الآية

الكريمة زاوية أخرىٰ. . فأضاف إلىٰ زميله الجـديد والمفيد. . مما يحمل المطلّق علىٰ التفكير: طمعًا في الجزاء. . ورفقًا بالقوارير:

●●●

قال (رحمه الله):

(لسائل أن يسأل: عن قوله في خلال ذكر الطلاق والعدد: ومن ﴿يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ثلاث مرات: يُفعل به كذا: واختصاص كل جزء بمكان:

فأوله: يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

والثاني: يجعل له من أمره يسرا.

والثالث: يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا.

●●●

(والجواب أن يقال: إنما اقترن بالطلاق والعدَد هذا الوعظ:

لأن الطلاق: رفض حال متمهده. وقطع آمال متأكّده.

والعدَد: باستيفائها يخلص النسب. ويَصح للزوج الثاني: الولد.

ولو لم يكن هذا الحد الذي حده الله (تعالىٰ). . لكان الفـساد متصلاً إلىٰ انقضاء الدنيا.

فهو أحق الأشياء بالمراعاة. وتأكيد المقال فيه والوصاة.

قال الله (عز وجل) بعد ذكر الطلاق:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أي: من تمسك بتقوىٰ الله فـيما يَحُل ويَعقد. . فـإن الله (تعالىٰ) يلقّه في شدته فرجا. . ويجعل له مما يكره مخـرجا. ويتيح له محبوبه من حيث لا يُقَدِّر. ويوجه له رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي ضِمْنه: أنه إذا طلق لكراهة أحد القرينين لصاحبه.

وقارَنَ ذلك تقوى الله.. فإن الله يسبب له القرينة لصالحه.

ويسبب لها القرين الصالح.. ويرزق أحدهما على يد الاخر من حيث لا يبلغه تقديره. ولا يدركه حسابه.

وهذا وعد منه (تعالى) في الدنيا.. ويصح له مثله في الآخرة..

لأنه (سبحانه) يجعل للمتقين منجى من عذابه. وأمنًا من مخافته:

فيخرجهم من الغم إلى السرور. ومن الفزع إلى الأمن.

ويُعدّ لهم من كرامته.. وثوابه.. ونعمته.. ما يكتفون به. ولا يحتاجون معه إلى غيره.

●●●

أما قوله (تعالى):

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. فالمراد به:

حال الآخرة:

إذ المتوكل على الله قد يضام في الدنيا. وقد يُقتل أيضًا.. ويجوز أيضًا أن يراد بالتَّوكل:

أن يكل أمره إليه. فيمنحه الرضا بما يصرفه إليه كالدابة:

التي تسير بسير غيرها. منقادة لحكمه وسيره..

فإذا كان المتوكل على الله من هذه صفته.. فالله حسبه:

حافظًا له ممن يحاول ظلمه. أو ينتقم منه.. إن رأى ذلك أنفع له.

فهو يبلغ مراده في الوقت الذي قدره.. إذ كان قد جعل لكل شيء حينًا يقع عنده.. لا يتعجل قبْله. ولا يتباطأ بعده).

●●●

ثم يواصل الشيخ تعليل ذكر التقوىٰ مكررة.. مع الوعد بنعمة جديدة ووعد جديد لمن اتقىٰ الله في أمر الطلاق فقال:

(وأما قوله بعد عدة الحامل:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أي:

من لزم التُّقىٰ: سهّل الله عليه الصعب من أمره. كما يجعل أمر الولاة سهلاً إذا قامت الأم عند ولدها.

●●●

ثم عقّب حال الدنيا بذكر ما يفعله في الآخرة:

من تكفير سيئاته. وإعظام أجره).

●●●

ثم يعقب الشيخ موضحًا دلالات هذه الوعود لمن ضبط أعصابه في ساعة العسرة فاعتصم بالتقوىٰ.. ولم يستجب لأحاسيس الغضب الثائرة الفائرة.. فقال:

(فكل شرط من تُقىٰ الله (عز وجل) .. قرن إليه الجزاء ما لاق بمكانه الذي ذكر فيه).

ولما كان طلاق المرأة الحامل مر المذاق.. خصه بمزيد من الإغراء.. فعسىٰ أن يراجع المطلق نفسه.. فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان..

لا سيما وفي بطنها جنين جاء من صلبه هو.. تحمله إليه ليكون امتداد حياته بعد مماته.

ومن أجل ذلك.. كان التعقيب علىٰ هذه الحال الحرجة..

بغاية الترغيب.. وغاية الترهيب.. ثم وعد المتقي:

(بأفضل الجزاء.. وهو ما يكون في الآخرة من النعماء).

أما بعد:

فقد قال (عز وجل) هنا﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ...﴾ بالهمز.

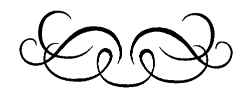
وقال في سورة النساء: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ...﴾ [النساء: ٣٤] .. بالتاء..

ونبسِّط هنا ما سمعته من أحد الزملاء:

إن الجو في سورة النساء تشم فيـه رائحة «الأنوثة» فناسب أن يعبر عن ذلك بما يناسبه وهو: تاء التأنيث..

أما في حال اليأس.. وتراجُع معنى الأنوثة.. فقد كانت همزة القطع بجرسها.. وخشونتهـا أنسب في الحديث عن مَنْ بلغت سن اليأس وما فيه من جفاف.. وخشونة.

و(سبحان) من هذا كلامه!



اليوم عاد.. كأن شيئًا لم يكن!

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ ...وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ...﴾ [الطلاق: ٦].

أن يدب الخلاف بين الزوجين.. فهذا أمر طبيعي..

ولكن غير الطبيعي: أن يسمحا لأنفسهما بتدخل الآخرين.. ابتداء.

فقد يكون في هؤلاء من في قلبه دخل.. فيفسد العلاقة من حيث نريد إصلاحها..

وهما مطالبان عندئذ: بالتحرر من الواقع المؤلم.. ليكون ذلك طاقة دافعة.. وسوف يندم الظالم يومًا..

وعليهما أن يكونا: كَسِلاحَي المقص:

قد يتباعدان.. لكنهما.. وبسرعة خاطفة: يتلاقيان.. ليقطعا دابر كل من يريد أن يتدخل «بينهما» بسوء..

إن لوح الثلج البارد.. الفاصل بينهما.. يجب أن يذوب.. ثم يملأ هذا الفراغ بكل ما هو «معروف» من الكلم الطيب والعمل الصالح..

●●●

وتتحمل الزوجة الصالحة المصلحة مسئولية هذه المحاولة العائدة بالعلاقة إلى صفائها الأول.. وذلك: بالصبر.. بل بالاصطبار. مغالبة لانفعال الزوج.. وذلك خيرٌ لها وأهدى سبيلا من أن تعود إلى بيت أمها مهزومة.. كاسفة البال. قليلة الرجاء!

إن عليها أن تختار اليوم.. من اختارها بالأمس. وفاء وبرًا.

ومن الراشدات الممسكات: بعـروة الزواج الوثقى. . تلك الزوجة التي قرر زوجها أن يعتزلها تمهيدًا لطلاقها. وصار أمرها معه:

كلما حاولت أن تطيل الحديث. . اختصر!!

وقد كان هناك حل أجنبي لهذه العقدة وهو:

مخاطبة تلك المؤسسة الغربية والتي تقـوم بتأجير مستمعين ترسلهم لمن يكونون على مضض ويريدون ناسًا «يفضفضون» لهم بما في قلوبهم. .

لكن الزوجـة المؤمنة الحصـيفـة. . الحريصـة على «الميثـاق الغليظ» أن ينفك. . قررت أن يكون الحل إسلامـيًا. . عن طريق قصيدة شعـرية تودعها لواعج الشوق في قلبـها . . مذكرة زوجـها بسالف الأيام. . ومـا يجيش به فؤادها من أحلام. .

لقد أرسلت إليه القصيدة وفيها تقول:

طـال السـهـاد..وأرّقـت ... عـيني الكـوارث والنـوازل
لما جـفـاني من أحب ... وراح تـشـغـله الشـواغـل
وطوى صـحـيـفـة حـبنا ... وأصـاخ سـمـعًـا للعـواذل
يـا أيـهـا الـزوج الـكـريم ... وأيهـا الحِـبُّ[1] المـواصـل
مـالي أراك مـعـانـدي ... ومـعـذِّبي.. من غـيـر طائل
لـم تـرْعَ لي صلـة الهـوى ... وهجـرتـني.. والهـجـر قـاتل
هل رمتَ أن تهـوى طليـقًـا ... لا يـحـول هـواك حـائل؟
أو رمت غـيـري زوجـةً ... يـا لـلأسـى مما تحـاول

(١) الحِب: الحبيب.

إن تبغ مالاً.. فالذي تدريه: أن المال زائل

أو تبغ أصلا.. فالتي قاطعتها: بنت الأماثل

أو تبغ حُسنًا.. فالمحاسن جمة عندي موائل

أو تبغ آدابًا.. فأشعاري على أدبي دلائل

أنا ما حفظت سوى الوفاء .. ولا ادخرت سوى الفضائل

وأنا ـ ولي شرف العفاف ـ: أُعَد مفخرة المنازل

فجزيتني شر الجزاء وكنت فيه غير عادل

•••

ماذا جرى فهجرتني والحب شيمته التساهل

عاشرت أهل السوء فاقتنصوك في شر الحبائل

ومضيت تطلب بينهم عيش المقيد بالسلاسل

ورضيت هجر حليلة لما تزل خير الحلائل

والله ما فكرت يومًا في جفاك ولم أحاول

فجفوت ـ يا قاسي الطباع ـ ولم تدارِ ولم تُحاول

فاعلم بأنك قاتلي والموت فيما أنت فاعل

إني أسائل: أين عهدك في الهوى؟ إني أسائل

أعلِمتَ ما فعل النوى بي؟ .. أم أنت ذاهل

فاربأ بنفسك..وأنههَا وارجع إلى زين العقائل

وهكذا.. استطاعت الزوجة أن تحطم حاجز العزلة بهذه المناجاة. التي صاغتها شعرًا.. فعَبَّرَتْ قلبه.. دون أن تمر على عقله.. فانتفض القلب منتشيًا بالوفاء.. تصنعه الزوجة صنعًا.. بلا تعقيد.. وبلا تفلسف!

هذا الوفاء.. أو هذا النداء الذي عاد به إليها.. إلى العشِّ المهجور.. كأن شيئًا لم يكن!

●●●

أما بعد:

فلماذا الإصرار على الطلاق.. بينما في أيدينا البديل؟

البديل الذي يطفئ جمرة الغضب فينا.. إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا؟

لماذا كلمة الطلاق.. وفي إمكانك أن تقاطعها.. أن ترسلها إلى بيت أبيها.. فلعل في هذا الهجْران.. ما يحمل على التفكير.. ثم العود الحميد..

ولنا في هذه الزوجة الشاعرة ما يؤكد قدرة الكلمة الطيبة على إحياء المشاعر الراكدة.. لتصبح فيضانًا من الود يُحبط الله به كيد الشيطان.



من صور
التحامل.. والتحايل

يقول الله (عز وجل):

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ۞ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

أحيانًا.. نبذل طاقاتنا في التوفيق بين ما نريده.. وهو كثير.. وبين ما نستطيعه.. وهو قليل..

وقد يتخلى عنا التوفيق.. لأسباب فوق إرادتنا..

ثم إذا بالأمل الذي زُرع.. إذا به وقد اقتلع..

●●●

نذكر هذا وفي خيالنا مشهد ربة البيت التي انتهت عدتها. وأحست أنها غريبة في مملكتها.. تمارس واقعًا مُرًّا.. تعيشه وتترقب مجهولاً.. لا تدركه!

وإذا هي تنظر وراءها.. في غضب.. وأمامها في يأس..

ثم تجري الدموع باردة..

وعندئذ تحتاج إلى من يخفف عنها آلام الجراح.. حتى لا يكون فيها اجترار للأحقاد.. واختزان للتشفي:

سينجلي ليلنا عن فجر معترك

ونحن في فمه المشبوب تغريد

وهنا يجيء الأمر بجبر خاطرها.. وتضميد جرها.. بإيوائها في مسكن تختفي بجناحه.. إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا..

وذلك بضرورة أن يوفر لها المطلق سكنًا يؤويها.. ويحفظ كرامتها.. وليشعر الناس أن الزوج لم يكن «عدوًا» ينتظر لخصمه «نائبة» فيسرع بإلقائه على قارعة الطريق غير مأسوف عليه.. ولكنها ـ مع الطلاق ـ ما تزال زوجة «بالقوة» ولم تكن قطعة من الأثاث البالي.. نتخلص منها فور استغنائنا عنها. أو شجرة طوحت أزهارها.. قبل أن ينضج الثمر!

يقول الله (عز وجل):

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]

أسكنوهن: ولا تقول الآية الكريمة: أسكنْها.

لأن الإسكان: مسئولية المجتمع كله.. والذي يتأثر حتمًا.. ولو على المدى البعيد.. حتى بالشرخ الصغير يمتد في جداره!

وتلك هي صورة التقوى العملية.. والتي كرر الأمر بها في الآيات السابقة.. ويتحمل المطلق مسئوليته الضخمة:

ولا تكفي دموع التماسيح.. ليكون القول عسلاً.. والعمل جبلا!

إنه وبعد هذه المعاشرة الطويلة.. وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظا.. لا يكفي أن يكون رد الفعل فقط قولاً حسنًا.. وإنما سكنًا..

لا بد من تقدير عمليّ يجبر كسرها.. وبخاصة في زمن العدة التي

يوضع فيها الإيمان على المحك . .

●●●

على أنه بالتكليف بإسكانها . . لا تُرهقُ من أمرك عسرا :

فالإسلام لا يطالبك «بشقة مفروشة» ولا بجنة معروشة!

إنما :

من حيث سكنتم . . من وجدكم :

بعض مكان سكناكم : ولتكن غرفة معزولة في ناحية . .

(من وجدكم) على قدر طاقتكم المالية . .

واختيـار سكنها قريبًـا للمطلق . . أدعى لرعايته لها . . أذ يكون قـريبا منها . . ولعله يسمع أنين ولده . . أو يتسمع حركتها الدائبة في تمريضه فيحن إلى أيامه الخوالي . . شفقة عليها . . برًا بولده وولدها . .

ولا تمنن مستكثرًا حقها في السكنى . . فهو بيتها . كما هو بيتك . .

بل ربما كان حقها في السكن آكد من حقك مهما كان معك من وثائق التملك . . حتى قال العلماء :

(إذا كان المسكن لا يسع مبيتين . . خرج المطلّق . . وبقيت المطلقة)

ثم قالوا :

(تجنب المقاربة في المبيت إذا كان الطلاق غير رجعي)

وذلك فرارًا من الوقوع في الإثم المتوقع.

أما الرجعية . . فـلا بأس أن تكون قريبة منه : فهي وإن لم تكن زوجة بالفعل . . فهي زوجة بالقوة . .

فلعل الله يحدث بعد هذه التجربة أمرا . .

لعله يراها بغير العين التي كان يراها بها . . ثم يراجع نفسه مراجعة قد

تنتهي بمراجعتها في نهاية المطاف.

●●●

واذكر أنني نصحت الزوج الذي كان حبه لزوجته من طرف واحد.. وطالما تمرّدت عليه.. غير شاعرة به كرجل

تحتمي به.. وظل ممدود تأوي إليه..

قلت له: طلقها فليست لك بكفء!! فلعلها بالطلاق أن تدخل في عالم غريب تحس فيه بوحشة تجعل العودة إليك أملاً مرتقبًا!

لقد كانت الزوجة هنا تقف من جمالها على جبل عال.. تطل منه على رفيق محروم مما تتصوره أساسيًا في الرجال..

وكان لا بد من خوض تجربة تأديبها.. بعزلتها.. باغترابها..

حتى تحن إلى الرجوع إليه.. بعدما تمردت عليه..

لا سيما.. وأنها قد ترى زميلات لها.. سعيدات راضيات بما قسم الله.. وقبل أن يدمِّرها الندم.. إذا بالنصيحة تؤتي أكلها.. وتعود الزوجة الشَّموس حَمَلاً وديعا..

فإذا بها تكفر عن سيئة التمرد.. بمزيد من الطاعة لزوج قرر أن يخرجها من حياته.. فلما رأت من قوته.. وضعفها.. عادت إليه.. وكان الظن ألا تعود..

●●●

ولكن.. قد يكون المطلق مدفوعًا بأريحية وقتية.. حين يفسح لمطلقته في بيته مكانًا قصيًا.. ثم تنطفئ الجذوة ليبدأ في الانتقام منها جزاء ما ضيّقت عليه.. مستسلمًا لمشاعر التشفي.. تتوَقد في داخله..

وهنا تمسك الآية الكريمة بخناقه لتقول له:

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾

حذار من التحامل عليها.. وقد نهيت عنه من قبل في قوله (تعالى):

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾

وهي اليوم تقول لك:

لا تتحايل عليها بما يضطرها إلى الخروج.

إن الأريحية تفرض على الرجل ألا ينازل إلا خصمًا كفءا..

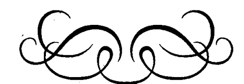
والمرأة ضعيفة.. وليس من المروءة أن تستعرض قواك.. أمام خصم ليس في مستواك!

وإذا كان ولا بد من خصام.. فلننتقم من خصومنا بنجاحنا:

نجاحنا في الوفاء.. في لحظات يقل فيها الأوفياء..

وما عاقبت إنسانًا عصى الله فيك.. بمثل أن تعاقبه بطاعة الله فيك.

ومن يفعل ذلك مع مطلقته.. فأولئك تحرّوا رشدا.



عندما.. نرفض فصيلة الدم الملائمة

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:
﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ [الطلاق: ٦].

بعد أن قضى الزوج من العمـر زمنًا طويلاً في دولة أجنبية.. وبعد أن استشعر الخوف على ذريته من طفح الحياة هناك.. قرر الوالد أن يعود بذريته إلى وطنه مصر.. ليترعرعوا بين يديه في تربتها الصالحة. نباتًا يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار..

ولكن زوجتـه وأم أولاده.. عصت عن أمـر زوجها. فـقررت البـقاء هناك.. مـحتمـية بجنسـيتـها المزدوجـة.. ضاربة بمصلحـة أولادها عرض الحائط..

واتصل بي الزوج من هناك لأرى في القضية رأيي..

ولم أشأ أن أعالج القـضية الشخصية المعـروضة.. ولكنني حاولت أن أدرسـها كظاهرة تشـير إلى فـتنة بعض نسـائنا بمظاهر الحيـاة هناك.. والتي تحملهن على الـتضحيـة بمصالح الأسرة كـلها. في سبـيل أن تبقى في بلاد «الحرية» التي زعموا.. والمساواة التي ادعوا..

ورأيت أن الأمر يحتاج إلى وقفـة تفرض علينا تتبع الجذور لعلنا نصل إلى علة المشكلة.. ليكون الدواء من بعد كافيًا شافيًا..

والسؤال هو: هل الحـياة هناك على هذا النحو الذي يغري بالـبقاء.. ورفض «فصيلة الدم» الموائمة.. لنستقـبل فصائل غربية.. غريبة ولو ترتب على هذا إفراغ الشخصية من مبادئها؟

هل الحيــاة هناك تساوي «تعرية التربة» لـنفسح المكان لأعشاب طفـيلية تمتص رحيق الحياة فينا؟

إن الأمر على ما يقول الأدباء:

(إنها الموءودة التي سئلت: بأي ذنب قتلت:

أحلام زرعت.

وأمانيّ كبار نُضِّدت.

وآمال عـظام.. صُفَّت كـالبنيان المرصص.. وسـوف تهوي في قـاع صفصف).

لأنها لم تنفتح على النهر.. ومن ثم غرِقت في المحيط!

●●●

إنه التـغـريـب.. لا.. بل إنه التـخـريب. والتـــزوير الذي تؤكـده الإحصاءات في نفس الدولة التي اتخذتها تلك الزوجة وطنًا أبديًا:

لقد زعموا أن المرأة في هذه الدولة ملكة متوجة..

وهي جنة الحياة هناك:

أ- تؤثر في مجريات الأحداث.

ب- وفي الأسواق التجارية والاستهلاكية.

جـ- تمتلك نصف ثروة الرجل بمجرد الزواج..

ولكن الواقع ينفي ذلك:

لأنه لا يبدو إلا جزء صغير من جبل الجليد..

وعلى من يريد أن يعرف حقيقة المرأة هناك.

أن يغوص في الأعماق..

وقد غاص سائحون مجربون..

فماذا وجدوا:

١ ـ في حالة الطلاق لا يدفع الرجل إلا نفقة عامين فقط. . وعليها أن ترفع قضية جديدة. داخلة في دوائر معقدة. . تكلفها نفقات باهظة.

٢ ـ ضرب الزوجة هناك صار ظاهرة وهناك إحصائية تقول:

إن ربع الحالات التي يقتل فيـها رجل الشرطة ناتجة عن تدخلهم لفض الاشتباكات الزوجية التي كانت بالأسلحة لا بالأيدي. .

إنها حـضارة الأشيـاء. . حضارة المـادة. . حضارة القـوة. . إلى حد الجبروت:

والتي أشار إليها القرآن:

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

حضارة الصناعة. . التي تريد الخلود:

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

●●●

وقل معي: أين هي الحرية هناك؟

وأين تلك المساواة التي يزعمون؟

إن الحرية هناك هي: حرية الخلاعة. . وكشف الصدور. .

وأين هي المساواة التي يبتغون؟

إن المساواة لا تكون إلا بين متماثلين. . والرجل والمرأة ليسا كذلك. .

فالرجل هو القائد:

فطريًا . . بما فضله الله.

وكسبيًا. . بما ينفق من ماله.

●●●

ولقد يرمون الإسلام بأنه «يحض» على تعدد الزوجات . .

هذا التعدد الذي كان ظاهرة قبل الإسلام الذي تدخل فضبطه وهذّبه . .

بينما بقي في بلاد أخرى مرفوضًا علنًا . . بينما هو قائم سرًا عن طريق الخليلات . .

ويا للمغرورات بالحياة في الغرب . . ويا للأزواج الذين يتفلتون من مسئولية اختيارهن ابتداء . .

ولقد قلت للفتى الغاضب على زوجته الناشز : لقد أُكلتَ يوم أكل الثور الأبيض :

إن اختيارنا يؤثر على أولادنا . . وعندما نختار زوجة فإنك تختار كل مواريثها . .

ولو ظفرت بذات الدين . . ما كان هذا البلاء المبين!

●●●

وفي النهاية نشدد النكير على الزوجين معًا . . بسبب ما يترتب على اختلافهما من آصار تترسب في قلوب الصغار الذين سيتعاملون مع الحياة والأحياء مدفوعين بانفعالات التشفي . . والرغبة في الانتقام . . ولنا في مشاهد الطبيعة شواهد :

فحينما تضع الضفادع بيضها في المستنقع . .

فإنها تهجر صغارها . . التي تواجه . . تجربة الحياة وحدها . .

●●●

وقد لا يهجر الوالدان ذريتهما . .

ولكنهما بتصرفهما . . وشجارهما . . الدائم . . يحدثان قلقًا في

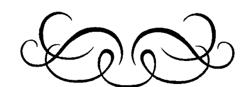
القلوب الغضة. . سوف يلقي ظلاله القاتمة عليها:

فعندما يتشاجر الوالدان:

فإن البنت تتعاطف تلقائيًا مع أمها. .
ثم تخفي مشاعر غضبها على والدها
فلا تظهرها. .
وقد تتفاقم العقدة عندها. . لتصير
مرضًا. . يرفض الزواج حتى لا يتكرر
المواقف معها. .

●●●

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.



من الإعجاب .. إلى التعجب!!

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ [الطلاق: ٦].

ليس على «المطلقـة» من جُناح فـيمـا اعـتذرت ـ بأدب ـ عن إرضـاع وليدها ـ إلا إذا تعينت ـ ولم يقبل إلا ثديها.

فمن حـقها أن تبحـث عن نصفها الغـائب حلالاً طيبًـا.. وقد يكون وليدها مانعًا من الزواج الجديد..

وقد تنتصر غريزة الجنس على غريزة الأم.. أحيانًا على الأقل.

ولكن ذلك لا يرفع مسئوليتهـا إذا ألقت وتخلَّت.. لحاجته الملحة إلى لبنها.. وإلى حنانها..

ومن أجل ذلك يتجه العتاب المباشـر إليها بأن لوليدها أمًا لم تحمله في بطنها.. ولكنها سـتحمله على صدرها.. لتنوب عنها في رعايتـه وحمايته ورضاعته.

●●●

ويعني ذلك أن مشكلة الإرضاع وجدت حلاً..

ولكن.. إذا كانت المشكلة هي: مجمـوعة من الأطفال في بلد أجنبي يريد الزوج العود بهم إلى وطنهم.. إلى بيـئتهم الإسلاميـة.. بينما ترفض الزوجة ذلك العوْد الحميـد. مؤثرة رغبتها في البقاء في بيـئة منحرفة. تؤثِّر على مستقبل أولادها..؟

إذا كان الأمر كذلك فإننا.. وعلى قدر إعجابنا بالزوج الغيور.. فإننا «نتعجب» من موقف الزوجة المتمردة!

ذلك بأنها لم تُدخل في حـسابها مستـقبل أولادها . . جاهلة بالحقـيقة التي تقول:

إن الطفل يستمد سلامة النفس من والديه . .

فإذا غزاه الخوف من وراء خلافاتهما وتفرقهما . . فسوف يدفع الوالدان الثمن غاليًا . .

ومن هذا الثمن: جفاف نبع الود في قلب الولد..

هذا الود الذي سوف يتسرب من «المصفاة» رويدًا . . وعندما يجد نفسه ممزقًا بين والد في «قارة» ووالدة في قارة أخرى . .

فلسوف ينعكس هذا المراء وهذا العـداء . . لسوف ينعكس على الطفل الذي سيتـعامل مع الحـياة والأحـياء بروح عدائيـة . . متوترة توترًا من جنس ما فعل أبواه .

وحتى إذا كانت عواطفه «وردية» فإنه لا محالة معبِّر عنها بالتطرف:

بالتطرف: على وجه التفـريط . . فيكتم مشاعره التي تسـفر في النهاية عن عقد نفسية تتحكم في مصيره . .

أو بالتطرف: على وجـه الإفراط . . وذلك بالهجـوم الكاسح على كل شيء .

وعلى التطرف مزيد من التحايل.. ليهزم الآخرين..

وهو عندئذ منطقي مع نفسه:

فما دام الحائط الذي يحميه بات مائلاً . . فقد خسر الأمن الذي يحاول حرمان الآخرين منه . دَيْنًا واجب السداد!

●●●

ونعود لنناقش الزوجة الهاربة الحساب:

كـانت هناك زوجـة حاكم لأقـوىٰ دولة: همـست في أذن من كـانت بجوارها في حفل عام:

قائلة:

إن ما يحدث في بيتك أهم مما يحدث في البيت الأبيض!

ولقد صَدَقَتْ.. فإن مملكة الزوجة بيتها. وأهم ما فيه أولادها..

فإذا هي فرطت في جنبهم فقد باعت مملكتها بأرخص الأثمان..

علىٰ أن الفتنة بالمال في البلاد الأجنبية لا تنهض مسوغًا للاغتراب..

وهذا هو ذا شاهدٌ من بني إسـرائيل علىٰ أهله.. مؤكدًا جمـال الحياة في بيوتنا وإن كانت علىٰ «الثرىٰ» مقـارنةً ببيوتهم هناك.. وإن تخيلناها في الثريا!

●●●

تقول الإحصائيات:

ثمانون في المائة من النسـاء الأمريكيات يفضلن البقـاء في البيت علىٰ العمل خارجه..

والرجال: يفضلن ذلك أيضًا.. وبنفس النسبة.

ولكن هذه الرغبـة لم تنشـأ من فـراغ.. وإنما كـانت لهـا أسبـابهـا المنحصرة فيما يلي:

١ ـ إن المرأة هناك لم تـستطع التـوازن بين مطالب الـعـمل ومطالب البيت.

٢ ـ ثم إن «المربيات» ومشكلاتهن وأجرهن أكثر من الراتب الشهري.

٣ ـ وأهم من ذلك كله: أن الطفل لا ينشأ علىٰ ما ترجوه له.

وإذن.. فليس في هذه البـيئة مـا يغري بالبـقاء فيـها. علىٰ حـساب

مستقبل أفلاذ أكبادنا.

●●●

ولقد سقطت الـزوجة في «امتحان الوفـاء» هناك.. تلك الزوجة التي كان زوجها يغالب سكرات الموت.. ولما ألح في طالب رؤيتها

قالت: طالما رآني!!

ثم رحل عن دنياه.. دون أن يحقق مناه..

في الوقت الذي تبـدو فـيه الزوجـة المؤمنة.. مع زوجـها في السـراء والضراء.. مـستـشعـرة نعمـة الله (تعالىٰ) في هذه المعـية ـ وتلك العِـشرة السوية.

يذكرنا بذلك موقف ذلك الصحابي الجليل:

كان لا يملك إلا رداء واحدًا: يذهب إلىٰ المسجد ليصلي فيه..

ثم يسرع في العودة.. لأن زوجتـه في الدار تنتظر هذا الرداء نفسه.. لتصلي فيه:

هذا.. بينما الصغار يلعبون في هذا الجو الهادئ.. بلا عُقد..

وبلا تطرف..

●●●

إن الأخلاء.. بعضهم لبعض عدو.. إلا المتقين:

فما دام الهدف واحدًا.. فعلام يختلفون؟!

وما دام الهدف هو: مستقـبل الأولاد.. فإن الحياة كلها لا تساوي ليلة واحدة ينامون فيها محزونين.

●●●

أجل.. إلا المتـقين.. فـهم مـعًا: عـلىٰ الطريق... دينهم الوفـاء..

وجوهرهم: الطهر..

لا يغدرون ولا يخونون. ولو كان الثمن هو: ريب المنون!

●●●

أما هناك:

فالزوجة: فقد تخون الزوجة زوجها.. لأنه يخونها.. فتحطم نفسها قبل كل شيء.. كهؤلاء العبيد في العصور الوسطى.. والذين كانوا يتعمدون قطع أكفِّهم أو أقدامِهم أو آذانهم. حتى يزهد فيهم أسيادهم؟!

أو كهؤلاء الأزواج الذين كانوا يقطعون آذانهم حتى يعيِّر الناس نساءهم بأنهم زوجات هؤلاء المشوهين..

●●●

أما في الإسلام.. فما أسعد الزوجان بعلاقة لا تنفصم عراها ..

جوهرها الحب العقلي.. الذي يبقى مهما جار الزمان.. وتغيَّر الخلان.. وهو كسب لو تعلمون عظيم.



الوالدان.. بين الإلزام والالتزام

يقول الله (عز وجل):

﴿ ...وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

إذا فشلت تجربة الزواج.. فلا ينبغي أن يكون ذلك على حساب الأولاد..

فليس من الإنصاف أن يخطئ الوالدان.. ثم تدفع الذرية «فاتورة» الحساب!

وإنما الواجب أن نضعهم في أعيننا.. وأن تكون مصلحتهم شغلنا..

ولا يجمل بنا أن نتركهم في مهب الرياح حيارى.. يواجهون المستقبل وحدهم.. فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا..

●●●

إن مستقبل الأطفال مسئولية الوالدين معًا..

وأهم مجالات المسئولية هنا:

النفقة.. والإرضاع:

أما النفقة فإلى الوالد.. وأما الإرضاع.. فإلى الوالدة:

يقول العلماء:

(لما كان الولد في بطن أمه مدة الحمل. . لا خروج له منه. .
عيَّن (تعالىٰ) علىٰ وليه النفقة.
فلما وُلد. . وكان يتمكن أن يتقوّت من أمه. ومن غيرها.
أباح (تعالىٰ) الأمرين.
فإذا كان بحالة بحيث لا يتقوّت إلا من أمه. . كان بمنزلة الحمل. .
وتعينت أمه طريقًا لقُوته)[1].
وإذن. فقضية النفقة والإرضاع. . يجب أن تحتل الأولوية. .
في جدول أعمالهما. . بعد انفصالهما!

●●●

إن المطلق مـأمور بالنفقـة علىٰ مطلقتـه. لا سيـما إذا كانـت تحمل له ولده. . وهو امتداد حياته بعد مماته. .

تحملـه وهْنًا علىٰ وهن ـ وباسم المصلحة الشـخصـية فـهو مـدعو إلىٰ الإنفاق عليه. . ثم علىٰ تلك التي تعاني في حمله ما تعاني
(حفظًا للقلوب. وإبعادًا للشقاق بعد الإيحاش.
بالطلاق. . لئلا يعظم الكسر والوحشة)[2].

●●●

ولأن النفوس في مثل هذه الظروف. . تكون أسيرة الانفـعال. . مهيأة للعدوان. . فإن الحق (سبحانه وتعالىٰ) يأمر الزوجين:
أن يعقدا «قمة ثنائية» . . تدور علىٰ محور العفو والتسامح. .

---

(١) تفسير السعدي.
(٢) البقاعي.

وذلك قوله (تعالى):

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦].

المهم أن يكون هناك تشاور: أخذٌ ورد:

فلا يماكس الأب.. ولا تعاسر الأم..

لأنهما شريكان في الإشفاق عليه:

لا يشتط الوالد في الشح.. ولا الأم في الحرص..

وعليه أن يُسكنها ويَرعى شئونها..

وفي مقابل ذلك.. عليها أن ترضع ولدها: هي بالذات كما يقول (عز وجل):

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

●●●

وهنا حقائق لا بد من إحاطة الأم بهـا.. حتى لا تسيء استغلال حق الاختيار:

فإرضاعها ولدها يحقق:

نشوء الولد نشأة سليمة بهذه الرضاعـة الطبيعية التي تكسبه قوة.. ثم تزوده بالمناعة الواقية من الأمراض.

بالإضافة إلى تزويده بالأمـان والحنان.. وهما أربى في الميزان من كل غذاء.

ثم هو يقي الأم نفسها من أخطر الأمراض.. إلى جانب التخلص من فائض اللبن الذي قد يرتد نكسة صحية..

●●●

ومن لطف الله (تعالى) أن حدد المعالم.. اتقاء المظالم..

ولم يتركها لتقدير أحد الطرفين..

وقد قال الفقهاء هنا:

(إن كان الولد يقبل غير ثدي أمه.. لم تُجبر على إرضاعه.

ويُسترضع له غيرها.

وإن كـان لا يقبل إلا ثديـها.. ويرفض ثدي غـيـره.. أُجبـرت على إرضاعه..

وفي الحـالين.. لا بد من أن ترضـعه.. وفي أيامـه الأولى ـ «اللبـأ» وهو: باكـورة اللبن الذي لا قـوام للولد غـالبًـا إلا به.. وهو مـا نسمـيـه «بالمسمار»..

وإذ يفضـل الإسلام معنى «الالـتزام» على مـعنى «الإلزام» فحـبذا لو التزمت المرأة بذلك أدبيًا.. بدل أن يُفرض عليها.. وإذ يتلطف بها الإسلام فلم يوجب عليها الرضاع حتى لا تضـيع عليها فرصة الزواج من آخر.. إذ يفعل الإسـلام ذلك.. فعليهـا أن تكون عند حسن الظن بها مـتسامـحة.. والله من ورائها.. عليم بحالها.. وقادر على إنصافها.

•••

ثم تعاتب الآية الكريمة المطلَّقة التي قد تُرجِّح مستقبلها على ولدها .. بقوله (عز وجل):

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

إن المقصود بالمعروف هنا هو:

التشاور:

مع النفس.. بالخلاف

ومع الغير.. بالإنصاف

ومع الحق.. بالاعتراف

على أن يكون «بينكم» بلا تدخل من أحد.. فربما كان الانفراد أعون على التصارح.. ثم التصالح.

ولاحظ دلالة حرف الشك «إنْ» .. وما يشير إليه من استبعاد التعاسر بينهما..

ولكنه على أي حال: أمر متوقَّع..

فإن حدث المحظور: فتأكدا معًا أن الولد لن يضيع .. بعد أن تخلى عنه والداه..

وسوف وبالتأكيد سوف تحتضنه أم أخرى لم تلده.. أي أنه لن يموت جوعًا إذا تخليتما عنه..

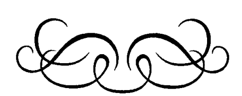
وبالذات يتجه إلى الأم نسبة من العتاب أكبر:

لأنها أمه التي جاء هو من ترائبها.. ثم تركته مهملاً.. منطلقة هائمة.. تبحث عن نصفها الضائع؟!

وقبل أن نسرف في لوم المطلقة هنا.. فلا بد من رجع ذلك إلى المطلق الذي لم يقدر عواقب الأمور.. حين وضع المسكينة بين شقي الرحى:

بين الغضب من الماضي.. والخوف من المستقبل..

ومن مجموعهما تتمزق المطلقة.. ولم تعد صالحة لاتخاذ قرار سليم.



مسئولية الوالد عما ولد

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ ...وإن كُنَّ أُولات حَمْلٍ فَأنفقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

أحيانًا ترغمنا الظروف على قبول الحلول الصعبة.. ومحاولة التكيف مع من يقسون علينا..

وأية لحظة أقسى من تلك التي تتأهب فيها المطلقة للرحيل من بيت. كانت فيه سيدته..

ثم هي اليوم واقعة تحت رحمة من يقطُر العسل من شفتيه.. بينما السكين في يديه؟!

إنها تسمع كلامًا.. هو في الواقع «مصيدة».. أو عصًا يتوكأ عليها..

يدق بها الأبواب.. أو «سنارة» يحاول أن يقتنص بها ما يريده لنفسه من متاعها؟!

●●●

والآية الكريمة هنا تقطع الطريق على مثل هذه المحاولات الماكرة..

آمرة بعقد «قمة ثنائية» تضم الزوج والزوجة.. ثم تضع النقاط على الحروف محمِّلة مسئولية الأولاد في رقبة كلٍّ من الوالد والوالدة على سواء:

أما مسئوليته فهي الإنفاق..

وأما مسئوليتها فهي الإرضاع . .

والمفروض بـحكم غرائز الأبوة والأمـومة أن تمضي الأمور في خـطها الطبيعي . . ليبذلَ الطرفان ما تملي به الفطرة . . طبعًا . . لا تطبعًا . .

فإذا لم يتيسر ذلك فهنا يكون الملام . . ويكون العتاب:

عتابُ كلٍّ فيما يخصه:

فـإذا اعتـذرت الأم عن إرضـاع فلذة كبـدها . والذي أخـرجه القـادر سبحانه من بين ترائبها . .

إذا طاوعها قلبها . . فذلك حقها عدلاً . .

لكنها بمقياس الفضل: لم تفعل أجمل ما يليق بها . . فهي ملومة . .

وعليها أن تـعلم جيدًا أن ولدها لن يموت من الجوع . . فـسوف يحرك (سبحانه) عاطفة الشفقة عليه ـ في قلب امرأة «أخرى» لم تلده!!!

●●●

وإنما خُصّت الأم بمزيد من العـتاب لأن مسـئوليتهـا أشد من مسئـولية الوالد ومن ثم . . كان عليها أن تؤثر الفضل:

فإنها مطالبة بالبذل . .

والمبذول هنا هو: لبنها . .

وفي ذلك مصلحتها الشخـصية أولا . . لأنها إذا لم تتخلص من اللبن أضرها ذلك . .

وإذن ففي بذله رحمة بها .

ثم هو مبـذول لولدها . . التي تجد متـعتهـا في احتضـانه . . والسرور لسروره . .

ثم هو عطاء مجّاني لم تدفع فيه مالاً . .

ولا كذلك المبذول من جهة الوالد:

لأن ما يبذله مال . .

والمال في العادة مضنون به . .

وإذن . . فمهمة الوالدة أيسر وأوفر . .

فإن أرضعت . . فبها . . وإلا . . ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾

والسين هنا لإفادة معنى التوكيد وبيان أن المعاسرة سوف تنكشف عن أم رءوم . . يسوقها الرءوف الرحيم (سبحانه) . . لترضع وليدًا . . زهد فيه أبواه . ولكنه في عين مولاه . الذي يسخر له من يرعاه .

●●●

ومن جهة الوالد:

فإن منصب القوامة يفرض عليه الإنفاق . . طواعية واحتسابًا . .

وإلا . . فليتحمل نصيبه الأوفى من الملام . . بما قصّر وبما أضمر . .

والآية الكريمة هنا عاصمة من النزاع بين الوالدين:

حيث لا تعتبر مال الزوجة هو المقياس . .

وإنما المقياس العادل هو : وضع الزوج الماليّ . .

لماذا؟

يجيب المفسّرون:

(إن الاعتبار بمالها يؤدي إلى الخصومة .

لأن الزوج يدَّعي أنها تطلب فوق كفايتها . .

وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها . . فقدِّرت ـ النفقة ـ قطعًا للخصومة) .

وكانت حقًا في عنق الرجل . .

على أن يكون ذلك كلُّه بمعروف . .

بما يستطاع من صور المعروف . . وما تسمح به إمكانات المطلّق . .

ويعني ذلك استشعار عظمة الله (تعالى) وقدرته . .

وإذا كانت رجـولة الرجل قد تسـول له أن يظلم الطرف الضـعيف . . فليتذكر قدرة الله عليه . . فلينفق حِسبة ،وائتجارًا لا منًّا ولا غرورًا . .

وهذا هو منطق الإسلام الذي لا يقدِّر فعل الخير بحجمه

وإنما بدوافعه النبيلة الجليلة . .

وأين منه مـا يقـوله الماديون : ومنهم[1] أرسطو الذي قـال يصف فـعل الخير :

[إن فعل الخير : أنانية مستنيرة!

فنحن نفعله لأنفسنا . . قبل أن يكون لغيـرنا . . ولإراحة ضمائرنا قبل كل شيء؟!] .

ولكن منطق الرجل القرآني شيء غير هذا :

فهو يفعل الخير . . لله (تعالى) وله (سبحانه وتعالى) أولا وأخيرًا . .

وإذ نُحسنّ إلى الآخرين لنـسعدهم . . فلأنهم عيـال الله الذين نتقرب إلى الله من خلال إحساننا إليهم .

ومَنْ لا خير فيه لأحياء الأمس الذين أسعدوه يومًا فلا خير فيه لأحد!

●●●

إن الناس لهم عيون . . ولكن :

---

(١) أحد فلاسفة اليونان وتلميذ سقراط .

ما عيون.. بلا حدقات

وما حدقات ..بلا إنسان..

وما إنسانُ عينٍ لا يحسن إلىٰ أخيه الإنسان؟!

●●●

وتنتهي من تأملك للآية الكريمة فلا تسمع هُجرًا.. ولا ترىٰ عوجًا ولا أمْتا..

وإنما هو الإمساك في هدوء.. أو التسريح أيضًا: في هدوء..

●●●

فـأمـا من بـخل.. واسـتـغنىٰ.. وسـول له غـناه أن يطغىٰ .. وأن يفحش..

فليس للأبرار إلا ما قال الحكماء:

وما شيء أحب إلىٰ السفيه

إذا سب الكريمَ.. من الجواب

مُتاركة السفيه بلا جواب

أشد علىٰ السفيه من الجواب



المطلَّقة في منطقة شبه الظل

يقول (عز وجل) في سورة الطلاق:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

لا تنتهي العـلاقة الزوجية بالضـربة القاضية!.. وإلا كان المطـلِّق كما يقول الفلاحون الطيبون:

«عدو ، ينتظر نائبة» بمعنى أنه يتربص بغريمه المصائب!

●●●

ولكن الإسلام:

ومن خلال هذه الآيات الكريمة .. يشير إلى إن للعلاقة جذوراً ضاربة في الأرض.. لا تقتلع هكذا وفي لحظة طارئة..

ومن أجل ذلك.. لا تكلَّف المطلقـة بالخـروج فوركلمـة الطلاق غيـر مأسوف عليها: من الظل الظليل.. إلى وهج الظهيرة..

وإنما تبقى .. وفي بيتها.. مكفولة الرزق.. موفورة الكرامة..

إعلامًا بأن الأمر ليس شركة تجارية تنفض في لحظة واحدة:

وإنما هي عزة الإنسان.. التي هي فوق انفعالاتنا .. ونزواتنا..

وعلى كل الأطراف المعنيـة أن تتوقف.. ثم تراجعَ نفـسهـا فلعل الله (تعالى) أن يجعل.. بعد يسر يسرا..

وإذا توترت الأعصاب يومًا.. بوسوسة الشيطان المريد..

فلنفسح من بيـوتنا وقلوبنا.. لرفاق الأمس.. فلعل الله يحـدث بعد ذلك أمرا.

وتوكيدًا لهذا المـعنىٰ: أُمر المطلِّقون بالإبقاء علىٰ المطلقة في بيـتها حتىٰ تنتهي عدتها..

ولكي تظل في البيت مـصونة.. يجب عليه أن ينفق عليهـا.. صيانة لها من التبذل في طلب لقمة العيش.. وفرارًا بها من القيل والقال..

لو أنها مشت في الأسواق.. وما يثيره من شبهات.. وتقولات..

قد تسد طريق العودة إلىٰ زوجها .. تارة أخرىٰ.

●●●

ومضيًا مع حكمة الإســلام في أن: لا ضرر ولا ضرار .. فإن المطلق مأمور بهذا الإنفاق.. علىٰ قدر طاقته:

فلينفق ﴿.. مِّن سَعَتِهِ..﴾:

علىٰ قدر إمكاناته المتاحة..

لا تسرق.. لتوفر لها لقمـةالعيش.. ولا ترهق نفسك بالعبور إلىٰ ما وراء حدود مملـكتك المتواضـعة.. خارج «سـعتك» فليس مـن الإنصاف أن نريح طرفًا علىٰ حساب غيره..

وإذ يحرص الإسلام علىٰ الترفق بالمطلق فليس ذلك انحيازًا له.

وإنما كل ذلك مقـصود به إتاحة فرصـة العودة بمثل هذا التيسـير الذي يتيح للنفوس فرصة المراجعة.. في جو نظيف.

●●●

ثم إن مـا تؤمـر بإنفـاقه ليس مـالك.. وإنما أنت حـارس.. خـازن أمين.. وصاحـب المال (سبحـانه) هو الذي يأمـرك بالإنفاق من مـاله (عز وجل)..

ثم هو (عز وجل) لا يأمرك بإلقائه في البحر.. أو تذريته في الجو..

وإنما يتلطف بك لتنفقه على الصاحب بالجنب.. وفاء للعشرة..

●●●

ومما يحملك على الإنفاق والتسامح فيه.. ما تعلمه من وقائع التاريخ الشاهد بذلك:

(فقد فتح الله عليكم جميع جزيرة العرب.. ثم فارس والروم: أطحتم بهذه.. وأزلتم تلك..

ثم فزتم بكنوزها حتى صرتم أغنى الناس..)

وإذن.. فأنفق ولا تخشى في ذي العرش إقلالا..

فغداً تكون السعة.. بعد الضيق.. والغنى بعد الفقر..

ومن صور السعة والغنى.. أن تعود إليك مطلقتك

أسس ما تكون قيادا.. بعدما أوسعتك بالأمس عنادا.

●●●

وإذا كان الإنفاق على من لا تباشرها.. عطاء بلا ثمن.. فإنها فرصة للتدريب على «السعة» النفسية.. قبل السعة المالية.. فليتسع صدرك ليتقبل عودتها.. فلعل العود أن يكون حميداً سعيداً.

●●●

أما من قُدِر عليه رزقه.. فضاق عن تغطية كل احتياجاتها.. فلا تثريب عليه.. فقد تصرف في حدود استطاعته.. وما فوق ذلك يكون تكليفاً بما لا يُقدر عليه.

●●●

ولاحظ من بلاغة الآية الكريمة:

أن الله (تعالى) - في حال تضييق الرزق - يبني الفعل للمجهول هكذا

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. ﴾ .

وفي حال العطاء يقول (عز وجل):

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴾

إنه التلطف بالعبد وبخاصة في ساعات الضيق:

ففي حال العطاء.. يظهر الفاعل..

أما إذا كان الأمر مؤلماً للعبد فإنه (تعالى) لا يواجه عبده الضعيف.. بما يحزنه..

وإذا كان ذلك كذلك.. فليعامل المطلق الزوجة باللطف والإحسان.. ليكون عوناً لها على ريب الزمان.

●●●

ومن تلطفه بها أن يعيد مراجعة الموقف كله.. ليخرج بالتأمل من الخيال الذي يعيشه.. إلى الواقع الذي يرفض أن يعيشه!

وليحاول إقناع نفسه بأنه مسئول معها عن كل ما انتهى إليه نزاعهما.. وأنّ عليه أن يكون زوجًا ناجحًا.. قبل أن يطلب من غيره أن يكون كذلك.. وإذا كان يطلب الزوجة المثالية.. فهل هو مثالي؟!

ونتذكر هنا واحدة من تجارب غيرنا.

فقد تفرغ وزير العمل في دولة غربية لتربية طفليه بعد نجاح عَشْرِ سنوات في عمله.. وثقة رئيسه به.. وفضَّل في النهاية أن يكون زوجًا ناجحًا.. على أن يكون سياسيًا لامعًا!

●●●

ثم على الزوج إدراك طبيعة المرأة وجوهرها.. مما يعين على الوفاق بعد الفراق. بمزيد من مشاعر الإشفاق:

هذه الطبيعة التي قال فيها (ﷺ):

«إن النساء خلقن من ضلع أعوج:

وإن أعوج شيء في الضلع : أعلاه:

فإن ذهبت تقيمه.. كسرته..

وإن تركته.. لم يزل أعوج..

فاستمتعوا بهن على عوجهن».

●●●

وكما ظفرت بها إولاً.. فاظفر بها اليوم.. وهي بين يديك..
وقبل أن يظفر بها غيرك.. بعدما تذهب الفرصة.. ثم لا تعود.

●●●

أما بعد:

فـقد زعـمـتم بعض المسـتشـرقين أن الطلاق «طرد» لـلزوجة خـارج البـيت.. ولكنه في الحقـيـقة «إنهـاء» لعقـد الزوجـية. ثم لا يتم إلا بعـد محاولات ومداولات تستنفد كل وسائل الإصلاح.. فإن لم يكن صلاح.. فلا جناح.



الزوجة.. ومبادرة الصلح

يقول الله (عز وجل) في سورة الطلاق:
﴿ ... وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ... ﴾ [الطلاق: ٧].

بعد أن أرسلت الزوجة إلى زوجها قصيدة أفرغت فيها كل أمانيها..

عاد الطير المهاجر.. عاد الزوج إلى بيته.. مستجيبًا لنداء الزوجة التي وصلت رسالتها العاتبة الغاضبة إلى سويداء قلبه: هذا القلب الذي تفجّر نهرا.. بعد أن كان من قبل حجرًا!

وقد حدث بعد نشر قصيدتها أو رسالتها أن هبت عاصفة من قِبَل بعض النساء اللاتي انحزن لها..

والحمد لله أن هبوب العاصفة كان.. بعد أن عاد الزوج الزوج فعلاً إلى البيت.. فلربما كان حدث ما لا تحمد عقباه لو هبت العاصفة قبل أن يتخذ الزوج قرار العود الحميد.. عنادًا وتحديًا..

●●●

ومن تدبير الله (تعالى) أن وقفت الزوجة العاتبة نفسها تشكر الزميلات المجاملات الغاضبات.. راجية إغلاق ملف القضية.. فقد عادت المياه إلى مجاريها. وهذا ما قالتهر شعرًا أيضًا:

فتيات مصر تحية ... أنتن ربّات العزائم
إني أدينُ بعطفكن ... وشكرُكن عليَّ لازم

●●●

ثم عزَّزت ذلك بقولها:

يا سيداتي الفضليات: لكُنَّ حق الشكر.. دائم..
قد عاد لي زوجي الكريمُ.. وجاء يقرع سنَّ نادم..
من بعد ما قدَّرتُ أن رجوعه أضغاث حالم..
والحُرُّ يرجع.. حين يعلم أنه في الحق آثم

●●●

وقلت لصديقي تعليقاً على إعلانها رجوع زوجها. إنها هي التي رجعت إليه باستعطافها له.. فكانت صاحبة مبادرة الصلح ولا يضيرها أن كانت البادئة بالكلام.. فخيرهما الذي يبدأ بالسلام.. فإذا كان المبدوء هو الزوج.. فأنعم بها مبادرةُ للسلام.

لقد وضَّحت الزوجة هنا أبعاد معنى المودة في قوله (تعالى): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وعلاقة المودة بين الزوجين تتميز عن غيرها من العلاقات فهي باقية ما بقي الرجل رجلاً.. وبقيت الأنثى أنثى.. كما يقول العارفون المجرِّبون.

فطالما بقى إحساس الزوجة بأنوثتها وضعفها قائماً.. فإن جسور التفاهم تظل قائمة على أصولها.. ليعود الصفاء من فوقها إلى قلوب المختلفين.

أمَّا لو ترجَّلت الأنثى.. متمردة على طبيعتها.. فإن هذا الود سوف يخرج.. ثم لا يعود.. وكيف يعود في الوقت الذي يركب كل طرف رأسه زاعماً أن الكل سواء.. ومما يخدش الكرامة أن تبدأ أحبَّاءنا بالكلام!

●●●

إن هذا الود قد «جعلهُ» الله (تعالى).. وما جعله (سبحانه) لا يغيب.

وقد تسألني: لكنه قد يذهب بالطلاق؟

وأقول لك:

إنه لم يذهب بالطلاق. لأن الطلاق هو الضربة الأخيرة التي سقط بها القصر المُنيـف. . ولكن الشربات قبلها مسـئولة عنانهيار البنـيان الشاهق من علٍ.

ومن هذه الضربات السابقـة تجاوزات الزوجين على مدار الأيام: والتي تراكمت حتى صارت من «قشٍّ وطين» ثم صارت عبرة للمعتبرين!

إن «الود» رزق من الله . وعطاء غير مجذوذ.

وإذا كان رزقنا المادي حـاضرًا مصونًا. . وفي السمـاء. . حتى «ندب» لنصل بالدبيب إليـه. . فكذلك «الود». . وهو رزقنـا المعنوي. . حاضـر. . مصون. . لكننا نتصرف مصرِّين أن نمضي بتجاوزاتنا عكس الاتجاه؟!

فكيف نحـصل على مـودتنا. . على رزقـنا. . ونحن بالعناد نسـحب رصيدنا منه وبلا إيداعات جديدة تنمِّيه وتزكيه؟[1].

●●●

لقد أحسَّت الزوجـة الشاعرة أن رفيـقها الغاضب. . قـد أخذته العزة بالإثم. . والحكمة تقول: إذا عز أخوك . . فهن. .

واستعطاف الزوجة ليس هوانًا. .

فقـد يكون وليد دراسـة ميـدانية. . ظهر با أن الزوج يُـفَضِّل الأوهام تناوشـه. . على الواقع المُعاش فـعـلاً. . فقـررت ألا يفلت الصيـد من بين

---

(١) قد لا تكون «فـصيلة الدم» متـوافقة مع سـلامتهـا في ذاتها. . فالدم صـالح. . فالود موجود. . لكن «الفصيلة» في الإثنين سالبة. . أو موجبة. . ومن الإبقاء على الود أن يتفرقا ليغني الله كلا من سعته بمن يشاكله؟!

يديهـا . . فصـبت كل أشجـانها على الورق شـعرًا . . ردَّه سـالًما من سكرة الأوهام . .

وقد يسعفها الواقع الماثل بما يفرض عليها أن تبدأه بالكلام:

لقد يكون «عجوزًا» إلا أنه مـغرم بالفتاة الصغيرة زاعمًـا أنه بها ومعها يستـرجع شبابـه الغارب . . وهكذا . . كلما «هَرِمت الأسـنان» تَطلَّب الأمر صغار الحُملان!!

●●●

ولقد أدركت عوَج الحاضر وخطورة المستقبل حيث النار تندلع . . والماء ينقطع . ثم راجعت نفسها التي وجدتها :

دجاج: ـ مع الفارق طبعًا ـ

وللدجاجة جناحان . . ولكنها لا تسـتطيع الطيران إلا في مجال الأسرة الجوي! . وتحت سقف البيت . . وفي ظل رجل تطارحه الهوىٰ. هو زوجها الحلال .

وإذن . . فالشجـاعة الأدبية تفرض عليـها أن تفعل ما تظنـه الزميلات خطأ . . وكانت بمبـادرة الصلح مُبَرأة من الملام . . مُـرَشَّحة بوقائهـا المتصنع الوئام بديلاً للخصام .

لقد كانت كما قالوا الأدباء:

(لا أحد يحاسب صحراء العطش . إذا توحَّمت على قطرةٍ من الماء . .

ولا أحد يحاسب جائعًا . . يحلم بسوق الخبز) .

لا أحد يحاسب زوجة سويَّة ذكية تفرد شراعها في الاتجاه الصحيح . . غير وصغية إلىٰ غضب الغاضبين العازلين . .

فمن كانت يده في النار . . ليس كمن كانت يده في الماء!

والأطفال: لمبتهجون اليوم: هم أطفالها هي..

والزوج العائد العائذ هو زوجها هي..

والنار لا تحرق إلا من أمسك بها..

وقد أحرقتها هي وحدها.. نارُ العزلة والاغتراب.. فقررت بالعفو أن تضع حدًا لهذا العذاب.



حديث.. مع الشباب

في تحقيق صحفي تقول إحدى الباحثات:

(إن صلة الرجل الفرد بعدد من النساء من الأمور التي تبت فيها الأحوال الإجتماعية.. فالنسبة - في رأي فضيلة الشيخ الغزالي - بين عدد الرجال والنساء.. إما أن تكون متساوية.. وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيتين.. فإن كانت متساوية.. أو كان عدد النساء أقل.. فإن تعدد الزوجات لابد أن يختفي من تلقاء نفسه. وستفرض الطبيعة - ساعتها - توزيعها العادل قسراً!

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال.. فسنكون إزاء واحدة من ثلاث:

١ - إما أن نقضي على بعضهن بالحرمان حتى الموت!

٢ - وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات، ونقرٍّ جريمة «الزنا»!

٣ - وإما أن نسمح بتعدد الزوجات. ولأن المرأة - قبل الرجل - فيما يرى الشيخ الغزالي - تأبى حياة الحرمان، وترفض فراش الجريمة والعصيان.. فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها.. وينسب إليه أبناؤها.. ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ «التعدد» الذي صرح به الإسلام شريطة أن يتحقق العدل.. فإن لم يتحقق العدل.. فلا تعدد هناك.

●●●

قلت ذلك للفتى المتحمس.. والذي وقف - يرضي غروره - زاعماً أن التعدد هو الأصل..

ولما كان من المحبين للشيخ الغزالي.. فقد حاولت إفحامه بوجهة نظر

الشيخ الغزالي تلك!

وإذا كان هناك من يرفض التـعدد منساقًـا وراء هواه، فقد نجـد أنفسنا أمام: تفريط . . أو إفراط . . يتقاضيانا الاقتراب من الآية الكريمة . . مستنيرين بما قرره المجربون . . فلعل ذلك مما يحسم القضية أو يكاد:

يقول الله (عز وجل): ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]

●●●

والآية الكريمة تخـاطب الناس جمـيعـاً . . والأزواج منهم بخـاصة . . وتشمل شمولاً أوّلياً منهم:

أولئك الراغبين في التعدد . . حتى يراجعوا حساباتهم . . التي قد تنتهي بهم إلى صرف النظر عن فكرة «التعدد» إيماناً منهم بأن أحداً لن يجد الراحة عند أحـد . . وإنما الراحة هناك عند نـفسك الراضـية . . وقلبك الوسـيع . . ونقترب مرة أخرئ من الآية الكريمة متأملين مـسترشدين بما قاله الثقات من العارفين: يقـول (عز وجل): ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

●●●

الآية الكريمة تدل على اهتـمام الإسـلام بالواقع . . لا واصفـاً . . وإنما كاشفاً عن الأسباب . . ثم محاولة علاج الانحرافات . . أما نحن اليوم:

فنحن فـقط نحبّـر الصفـحات عن التـعدد وأسـبابه . . دون أن نقـدم العلاج . . إننا فـقط منساقـون وراء أهوائنا التي استـعبدتنا حين أبـعدتنا عن الفهم المصحح.

●●●

يقول المغرضون:

١. أباح الإسلام التعدد

٢. ثم اشترط فيه العدل.

٣. ثم حكم بأنه غير مستطاع؟!

ولكن الصحيح أن يقال:

المطلوب هو: العدل المستطاع وهو:

المساواة في الحقوق والواجبات..

أما عدل القلوب.. فغير مستطاع.

●●●

من آثار التعدد:

إذا كانت الطبيعة من حولنا تنطق بلسان الحال:

إن الورقة تسقط.. وتبقى الشجرة.. لتجدد شبابها في ربيع قابل..

إذا كان هذا هو منطق الطبيعة.. فإنه وفي العلاقات الإنسانية.. يكون الأمر بالعكس:

فبعض الأزواج يرغب في تجديد الفراش منطلقًا من رجولة متسلطة.. أو من فحولة جائرة: يقول:

(إن الحياة قد كلفت الذكر بأن يمد الحياة.. ولذلك جاء قويًا.. أكبر حجمًا.. أقدر على المطاردة. والمنافسة والمشاجرة).

●●●

ففي عالم الأسماك:

نجد الذَّكر هو الأكثر حركة.. والأكثر انطلاقاً.. وهو الذي يتضخم طولاً وعرضاً.. ويطلق أصواتاً وألواناً.. تلفت نظر الأنثى.

جوهر المشكلة:

المشكلة في التـعدد أن الزوجة الثـانية قد تكون هي «الحـماة». . أي: زوجة الأب.

وإذا كانت الحـماة «الأم» لها غـضبتـها على من سرقت منهـا ابنها. . متـجاهلة من أخذتـه بعض الوقت. . لتنجب لها أحـفادًا يسعـدونها «كل» الوقت. . إذا كان الأمـر كذلك. . فكم تكون غيـرة. . زوجة الأب. . ممن ينتمي إليها بسبب. . بل ويشارك ولدها من ترائبها ثروة زوجها؟!!

●●●

وما زلت أذكـر ذلك الزميل الذواقة. . والذي تزوج الثـانية ثم أراد أن يعود إلى زوجته القديمة الأولى فاشتـرطت عليه أن يتزوج ثالثة ـ !! ـ ليغيظ بها من أغاظتها. . وهي الزوجة الثانية. .

وعـاد الزوج كـزورق مـحطوم الشـراع. . يتـرنح. . ولا يدري مـاذا يفعل!!

●●●

ومع أن «زوجة الأب» شـخصيـة غير مـرغوب فـيها غـالباً. . إلا أن الإسلام يحترمها. . بل ويكرمها حـين جعلها فرعاً في شجرة الأسرة. . بل كانت أمًّا. . كالأم التي ولَدت. . وذلك بتـحريم الزواج منها. . وذلك قوله (تعـالى): ﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ٢٢].

●●●

أما بعد:

فـمـا زلت أذكر تلـك الزوجة «الفـلاحـة» والتي سـألتـهـا الباحـثـة الإجتماعية:

كم ساعةً تعملين «مع» زوجك . .

فكان ردها الحكيم هو:

أنا لا أعمل معه . .

وإنما أنا أساعده . .

فالعمل معقود بناصيته . . وإنما فقط أنا عبد المعين!!

وهكذا وبعد عشرات من السنين . . تتنامى مـشاعر الوُد بين رفيقين . . ولا تقـاس علاقتـهـمـا بمقيـاس الحســاب . . وإنما بالود الجامع . . فـوق كل حساب؟

•••

بعد الزواج:

تعيينُ قائد للأسرة

أ ـ يُرجع إليه عند الاختلاف.

ب ـ ويُستأنس برأيه عند الوفاق.

مُرشحات القيِّم:

أ ـ مرشح فطري ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

ب ـ مرشح كسبي: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ فهو قادر على مخالطة الناس. ثم الكسب وما يتطلبه من معاناة.

•••

وتبقى الزوجة: مستودع الحنان . .

لأنه: بلا حنان.. فلا إنسان!!

ولأجل الحنان.. والمعاناة تستنزف طاقتها.. فلا يبقى لها بالٌ ولا طاقةٌ لإدارة البيت.

فالقيادة للرجل.. وهذه القيادة:

تكليف.. لا تشريف

عطاء.. لا أخذ

رعاية.. لا غنيمة

ومسئولية.. لا تسلط



رحلة في قلب مطلقة

يقولون: القاتل مجاهد.. والمقتول شهيد.

بمعنى: أحيانًا يفعل الزوج أكمل ما يليق به كزوج:

يعفو.. ويصفح.. ثم يغفر..

وقد يطول نَفَسه في تطويع الزوجة..

وإذن.. فهو مجاهد..

●●●

والزوجة: قد تفعل ما تلام عليه.. لكنَّ قصدها شريف.. فهي شهيدة!

وقد يتعذر الوفاق.. وإذن. فلا مفر من الطلاق!

فماذا يحدث بعد ذلك؟

لنستمع إلى الأدب يصور بريشته الساحرة تلك الزوجة في بيتها الذي تعتد فيه:

فيم تفكر؟ وكيف؟

والزوج أيضًا.. ما هو إلا حاله.. وما مآله؟

هذا ما خطَّته ريشة الأديب الأريب:

قال:

كان البيت بالأمس مستقرها.. فصار اليوم قبرها!

كيف:

زوجها غير واثق بها..

وكانت سيدة البيت..

●●●

تناوش زوجَها الظنون.. إنها لو اعتَدَّت في بيته..
لسوف تهرُب بمتاع البيت!
ثم تفرّ إلى بيت أمها:
تعود ضيفة عزيزة.. مثل أيام زمان؟.. لا:
فالضيف مدته محدودة.. ثلاثة أيام.. أما هذه فلم يعد لها بيت..

●●●

وتخدم مرغمة.. تخدُم من؟
أمَّها. أو زوجة أبيها.. أو أخاها.

●●●

وبين الحين والآخر تهب عليها عواصفُ من الأفكار:
كيف حال أولادها الآن؟
ماذا يأكلون؟
وكيف ينامون؟.. ومن الذي يُغَطيهم عندما ينكشفون؟!
هل أذهب إلى المحكمة لأحتضنهم؟
فإذا عادوا إليها.. فلن تكون سعيدة:
ذلك بأن أولادها: ليسوا أيتامًا.. فيُرحموا..
ولا ذوي أب.. فَيكفوا.

بداية النهاية:

وتحت وطأة هذه الأفكار المحرقة للأعصاب
تبدأ مرحلة من التفكير الواقعي.. العملي.. هكذا:

هل ما أنا فيه من العذاب.. خير .. أم الرُّجعى
إلى زوجي ولو كان مشاكسًا؟!
هل كان لا بد من الطلاق؟!
هل كان ضرورة تفرض نفسها..
ألم يكن العلاج ممكنًا؟
وبأسلوب آخر غير الطلاق؟
أليست شريكةَ الزوج في المسئولية عما حدث من خلل؟
لقد صار ما فَرَّت منه بالأمس.. لقد صارتْ
ادعاءاتها.. قابلة للنقاش اليوم.. بعدما
ذاقت من عذاب الوحدة.

●●●

ها هي ذي تتحمل مسئوليتها مع أطفالها:
وحيدة. كاسفة البال. تتعلم من التجارب..
ما لم تكن تعلم.. مدركة حقيقة ما فعلتْ
بصغارها الذين حُرموا من أبيهم..

●●●

وقد تستوعب الدرس.. في محاولة لإدراك
حجم ما ارتكبته من أخطاء.. واصلة
إلى رغبة أكيدة في عود حميد إلى
عُشها المهجور..

●●●

ولكنها لا تملك تحقيق أملها:

لأن الزمن لا يمضي في صالحها:
فلقد صار ما فرّت إليه اليوم.. أسوأ من الطلاق..
نفسه..

●●●

ثم.. أليس من الجائز أن يتزوج بأخرىٰ.. وعندئذ
ستخسر فرص التفاهم والعودة إلىٰ العش القديم..
بعد وجود هذا الغريم!
والوسواس الخناس موجود لدىٰ الزوج:
وهو.. كما يعِد الإنسان بالفقر.. يعده بزوجة ثانية
تكون أجمل.. وأكمل؟
إنه الشيطان المسئول الأكبر عما أنا فيه..

●●●

لقد كان الامتحان صعبًا..
وذلك عندما يواجه الإنسان نفسه.. والشيطان:
وإذا كيانه يذهب حسرات. بين شقي الرحىٰ:
نفسه: التي تقوده إلىٰ العصيان..
وشيطانه: الذي يحضه عليه!!

رب يـوم بكـيـت منـه فـلمــــــا

صـــرت في غــيـره بـكيت علـيــه

هل يمكن أن تعود المياه إلىٰ مجاريها؟
إن القرآن الكريم يقول: نعم.

﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].
وقد حدث ذلك الأمر فعلاً.. في حياة ناس أعرفهم..
لقد عادت المطلَّقة إلى زوجها الأول..
عادت أكثر اشتياقًا..
وأشدَّ إشفاقًا.. لو أنه رفض..

●●●

والزوج يشرب من نفس الكأس

والزوج هناك.. تركض في خياله أفكار من نفس النوع..
ويستيقظ قلبه على الذكريات الجميلة..
التي تزدحم في وعيه اليوم..
ثم هذه المتاعب التي تأتيه من قبل الأولاد:
الولد الكبير: يسأل عن أمه..
فَيُجرِّئُ الصغير الذي يتمرد.. فيسأل أيضًا عن أمه..
والحل؟.. الحل أن تعود المياه إلى مجاريها
وهذا ما فعله الإسلام:
الإسلام الذي سهَّل أمر الرجعة
أ - بلا شهود.
ب - بلا ولي.
ج - وبدون رضا الزوجة
ويكفي راجعت زوجتي
هكذا بكلمة واحدة.. يعود الصفاء.. والوداد..
ويسعد الأولاد.

مغزى هذا التيسير

إنه دليل على أن الإسلام يحب الوفاق ويبغض الطلاق..

إنه لا يكرهه فقط.. وإنما يُبغضه.. وإن كان حلالاً!

●●●

فإذا عادا.. فلا شك أنهما استفادا فوائد تحملهم على الحذر بَعْدُ. ثم الحرص على استدامة العلاقة.. فرارًا من أن تعود أيام الهوان الذي كان.

إن المسئول عن الطلاق هو التَّسرّع.. وليس الإسلام

إن المطلق مريض:

أعطاه الطبيب.. أعطاه الإسلام..أعطاه دواء. ليستعمله على فترات..

فماذا فعل؟

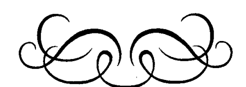
●●●

ألا إن خير الطرفين هو من بدأ بمبادرة الصلح:

وإذا كان البادئ بالتحية عبر الطريق خير الطرفين..

فكيف بمن يبدأ الكلام بلا ملام مبادرة منه: تجمع الشمل. وتحمي الذرية.. وتصون المجتمع..

وخيركم خيركم لأهله.



نهاية المطاف

بعد هذه التأملات في سورة الطلاق. . تبقى لنا كلمات

لأن الطلاق [أبغض الحلال] إلى الله (تعالى):

فقد وضعت الشريعة ـ طبق خطتها ـ إزاء كل بغيض ـ وضعت ما يمنع وقوعه:

أ ـ قبل الزواج. .

ب ـ وأثناء الزواج. .

ج ـ وعندما تهب العاصفة. .

أما قبل الزواج:

فمـن الضروري: معـرفة الطرف الآخـر بعمق. . حـتى لا نفاجـأ بما نكره. .

ذلك بأن (بعض الناس يفـاجأ بهـذا الذي يكره. . لأنه لم ير الأشـياء على حقيقتها. . واكتفى بقراءة العنوان].

●●●

وهناك أمور أساسية

لا بد من توفرها

١ ـ الالتقاء على مبدأ. . وخير المبادئ الدين. .

وفي ظله يمكن التعايش.

٢ ـ الميل القلبي. . فراراً من النفور المانع من التكيف.

وهذا بعض ما يفهم من قوله (ﷺ) لرجل:

«أنظر إليها فإنه أحرىٰ أن يؤدم بينكما».

ومعروف أن المـرأة قد تكون جميلة . . ومـحطّ الأنظار . . ولكن قد لا يروق الرجل منها شيءٌ ينفـر منه بطبعه . . وقد يكون في نفـس الوقت مَيْزةً عند غيره.

٣ ـ ضرورةُ سؤال الآخرين..

وعلىٰ المسئول أن يذكر العيوب التي يراها

مقتصدًا . . بعيدًا عن التشهير . .

وعلىٰ قدر الحاجة.

٤ ـ وللخاطبة[1] دورها الذي لا يتيسر للرجال:

أ ـ تشم معاطفها . . تأكدًا من رائحتها.

ب ـ ثم ترىٰ كعبها . . فقد تكون نحيفة . .

ج ـ السؤال عن أخواتها . .

د ـ وللبنت رأي وللثيب رأي . .

ولا نكاح إلا بولي

٥ ـ فإذا عزم الأمر كان لا بد من:

أ ـ طائفة من الأمة . . وعلىٰ الأقل شاهدان.

ب ـ الوليمة وإعلان الزواج . .

ولماذا الشهود . . ولماذا الإعلان؟

والجواب:

---

(١) روي أنس (رضي الله عنه) قال:

قال رسول الله (ﷺ): وأم سليم تنظر إلىٰ امرأة. فقال: «**شمي عوارضها**».

(الأسنان التي في عرض الفم) وهي: ما بين الثنايا والأضراس. واحدها: عارض.

الالتزام أمام الجمهور بتحمل مسئولية هذا الميثاق الغليظ.
الذي يفرض علينا العمل على استقراره واستمراره..
وإذن:
فإعفاؤها من القيادة ليس إهمالاً.
وإنما هو:
تقدير لظروفها:
رحمة بها
ووضعًا للأمور في نصابها

●●●

وبذلك حسم الإسلام القضية: فلا خوف ولا نزاع.
لا سيما.. وتوجيهات الإسلام تزامل الزوج ضبطًا لخطواته..

مسئوليات القائد

إنك راع.. ومسئول..
اصبر عليها..
لأن فطرتها تختلف عن فطرتك.
فلا تحملها بالعنف على ما تريد.
ولا تتوقع منها ما تريد.
ولا تتصورها كاملة..
فالعاقل لا يرضى عن صفاته هو شخصيًا..
وإن رَضِيَ فهو مغرور مأزور!!
وسوف يصدمه الواقع بما لم يكن يتوقع..
وبما لم يكن يعلم.

الإسلام يقف.. إلى جانب.. أضعف الطرفين

هذا الإسلام الذي يقول للزوج:

اصبر عليها وعالج الأمر بحكمة..

أـ لأنهن خلقن من ضلع أعوج. .

بـ لا يفرك مؤمن مؤمنة. .

جـ خيركم خيركم لأهله. .

●●●

قارن بين ما يعجبك. . وما لا يعجبك. .

ثم تغاض عما لا يعجبك. . من أجل ما يعجبك!

لماذا؟ ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

طامِن مِن غرورك. . فلا تظن أنك الحاكم الأوحد.

●●●

وما زلت أذكر ذلك الزميل الذواقة. . والذي تزوج الثانية ثم أراد أن يعود إلى زوجته القديمة الأولى فاشترطت عليه أن يتزوج ثالثة - !! - ليغيظ بها من أغاظتها. . وهي الزوجة الثانية. .

وعاد الزوج كزورق محطوم الشراع. . يترنح. . ولا يدري ماذا يفعل!!]

وقد يضخم الزوج العيوب. . ويضائل من المزايا. . إلى الحد الذي يعزُّ فيه الوفاق. وإذن فلا بد من الطلاق بعد ما ذهب السكن. . وذهبت المودة

والرحمة وهنا يقول له الإسلام قبل أن ينطق بكلمة الطلاق استمساكاً بالأمل حتى آخر لحظة:

إن أهداف الزواج متعددة:

فإذا لم يكن حبٌّ:

فما كل البيوت بنيت على الحب..

وإنما يبكي على الحب على النساء..

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. ﴾ [النساء: ١٩]

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

والخير متعدد:

١ ـ الولد الصالح

٢ ـ جمع الشمل وحماية الذرية.

٣ ـ ووعد الله بالإصلاح لابد أن يتحقق يوماً.

ثم ينصحه الإسلام بتفقد أحواله معها: فقد يكون هو المخطئ. .فليصلح ما أفسد العطار.. أو مع الله.. فتب إليه.

وقد يكون هناك حاسد أو حاقد.. ينفث في العقد فلتكن أنت وهي.. عليه.. فهو عدوكما المشترك فلا تحققا بالفراق أعز أمانيه.

●●●

زواج المحلل:

ولد ميتاً:

١ ـ فالناس يستوصون بكتمانه.

٢ ـ ليس فيه أهداف الزواج..

٣ ـ ولكن جـاء لشيء لم يذكـره الحديث الشـريف: «تـنـكـح المـرأة لأربع..».

٤ ـ وهدفه الوحيدهو:

الرجوع للزوج الأول!!

●●●

المطلقة قبل الدخول

لا عدة عليها:

أما المتوفى عنها زوجها.. فعليها أن تعتد

لماذا؟

في الصورة الأولى:

عداء.. ومغايظة.. وقد يتزوج وتراه هي.. فتحترق..

فلتتزوج ومن الآن!

أما حال الموت:

١ ـ فهو نوع من الوفاء.. كالحداد.

٢ ـ ثم إنها سترثه.

٣ ـ ومعنى المغايظة غير موجود كالصورة الأولى.

●●●

استطراد:

تحد الزوجة على زوجها المتوفي أربعة أشهر وعشرا.. وفاء..

أما على قريبها المتوفى فثـلاثة أيام فقط.. لأن لها زوجاً له حقوق في عنقها.. وهذه الحقوق آكد من غيرها.

●●●

من ملفات الحرب الباردة!

أخرج «أبو داود» في سننه عن أبي سلمة بن عبـد الرحمن عن فاطمة بنت قيس (رضي الله عنها):

أن أبا عمرو بن حفص.. طلقها البتة وهو غائب:

فأرسل إليها وكيله بشعير. فسخطته. فقال:

والله مالك علينا من شيء.

فجاءت رسول الله (ﷺ). فذكـرت ذلك له. فقال لها: **«لـيس لـك عليه نفقة»**.

فأمرها أن تعتد في بيت «أم شريك».. ثم قال:

«تلك امرأة يغشاها أصحابي.

اعتدي في بيت «ابن أم مكتوم»: فإنه رجل أعمى:

تضعين ثيابك.. فإذا حللت.. فآذنيني»

قالت:

فلما حللت.. ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني.

فقال:

«أما أبو جهم: فلا يضع عصاه عن عاتقه..

وأما معاوية: فصعلوك: لا مال له..

انكحي أسامة بن زيد». قالت: فكرهته.. ثم قال **«انكحي أسامة بن زيد»** فنكحته..

فجعل الله فيه خيراً اغتبطت به).

تمهيد:

ونقصد «بالحرب الباردة» هنا ما يدور بين الزوجين من اختلاف . . بعدما كان بينهما من الائتلاف:

لقد كان طائر الود محلقًا في جو السماء . . وكان البيت ذلك النبع الرائق الدافق . .

وبعد ذلك . . هبط الطائر المحلق . . وجف النبع بعد ما كان عذبًا فراتًا . .

(كان الزوج ذلك الملاح الذي كان يقول لزوجته:

أنا ذلك البحّار: أنفق عمره

في البحث عن حب ، وعن أحباب

حتى رأيتك قطعة من جوهر

ترتاح بين النخل والأعناب

●●●

وترتفع حرارة العواطف في قلب من عاش كل صور الحسن:

لكن حسنك لم يكن بحسابي

ماذا سأكتب عنك في كتب الهوىٰ

فهواك لا يكفيه ألف كتاب؟!

ويزيد في وفاق الزوجين . . ذلك البيت الهادئ الوادع . . العامر بمثل هذه المناجاة التي تجعل منه مملكة جامعة مانع . .

وها هو ذا . . يترنح تحت ضربات الأحداث . . لقد كان البيت ولا

يزال لونًا من الأمـومة منذ التـجأ إلـيه الإنسـان ليحـتمي به من العـواصف والخلاء . . ثم رآه يدفع عنه عوارض الطبيعة . ويدفع عنه البرد والحر فتعلق، به، أكثر .

البيت هو الحمى . . هو زغب الطائر) .

كتب الرسام «فيلكفيلد» عندما كان يعيش حياة هادئة في الريف .

(السعـادة التي أشعر بهـا وأنا جالس أمام النار، بينمـا تهدر العاصـفة غاضبة في الخارج، هي هناءة حيوانية خالصة . .

فالفأر في جـحره، والأرنب في وجاره، والأبقار في الحظـائر، تشعر دون شك بالرضا ذاته الذي أشعر به) .

ولكن إذا تجاوزنـا ـ هذا اللون (الساذج) من السـعادة ـ التي يتـحدث عنها «فيلكفيلد» في لحظة دفء أقول :

إن البيت ذاتية . . إنه خاص بصاحبه وحده . . ومسرح لذوقه وأفكاره .

والبيت سيادة فهو ملك لصاحبه وحده، يفعل، به، وفيه، ما يشاء . . وهو حرم له لا يقتحمه آخر عليه، إلا بإذنه في عصور الأمان . .

وجاءت الأديان فـأكدت هنا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** . . .﴾ [النور: ٢٧] .

والآية الكريمة ﴿ **وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا** . . .﴾ [البقرة: ١٨٩] .

البيت حرم . . وحبيب مهما صغر أو تواضع : إنه كالأم إنها أعز إنسان كما هي، لا تقارن بغيرها .

●●●

أجل . . كان البيت هذا مرتعًا مُمرعًا . .

وإذا بالشيطان المريد : من الجن والإنس يضرب ضربته القاضية . .

وإذا بالزوجة وفي ساعة العسرة يتغير في ناظريها كل شيء فصارت غريبة في وطنها ؟! الذي صار في حسها بلادًا بعيدة:

(يا بلادي البعيدة: حيث تبكي السماء. .

حيث لا يقرأ الناس إلا جريدة!).

●●●

يا بلادي التي لست فيها.. يا بلادي الوحيدة..

أيها الرمل والنخل والجدول.. أيها الكوخ والسنبل..

يا بلادي التي لست فيها.. يا بلادي الطريدة..

ليس لي منك إلا شراع المسافر..

راية مزقتها الخناجر.. والنجوم الشريدة..]

●●●

إنها تندب حظها العاثر. إن الناس من حولها يتعاملون بالجفاء. .

لكن وفاءها كان هو الوفاء. .

(لقد كانت هينة لينة:

تعين أهلها على العيش. . ولا تعين العيش على أهلها).

●●●

وقد يهون الخطب في حس الزوجة التي تستعد للرحيل. .

ولكن الذي لا يهون هو: شماتة الأعداء:

أمرُّ على ناس فأسمع شامتًا
يمزق في عرضي.. وآخر يشفع

وقد ساء ظني في العباد جميعهم
فأجمعت أمري في العداء.. وأجمعوا

وعندئذ يتفاقم الموقف. . وإذا بالأمر على ما يقول الشاعر:

أرى تحت الـرمـــاد ومــــيض نار   ويوشـك أن يكـون له ضـــــرام!

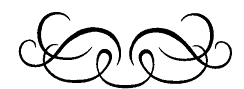
●●●

هكذا تقول تجربتنا اليومية ، بما فيها من وفاق وشقاق. .

ولكن «فاطمة بنت قيس» ترينا اليوم من نفـسها كرامة وعزة. . ترفض شهوة الانتقام. . على رغم أن زوجها «بتّهـا» قطعها: أخرجها من حياته. . وفي غربته. . ولم ينتظر حتى يعود فلعله أن يمسك. . فلا يطلق. ولقد كان من حكمتها تجنب المهاترة والمكاثرة . .

وبدل أن تبدد أعصابها فيما لا يجدي. . أخذت الخطوة العملية. . في الاتجاه الصحيح. فطالبت بحقها. . منطلقة من قاعدة تقول:

أحيانًا. . لا يكفي الحب وحده بين الزوجين. . فلا بد من أن يبحر كل طرف في أعماق الآخر ليستوعب ما فيها من أسرار نحاول التكيف معها . . ثم لنفصل حياتنا على قدها. .



كذب المستشرقون.. ولو صدقوا!

نشرت الصحف أخيرًا ما يلي:

الطلاق الألكتروني. أو الـطلاق عبر «الإنتـرنت» هو آخر صيـحة في سلسلة التيـسيرات الـتي تقدمهـا الولايات الألمانية لمواطنيهـا من أجل تقليل الإجراءات الروتينية.

وقد وقع الاختيار على تيسير الطلاق الالكتروني - وليس الزواج - بعد أن أعلنت الهيئة الاتحادية للإحـصاء: أن حالات الطلاق في ألمانيا تبلغ نحو ٢٠٠٠٠ ألف حالـة سنويًا.. في حين يصل عدد الزيجـات إلى نصف هذا الرقم!..

وبناء على ذلك. فقـد سمحت عدة ولايات بإنشاء مـواقع على شبكة «الانترنت» تمكن الأزواج من الانفصال من خلال استخراج صورة من طلب الطلاق الرسمي وملء البيانات المطلوبة. ثم إرسـالها إلى المحامي الذي يقدم الطلب للجهة المختصة.. وبذلك لا يحضر الزوج ولا الزوجة إلى المحكمة!

ويجيء هذا الخبر شاهدًا من بني إسرائيل على أهله:

يجيء في الوقت الذي تُشـيع فـيه أبواق الاسـتشـراق بأن الطلاق في الإسلام هضم لكرامـة المرأة التي يلقي بها زوجها في الشـارع إلقاء لا يرعى إلاً ولا ذمة..

يزعـمون أن المرأة تلقي.. أو تلفظ «كـالنواة». بينما الأحـق بالتهـمة هؤلاء الذين يرمـوننا بدائهم حين يتم طلاقهم هـكذا.. وبهذه السـهولة.. وهذه السرعة.. التي لا تتيح فرصة للتفاهم والمراجعة.. وإنما هو الطرد من

الحياة الزوجية . .

أما في الإسـلام . . ومن خلال قصـة . . «فاطمة بنت قـيس» فإنك لا تحس بهـا وحدها . . وإنما هناك فـريق عـمل دائب الحركـة . . لا تحس فيـه المطلقة بالاغتـراب . . ومن حولها كل هؤلاء الأصحاب موقنة بأن حـقها لن يضـيع أبدًا وأنهـا لـن تكون بالطلاق ذلك الكم المهـمـل . . منبـوذة خلف ظهورنا . .

فالزوج هناك . . في مـيدان المعركـة مقاتلاً شريفًـا . . لم تمنعه معـركة الحيـاة والموت من أن يعـيش مشكلة زوجـتة التي قـرر طلاقهـا . . وهو في الميدان . . حتى تستطيع أن تدبر أمورها في بيت جديد؟!

وحتى لا يكون في إرجاء الطلاق إضرار بها . .

●●●

وأخوه: ينوب عنه في تدبير شئونه أثناء غيابه . . مـستجيبًا لأمر الشرع الذي يحكم الموقف كله . . بلا بذاء وبلا جفاء . .

والمطلقة نفسها تذهب إلى الحاكم تدافع عن نفسها وعن حقها . .

كل هذه الجهود . . أو هذه الأنهار: تصب في المحيط الكبير الذي ينطق بالحكم عدلاً . . وبالحكمة بالغة حد الكمال:

ومن حكمته (ﷺ) ذلك الاحتيـاط في الاعتداد . . الذي قرر أن يكون في بيت «عبد الله بن أم مكتوم» لا في بيت أم شريك . .

ومع تسليمنـا بطهارة الأعراق يومـئذ . . إلا أنه اليقين بضـراوة الغريزة التي يجب ألا نمكنهـا من أن تباشـر سلطاتها في لحظة من لحظات الـضعف الإنساني .

●●●

ولا يتركها (ﷺ) تغالب أمواج الأحزان وحدها ـ وإنما يظل معها حتى أخبرته بمن جاء يخطبها:

معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم. .

ويقلب (ﷺ) الأمر على وجهه. . صـارفًا نظرها عن كلا الرجلين. . ثم يختار لها «أسامة بن زيد» (رضي الله عنهم) أجمعين. .

●●●

الخيرة فيما اختاره الرسول:

رغم ترددها أول الأمـر. . في شأن زيد. . إلا أنهـا اقتنعت به زوجًـا بعدما رشحه الرسول مؤكدًا هذا الترشيح. .

وكان من بركته أن جعله الله (تعالى) زواجًا مباركا «اغتبطت به».

●●●

النبي أولى بالمؤمنين:

أجل. . إنه (ﷺ): أولى بالمؤمنين من أنفسهم:

فهو وصيّ. . كالأب على ولده القاصر.

وهو يبيع ويشتري. . عن البائع والمشتري.

فلو تعلقت رغبته بامرأة. . حلّت له.

●●●

الله يغني كلاً من سعته:

وقد أغنى «فاطمة بنت قيس» بأسامـة بن زيد. . عوضًا عما فقدت. . وجزاء ما قدمت. .

ثم كانت مثلا للزوجة الوفية. .

ومن وفائها: حكمتها في التعبير عن عواطفها في اللحظات الحرجة. .

والتي لم تفقد فيها توازنها . .

بل ظلت تتحـامل على نفسهـا . . حتى تجاوزت المحنة بسلام. لتـجد نفسها تحت واحد من شباب الأمة المرموقين:

أسامة بن زيد!

●●●

ولو قد علمت الأطراف المعنية تدبيـر الله (تعالى) لما كان هناك خلاف ولا إسفاف . . ولأحلنا القضيـة على الباب العالي . . وعنده (عز وجل) من التدبير . . ما يرتاح به الضمير.

●●●

وتبقى وصـيتـه (ﷺ) بالظفر بذات الدين . . تبـقى خير الـوصايا من حيث كان الدين خير عاصم من القواصم . .

●●●

أما بعد:

فقد ترددت فاطمة (رضي الله عنها) بادي الرأي . . بعدما رأت من هيئة «أسامة بن زيد» ما لا يعين على قبوله زوجًا.

●●●

ولقـد كرر الرسـول (ﷺ) أمره . . فكـان ذلك الأمر . . تلك الكلمـة الطيبة التـي أطلّت منها على فردوس الأسرة المستـقرة . . فصار هواها فـيما رضي الرسول لها.

●●●

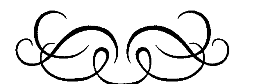
وقـد أكدت التـجـربة صدق نبـوءته (ﷺ) مـبدوءة بتـجـربة فاطمـة (رضي الله عنها) . . ومنتهـية بملايين التجـاريب التي وازن الخاطبـون فيهـا بين المظهر

والمخبـر . . فلم يترددوا في الانحـياز إلى القلوب العـامرة بالإيمان . . غـير مفتونين بالجيوب الطافحة بالأصفر الرنان!!

●●●

ألا إن الأعالي إن المظاهر . . لا تخيفنا . .

وإنما تخيفنا . . إنما تأسرنا: الأعماق!



ينظرون ..
لكنهم لا يبصرون

اشتــرطت الفتاة عــلى أهلها ـ قبل إتمام الخطبـة ـ أن ترىٰ خطيبــها من خلال النافذة!

فلما رأته حسبته فارس الأحلام. . من خلال عينيه الخضراوين؟!

ولهذا السبب وافقت على الفور. .

ومع أن العين قد تكون «خضراء الدمن» كما أن الفتاة الجميلة قد تكون خضراء الدمن: حسناء. . في منبت السوء. . إلا أن الزواج قد تم بسلام. . ثم عاشا في وئام. .

لكن يبقى ما نقوله تعليقًا على هذا الموقف. . وإتمامًا لحديثنا عن زواج فاطمة بنت قيس. . والتي ترددت في قبوله زوجًا بادئ الرأي:

●●●

نقول:

ماذا رأت الفتاة من خلال النافذة؟

رأت وجهًا صبوحًا. . وسمعت ضحكة آسرة؟

وماذا عن بقية أخلاق الفتى؟. . هذا الفتى الذي عناه الشاعر بقوله:

ولم أر أمـــثـــال الرجـــال تفــاوتًا   إلى المجـد.. حتى عُـد ألف بواحـد

●●●

ولكن. . لماذا كرهته. . قبل أن تكون قد عرفته؟

ذلك بأنه كان:

أسود..

وكان أفطس!!

●●●

ولا شك أن موجة من القلق راوحتها وغادتها.. وتدافعت أمواج أفكارها.. من السطح.. إلى السفح..

ثم قررت أن تعتذر. خارجة بهذا الاعتذار من طوفان من المشاعر التي تفاعلت في داخلها.. فكان هذا القرار..

لقد نظرت إلى أسامة بعين الراقد.. فلم تر شيئًا من حيث إنها وقفت عند الرغوة العائمة.. ونسيت أن من تحتها شرابًا طهورًا.. وإننا نستطيع أن نشرب سلسبيلا.. ممن تحفظنا عليهم.. ثم تكون عيوبهم زكاة عن هذا الذي ارتشفناه!

لقد كانت ذلك الذي عناه الشاعر القائل:

يا ناظرًا يرنو بعيني راقد

ومشاهدًا للأمر.. غير مشاهد

●●●

ويعينها المصطفى (ﷺ) على نفسها بقوله.. وللمرة الثانية:

«**انكحي أسامة بن زيد**».

لم يقل لها: اسمعي الكلام!

أدركي قدر من يخاطبك..

ولكنه (ﷺ) يعيد على سمعها اسم أسامة (رضي الله عنه).. فلعل في التذكار

ما يعين على نظرة مستـقبلية أعمق. . تتخطى القشـرة البادية. . لتتلمس ما في الأعماق من كنوز!

وهذا هو الذي حدث: قالت:

«فنكحته»

لقد أدركت. . وفي لحظة عاد إليها وعيها ـ أدركت أن الذي يأمرها هو محمد (ﷺ). . ذلك الرسول الذي يســاق المسلم إلى السياف. . ولا يصاب حتى بالرعاف!

إنه الرسول الذي هو بالمؤمنين رءوف رحيم.

(إذا حاورته. . وجدته حكيماً. .

وإذا غضب. . كان حليماً. .

وإذا ظفر. . كان كريماً. .

وإذا استُمنح. . مَنَح جسيماً. .

وإذا وعد. . وفى. . وإن كان الوعد عظيما. .

وإذا شكى إليه. . وجد رحيما)

●●●

ولقـد كان (ﷺ) في هذا الموقف: حكيـما. . حليـما. . سـمحـا. . كريما. . رءوفا. . رحيما. . حين اختار لها كفئها من الرجال: أسامة بن زيد (رضي الله عنه) وهذه صحيفة أعماله:

أ ـ عيّنه (ﷺ) على جيش وهو تحت العشرين. . سار به إلى الشام. . وكـان من جنود هذا الجـيش: عـمـر بن الخطاب (رضي الله عنه). . فـهـــو قـائد عسكري. . وابن قائد عسكري. .

ب ـ أمه: أم أيمن (رضي الله عنها)، والتي كانت حاضنة النبي (ﷺ).

جـ ـ وكان يسمَّى «حِب رسول الله» وقال فيه (ﷺ) فيما رواه ابن عمر:

«إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم.. فاستوصوا به خيراً».

هذا الحب الذي عبر عن نفسه في هذا الموقف الذي روته عائشة (رضي الله عنها) حين عثر «أسامة» بعتبة الدار. فشج في وجهه.. فقال لي:

(ﷺ): «**أميطي عنه**»(أزيلي ما على وجهه).

تقول عائشة:

فكأني استقذرته..

فجعل رسول الله يمصه. ثم يمجه).

●●●

أسامة الذي كان من حكمته وشجاعته الذي قال لعليّ (رضي الله عنه) في محنته: (لو أدخلت يدك في فم «تنيِّن» لأدخلت يدي معها.. ولكنك

قد سمعت ما قاله لي رسول الله (ﷺ) حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله.. وقد أعطيت الله عهدًا ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله.

●●●

وهذه هي «مواصفات» العروس الجديد.. وقبلها.. وفوقها.

شهادة الرسول الحبيب.. والذي ما أحبه إلا لهذه الخلائق الكريمة فيه..

●●●

وقد أكدت الحوادث صدق نبوءته (ﷺ). فيما شهدت به «فاطمة بنت

قيس» نفسها والقول ما قالت :

لقد قالت:

(فجعل الله فيه خيرًا اغتبطت به).

لقد صار بيتها «صَدَفة». . وكانت هي «الدرة الغالية» فيه . .



نعم: حلم جميل
لكنـــه مستحيل

انفض مجلس الصلح بين الزوجين على الاستمـساك بالميثاق الغليظ.. بعد معايشة دامت ربع قرن من الزمان..

ولكنهـا كلمـة قالتـها الزوجـة مـفادها: أن رجـوعـها إليـه من أجل الأولاد.. وفرارًا من قالة السوء يُشيعها العاذلون..

ومعنى ذلك أنه ليس طرفًا في القضيـة.. وإنها ما زالت على ضلالها القديم: بذاء وجفاء!

إن الزوجة هنا خائفة من أن تصـير في الحي «مطلقة» وذلك؛ عار تأباه كرامتها.. أما أن تجرب الحياة مرة أخرى. على نحو تلتئم به الجراح.. مع رفيق الكفاح.. أما هذا.. فلم يدخل في حسابها..

●●●

وكان طبيعيًا أن يتراجع الزوج في قراره .. بفراره من هذه التي عناها الشاعر:

أتت وحـيـاض الموت بيـني وبينهـا

وجادت بوصل.. حين لا ينفع الوصل!

●●●

وقلت للزوجة الناشز:

لا داعي لتلك الحساسيـة المفرطة: والطلاق وإن كان أبغض الحلال ..

إلا أنه حل إسـلامي.. حين لا يكـون سواه.. وفـي موقـفـنا الذي نعلق عليه.. ماذا نرىٰ؟

صحابي.. يطلق صحابية!!!

تزوجها على السنة. ثم ها هو يطلقهـا على السنة.. فأية غضاضة في هذا؟!

إننا نتحـفظ على حق الطلاق في يد الرجل.. إذا كان بـاعث التغيـير خوفًا أو طمعًا..

أما إذا كان نتـيجة لتأملات وتجـاريب.. تفرض علينا التغييـر.. فهو الشر الذي لا بد منه: وذلك شأن الزواج في وجدان المسلم الملتزم..

إنه الفرق بين: العشق.. والود..

وإذا كـان «العشق» أسـهل.. لأنه لا يتطلـب منه «اللطف» إلا بعض الوقت.. فإن الزواج أبعد مدىً.. لأنه يتطلب اللطف «كل الوقت»..

فإذا تعذر.. كان لا بد من الفراق.. والذي يتم بلا حسلسية؛ لأن الله (تعـالىٰ) هو الذي يزوِّج وهو الـذي يطلق: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا...﴾ [التحريم: ٥].

وقلت للزوجة: صحيح أن المجتمع يظلم المطلقة أحيانًا.. محمِّلًا إياها مسئولية ما حدث..

ولكننا نقـول: لماذا لا يتـحمـل الزوجان المسـئولية مـعًـا.. وبنفس المقدار..

قد تكون الكلمة الأخيـرة من قبل الزوجة.. فكانت في سلسلة لنزاع القشة التي قصمت ظهر البعيـر.. ولكن الشجرة الضخمة لا تسقط بالضربة الأخيرة..

وتصوروا مشهد شجرة «الصنوبر»:

إنها تضرب مائة مرة.. ولكنها لا تقع إلا عند الضربة المائة..

فهل تقول: إنها سقطت بها وحدها؟!

لا.. بل إن سقوطها بدأ عند الضربة الأولى!

●●●

وقلت للزوجة الغاضبة:

انظري إلى هذا «النجار» الذي يتصبب جبينه عرقًا.. في محاولته التوفيق بين ناحيتي النافذة.. تلك المحاولة التي باءت بالفشل.. لماذا؟

لأن طرفي النافذة: كلاهما كان تصميمه «يمين» فهو في حاجة إلى قسيم «شمال» يتحقق بها التجانس.. فالتكامل... فالتعاون على تحقيق الهدف..

ومن معاني ذلك أنه: لا حساسية .. إذا تم الطلاق:

فقد يكون كل من الزوج والزوجة على غاية ما يكون الكمال والجمال.. ولكن عنصر الانسجام مفقود..

وإذن.. فليس هناك من سبيل إلا فك الارتباط.. ليبحث كل طرف عن نصفه الملائم الموائم.. على ما يقول الشاعر:

أرى وجهًا: كضوء الفجر مبيضًا

وشعرًا كلون الليل: مسودًا

ضدان: لما جمِّعَا.. حسنا

والضد يظهر حسنه الضد!

ماذا حدث:

هناك بعض التفصيلات في رواية ابن كثير والذي روي:

(حدثنا عامر قال:

قدمت المدينة. فأتيت فاطمة بنت قيس. فحدثتني أن زوجها طلقها..

على عهد رسول الله (ﷺ).

فبعثه رسول الله (ﷺ) في سرية. قالت:

فقال لي أخوه:

أخرجي من الدار.. فقلت:

إن لي نفقة وسكني حتى يحل الأجل.

قال: لا.. قالت:

فأتيت رسول الله (ﷺ) فقلت: إن فلانًا طلقني - وإن أخاه أخرجني. ومنعني السكنى والنفقة..

فأرسل الرسول إليه فقال:

«**مالك ولابنة آل قيس؟**».

فقال: يا رسـول الله: إن أخي طلقها ثلاثًا جـميعًا. فـقال رسول الله (ﷺ): «**انظري يا بنت آل قيس: إنما النفقة والسكنى لـلمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة. فإذا لم يكن عليها رجعة.. فلا نفقة ولا سكنى**».

●●●

وهكذا يتم الخلاص في هدوء لا تسمع فيه هجرًا.. ولا ترى نكرا..

وإنما هناك ضـمـانة العـدل وهو الرسـول (ﷺ).. والذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم.. يتحمل مسئولية الموقف كلها..

ليكون حكمه في النهاية فصل الخطاب..

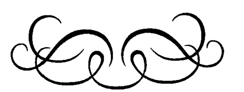
ذلك بأن مما يزيد الموقف تعقيدًا هو ما يحـدث اليوم من تعدد وجهات النظر . . وكثرة الفضوليين الذن لا ناقة لهم في القضية ولا جمل . .

وما يتـرتب على ذلك من تداخل المفاهيم . . في حربً سـجال . . لا تهدأ إلا لتبدأ من جديد . .

ولن يطفئ نارها إلا «كبير العائلة» الذي يقرر أن الحب العقلي : يمكن العدل فيه : التحكم فيه . .

أما وَلَهُ القلوب فقد يصعب التحكم فيها . .

وأحـيـانًا يحكم العـقل بإمكان تحـقق الحلم الجـمـيل . . ولكنه بلغـة القلوب : مستحيل!



إذا راح منا سيد قام سيد!

كانت الزوجة سيئة الخلق. . لم ير منها زوجها يومًا يبكي عليه!

ومع ذلك فقد صبر عـلى مضايقاتها. . مقهورًا بسوء عـشرتها على ما يقول الشاعر:

وصَاحب كالدمّل الممد حملته في قطعة من جلدي

ورفض الزوج المظلوم فكرة الـطلاق. . رغم توفر دواعـيـه. وفقـدان عاذليه. .

كل ما فعله هو كلما نزغها منه نزغ أنشد:

وإني لمشتاق إلى موت زوجتي

ولكنْ قرين السوء: باق معمرٌ

فياليتها في القبر كانت ضجيعة

يعذبها فيه منكر ونكير!

ولكن «أبا عمر بن حفص» طلق «فاطمة بنت قيس».

وفي الوقت الذي كانت ترقب عـودته من أرض المعركة منتـصرًا إذا به يرسل إليها «ورقة الطلاق» فكانت الصدمة التي لا تطاق!

وإذا كان هناك من الزوجات من غاب نجم سـرورها فحزنت لغيابه. . فإن «فـاطمة بنت قـيس» لم يطلع نجم سرورها بالمرة حين كـانت صدمتـها صدمتين. .

وإن كان لزميلة لها نفس ظروفها دموع تحدرت على وجهها... فإن دمع.. «فاطمة» مخزون يحرقها في أضلعها.

•••

ضراوة:

ولقد عبّرت عن المعركة في أعمقاها برفض الشعير من مطلقها الذي جمع عليها مصيبتين:

مصيبة الطلاق. ومصيبة الإهانة حين طلقها غيابيًا.

وحين كان «الشعير» متعتها.. التي لم تتمتع بها!

وأحيانًا.. يكون «التساهل» هو الوجه القبيح للتسامح! من أجل ذلك.. لم تسامح.. ثم ذهبت إلى النبي ﷺ تشكو إليه بثها وحزنها.. ولم يكن الحكم هنا لصالحها.. ومع ذلك فقد رضيت به.. لأنه حكم رسول الله ﷺ.

•••

تأمين مستقبل المطلقة:

ولكن.. يبقى مستقبل «المطلقة» فماذا أعددنا له؟

وأذكر هنا مشهد الدار في قريتي عندما ماتت سيدته:

لقد بكى الجميع، إلا رب الدار الذي بدا صامتًا كئيبًا.. لأنه كان مشغولاً بمستقبل الصغار..

وإذا وجد اليوم من يبكي من أجله.. فإن المصيبة الحقيقية حين يعود

المعزون إلى ديارهــم . . ليواجه الوضع الجـديد وحده. ليـرى البستـان وقد صوحت أغصانه . . وطارت حمامته . . فلا هديل . . ولا بديل!

نفس هذا المعنى نذكره . . وقلوبنا تطير الآن من ضلوعـها بينما «فاطمة بنت قيس» تتجاوز عتبة الدار بلا تحية ولا وداع!

ولكن الرسول ﷺ يظل معها رؤوفًا رحيمًا:

أمـرها أن تعـتد في بيت «عـبـد الله بن أم مكتـوم» . . لا في بيت أم شريك الذي يغشاه الصحابة . .

ومع التسليم بطهارة القلوب . . كل القلوب يومئذ . . إلا أنها لفتة نبوية قوية إلى ضـرورة الاحتيـاط . . فرارًا من كـيد الشيطان الذي مـا يفتـأ يكيد للإنسان حتى في أطهر بيئة عرفتها الحياة.

•••

بل إن كـيد الشـيطان ليدق وبالذات في الجـو الطاهر . . لعله يقـتنص صيدًا ثمـينًا يهز به بناء الإسلام . . حين تكون ضربـته في الخشب . . لا في السلب!

•••

وحتى لا تشـعر فـاطمة بالاغـتراب يوصيـها بإعـلامه . . عند انتـهاء عدتها . .

ولا شك أنها الرحمة والرأفة . . وكـانت أحق بها وأهلها «مطلقة» كان اسمها بالأمس: الروح . . والقمر . .

أما اليوم فهي مجـرد «فاطمة» يعود إليها اسمهـا الحقيقي والذي غاب

أيامًا في زحمة الانفعالات..

لقـد عـاشت من قبـل عاطفـة الحب.. الذي كـان هو البـداية، وإذا بقيامتها اليوم تقوم: بالطلاق الذي أنهى هذه البداية! لقد كان الزوج من قبل يفتح عليها عينيه.. ثم إذا هو اليوم يغمضها.. وكأن شيئًا لم يكن!

وأحيانًا تكون أحزان البرايا.. مطايًا.. تقودهم إلى ما لا تحمد عقباه

•••

ولقد كان من سـعادة «فاطمة» ﷺ أن تكون من الرسـول في سويداء قلبه..

وإذا مرت أيام.. العدة.. بطيئة ثقـيلة.. فقد انتهت على أي حال.. لتذهب إليه ﷺ.. لتوفي بعهدها بأخباره.. حتى يتصرف!

•••

ولقـد أخبـرته أن اثنين من رموز المجـتمع تقـدما لخطبـتهـا.. ويعني ذلك.. أن ليل الهموم قد انجلى عن ضوء النهـار.. وأن تجربتها التي كانت مفعمة بحرارة المعاناة اليومية.. صـارت اليوم كتابًا منقوشًا في طبعة جديدة على لوحها الحـساس!ولكنها لا تريد أن تنفرد في القضـية بقرار. ذلك بإن فشل التـجربة الأولى.. قد تتـحمله النفـوس.. على رجاء عوض جـميل جديد..

ولكن فشل التجربة الثانية.. يَـنْكَأ الجراح.. ولا أمل فيها للنجاح.. من أجل ذلك تعرض عليه ﷺ أسماء من تقدموا لخطبتها.

•••

ولقد كان ﷺ نعم الولي.. الذي يختار لابنته أفضل ما يليق بها..

ومع تقديره ﷺ للـرجلين كليهمـا.. إلا أنه ينوب عنها في الاعـتذار إليهمـا.. حماية لها من تجـربة لو تمت.. فسوف تجعل حـياتها جحـيمًا لا يطاق:

فمع التقدير الكامل لمعـاوية.. إلا أنه فقير.. ثم «لأبي الجهم».. إلا أنه عنيف!

ولما كان المسـتشار مؤتمنًا.. فـقد كان ﷺ طليعـة المؤتمنين الواقفين مع «المطلقة».. التي يجب أن نختار لها من يملأ حياتها.. لتستأنفها من جديد.

وكان هو «أسـامة بن زيد» رضي الله عنه.. والذي كان «مقـاتلاً» يخلف اليوم مقاتلاً في مملكته.. وصدق الله العظيم

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾.



الاختلاف الوبيل ومحاولة نزع الفتيل

تظل الأسرة مستقرة مستمرة.. ما دارت على محورين: المودة.. والرحمة.. ليتحقق بهما معًا: السكن المنشود.

•••

ولكن قد تطرأ عوامل.. لم تكن في حساب.. تحاول أن تشوه هذا الجمال.. أو أن تسلب ذلك الكمال.

وإذن فباسم هذه الرحمة.. وتلك المودة. ينبغي أن تهب كل الأطراف المعنية.. حتى تستقر السفينة التي تلعب بها الأمواج.. وقبل أن تواجه الأعاصير: ويتم ذلك عبر مراحل ثلاث:

أ ـ مسئولية الزوج الذي يمسك بالمجداف بحكم قوامته ورجولته.. وذلك قوله تعالى ﴿**وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ**..﴾. [النساء: ٣٤].

ب ـ مسئولية الأسرتين التي تفرض عليهما انتخاب حكمين في محاولة لرأب الصدع.. وردع الطرف المستبد.. والذي يحاول بالاستبداد أن يحيط نفسه بقضبان من التفاليد تجعله فوق النقد. وفوق المساءلة.

﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا**﴾. [النساء: ٣٥].

ويعني ذلك: أن تدخل الحكمين لا يكون مبكرًا.. وعند بادرة الخلاف الأولى.. ولكن عندما يوشك الطرفان أن يتنافضا كل في ناحية يناوئ صاحبه.

وذلك.. يتيح للزوجين فرصة يتفاهمان معًا فيها أو لا وبمعزل عن كل الأقربين والأبعدين..

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. [النساء: ١٢٨].

•••

وعندما تستعلي الزوجة على محنتها بهذه المبادرة الإيجابية مع الزوج.. تكون أعقل من تلك التي فقدت مقاومتها واستسلمت لبوادر اليأس القاتل.. قائلة:

نفد الدمع على طول البكا

فاستعار الحب لحمي ودمي

أنا والآلام تستهدفني

نادم.. لوكان يغني ندمي

قد كرهت النوم حتى أنني

لو أتاني طيفكم لم أنم!

إن الطلاق عملية طويلة تنتهي به «شركة زوجية». كان من الأفضل للمجتمع أن تبقى..

إنها عملـية إنسانية ملتزمـة بالصبر وبالحكمة والأناة وهي تـتخذ نفس المراحل المقابلة لعملية الزواج نفسها:

من طول البـحث. وحسن النيـة. واستبـعاد فكرة التـفريق. وحـشد الأقرباء، والأصدقاء في سبيل إعادة دعم هذه «الشركة الزوجية» بكل وسائل إنقاذها من «الإفلاس».. قبل التوقف عند النهاية المكروهه أخيراً وهي.

ضرورة التفريق.. أو الطلاق.

●●●

فإذا استنفـدت كل الجهود.. ووصلت العلاقـة إلى طريق مسدود .. كان لا بد من غضبة مضرية لحمايتها.

من السقوط.. هذا السقوط المحتمل. والذي يجد فيه كل من الطرفين نفسه بين شقي الرحى:

إمـا الانفلات وتحـطيم كل القـيود.. وإمـا الإحـباط وتراكـم العقـد النفسية. ثم ليكون الفراق بعد ذلك: الكيّ.. وهو آخر الدواء الذي لا مفر منه وإن كان مر المذاق.

●●●

إنه الطلاق:

[الذي تقطع به شـجرة المودة والرحمـة والذرية في آية من أعظم آيات الله ـ وتجريدها من ظلهـا المؤنس.. وتشريد من كان حـقهم أن يفيـئوا إلى ظلها من الأبنـاء والبنات ثم.. قطع كل تلك الأواصر. التي جـمع الله بها الزواج بين أهل الزوجين وأصدقائهما.

لكي لا يبـقى من حصـاده إلا هذه الذكريات الأليـمة. التي يـتركـها الفراق والطلاق. . لتجـتر ذاكرة الزوجين. . وهما يتذكـران ـ كلما تذكرا ـ بعد صـمت العاصفـة. . ذلك الجرح. . أو تلك الجراح. التي أصـابت كلاً منهـما. . نتـيجـة سقـوط بيت قبل أن يتم. وفـشل زواج دون أن يوفق. . وانطفاء جذوة مقدسة ومطهرة. . قبل أن تضيء ما حولها].

•••

وهذا هو حصاد الهـشيم. . متمثلاً فـي تلك الصورة الكابية. . ولعل في تمليها ما يزهد الغاضبين فيها

•••

وعجيب أمر المتسرعين:

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٢ / ٣].

ومن الذكر:

أننا ندعو الله تعالى.. فيستجيب لنا..

أما حين يدعونا سبحانه. . فإن خطانا تبدو متثاقلة وفي غمرة انفعالاتنا ننسى هذا. . أو نتناساه لاهين لاعـبين. . غافلين عن عقبى عـبادتنا أهواءنا معـرضين عن الدواء الذي يخلصنا من صدام العـواطف ومن الدواء. . هذا الدعاء الذي كان يكثر منه ﷺ:

[يا مقلب القـلوب: ثبت قلبي على دينك وطاعتك]. فـهل دعونا الله تعالى أن يثبت قلوبنا. . حتى لا نطرد أعزاءنا. . ونيتم أكبادنا؟

لقد كان العالِم يبدأ الحديث مخلصًا. . وأثناء دراسته يعترضه ما يغير نيته. . وإذن فالحديث الواحد يحتاج إلى مجموعة من النوايا تواكب المحدث حتى ينتهي من حديثه. .

وكـذلك الزوج. . والزوجة: فـليكونا على حـذر من تقلب القلوب. ذلك بأن القلوب مثل ريشـة تقلبها الريح ظهـرًا لبطن. . والأزواج مطالبون باتقاء الفـتنة. . باللجأ إلى مقـلب القلوب سبحـانه. . والذي لا يخيب من رجاه. . ولا يرده يديه صفرًا.



إنما الكأس للأسَدّ وليس للأشد

إذا كان الشيطان الرجيم أشد فرحًا بالطلاق.. فلماذا نسعده بهذا الطلاق؟!

إن تشريعات الإسلام.. حتى بعد وقوعه تجعل من الزواج الأول: القاعدة.. والطلاق استثناء..

فالمطلقة.. تعتد في بيت الزوجية.. على مرأى ومسمع ممن يطلقها ثم.. لا بأس أن تتزين له..

والعود الحميد إليه سهل ميسور.. وبكلمة واحدة.. ترجع إليه.. كأن شيئًا لم يكن!

وهكذا.. يحاول الإسلام أن يرأب الصدع.. ويصلح ما أفسد العطار.. بتهيئة الجو لهذا العود الحميد.. والذي نبل به أرحامنا: نندي به على ما أيبسته الأيام.. مع زوجة عرفتنا.. وعرفناها.

•••

ورحم الله «محمد بن سيرين»

لقد ولد له ثلاثون ولدًا.. ومن زوجة واحدة، وكان سعيدًا بهذه الصاحبة.. والتي كان الولد تقوية للعلاقة الزوجية والتي تنامت مع الأيام بهذا العدد الوفير من البنين والبنات.

لقد عنى الإسلام بكل علاقة إنسانية.. وهو على علاقة الزوجية أشد

حرصًا.. لأنها الأساس..

ومن التوجيهات العملية هنا:

أفضل الدراهم ما أنفقته على نفسك.. ثم على أهلك.

ونستطيع في ضوء هذا التوجيه أن نهز ضمير الزوج عاتبين:

لمن تكون ابمتسامتك؟.. ودعابتك؟.. وأطيب وقتك؟ للزوجة طبعًا..

●●●

قد تسول لك نفسك أنها غير جديرة بحبك؟

لماذا؟ (لعيب في الخُلق أو الخلقْ مما لا يعد ذنبًا لهن لأن أمره ليس في أيديهن.

فاصبر.. ولا تتعجل في اتخاذ قرار الطلاق.. فقد يكون في بقاء الزوجة خير.. بل خير كثير.. وأعلى الخير: [الأولاد النجباء].

فرب زوجة يملكها زوجها. ويكرهها.. ثم يجيئه منها ما تقر به عينه من الأولاد النجباء.. فيعلو قدرها عندها بذلك.

نعم الإله على العباد كثيرة.. وأجلهن نجابة الأولاد:

ومنها: أن يصلح حالها بصبره.. وحسن معاشرته.. فتكون أعظم أسباب هناءته.. بانتظام معيشته. وحسن خدمته.. لا سيما إذا أصيب بالأمراض والفقر والعوز.

فكثيرًا ما يكره الرجل إمرأته لبطره بصحته وغناه.. بإعتقاده أنه قادر

على أن على أن يتمتع بخير منها وأجمل].

يفعل هذا.. ناسيًا أن الصواب الأَسَدّ لا في الأشد! وأن للأمور بغتات.. وعليه أن يكون منها على حذر.

[ومن الأدلة على أن الإنسان مصرّف مغلوب.. ومدبر أن يتبلد رأيه في بعض الخطوب. ويعمى عليه الصواب المطلق].

•••

[إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكنًا وأمنًا وسلامًا.. وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسًا.. ويقيم هذه الآخيرة على الاختيار المطلق.. كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب.. هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج «**فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا**».. كي يستأني بعقدة الزوجية.. فلا تقصم لأول نزوة.

وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها.. فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة.. وحماقة الميل الطائر هنا وهناك.

.. إن في الحياة من المروءة والنبل والتجمل والاحتمال ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط ذليل]

•••

وفي مجالس الصلح.. كنت أنصح الزوج الفائر الثائر:

[فرأيت أنه لا يقبل النصيحة.. وأن نَفَسِي الحارة لا تؤثر في حديده البارد]!

وكنت أقول ما قاله الحكماء:

[بلغ ما عليك فإن لم يقبلوا.. فما عليك].

[قل كل ما تعرفه من النصيحة والموعظة.. ولو عرفت أنهم لا يسمعون لك.

فقد ترى غدًا أن العنيد قد وقع برجليه في القيد ثم يضرب كفًا بكف قائلاً:

وا أسفاه.. لم أسمع حديث العالم].

•••

ومن حديث العالم قوله:

[يجب على الرجل الذي يكره زوجته أن يتذكر أنه لا يخلو من عيب تصبر إمرأته عليه في الحال غيرما وطنت نفسها عليه في الاستقبال].

وكلا الزوجين محتاج إلى مودة الآخر..

فإن نفد رصيد المودة.. تقدمت الرحمة تنشر ظلها... فإذا الصبر ضياء كاشف.. واصل بالأسرة كلها إلى بر الأمان..

ليس في ذلك البيت فقط وإنما في كل شئ يبدو لنا مكروهًا قد يعقبه خير كثير ولذلك قال عز وجل..

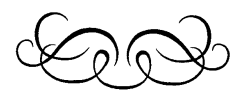
[**وعسى أن تكرهوا شيئًا**]ولم يقل وعسى أن تكرهوا زوجة.

•••

ويبقى أن يدرك الزوج.. الأسيان الغضبان.. أن الشمل اليوم

جميع.. وأن الزوجة.. والذرية.. بين يـديك الآن. فإن تفرق هذا الشمل الجميع.. بالقرار الوجيع.. وإذا كانت رجولتك تسول لك الانتقام.. فتذكر ما قاله البصراء محذرين:

[إن الشجرة التي تنفض ثمارها في فصل الربيع لا جرم أن تبقى جرداء في فصل الشتاء].



من متعة المادة .. إلى نعيم المودة

كان على «البركان» أن يدرك: أن الأعـشاب من حوله يمكن أن يقضي عليها بزفيره فقط..

وإذن.. فلا داعي للحمم اللاهبـة الهائلة؟! لا داعي لأن تكون طويل اللسـان.. قاتل الكلمـات.. مادام في إمـكانك أن تنبه الغـافل الذاهل.. بالكلمة الحانية!

•••

قلت للزوجـة التي جاءت من أقـصى المدينة تسعى بـاكية.. تـعرض مشكلتها.

لقد رأت زوجـها.. وبعيني رأسهـا.. رأته يترك اللحم الطيب.. ثم يُؤثر عليه ذلك اللحم النيئ؟!

لقد انتـصر القبح على الجـمال.. وصار الأمـر فوق الاحتمـال، وقد أفتاها الفاقهون.. أن تعتزله مع أولادها.. فلا عيش معه من بعد فعلته التي فعل!!

•••

وقلت لها:

إذا كان زوجك يـنطح من عمره«الخـمسين».. وإذا لم يصـدر منه من قبل ما يشين.. ثم إذا كانت رفيقته فرضت عليه فرضًا ولم يسع هو إليها..

إذا كان «الأمر كذلك: فهو غير محترف..»

لقد فـرضت عليه المعركـة فرضًا.. وكـان ذلك.. ذنبه الأول.. وإذا كان الخـالق سبـحانه وتعـالى لا يعذب مـخلوقه بالذنب الأول.. فـأحرى بالمخلوق أن يعفو..

إن الطلاق لن يكون هو الحل.. ما دامت هناك حلول أخرى..
ومن هذه الحلول:

أنه إذا تسـرب الود.. فقد بـقيت الرحمـة التي يجـبر الله بها الـكسر فارحميه.. فلعلك بالرحمة أن تنقذيه:

[إن المعروف. والجـميل. والحـسنى. يجب أن تســود جو هذه الحـياة سواء اتصلت حبالها. أو انفصمت عراها.

ولا يجـوز أن تكون نية الإعنات والإيـذاء عنصرًا من عناصـرها، ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حال الانفصال.. إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضـية.. عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن.. ويوسع من آفاق الحياة ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير هو :

عنصر الإيمان بالله واليوم الآخر].

•••

فلنطو هذه الصفحة من عمـرنا.. مع ضرورة الحذر والمتابعة على حد قول الشاعر:

ينام بإحدى مقتليه.. ويتقى

بأخرى المنايا: فهو يقظان نائم

ولقد تحققت النبوءة.. وصحـا النائم.. صحا الزوج العائد العائذ بالله تعالى مما حدث.. مدركًا إلى أي حد كـان الفارق هائلاً بين: متعة المادة.. ونعيم المودة!

•••

ولم يكن الزوج هو الفائز وحده بنعيم المودة.. ولكن الزوجة والأولاد ... كذلك... والدرس الأكبر هنا هو:

أن في اســـتطاعـــة الزوجـة أن تـتـجـــاوز لحظات الخطـر بمزيد من الاصطبار.. يطلع به النهار..

ذلك بأن الحياة الـزوجية لا يمكن أن تسير على وتـيرة واحدة.. والمهم ألا نستكين لمفاجآتها.. وأن نجعل من الحِلم ركوبًا إلى حياة جديدة سعيدة.

وإذا كان هناك من يسـتسلم لليأس: يقف على أنقاض عـمره: ينصت في الليل إلى دقات قلبه.. ويسـترق السمع إلى رئتيه.. يقـيس المسافة بين غـرفة نومـه.. وقبـره.. إذا كان هناك من يـنظر إلى بيتـه.. لا من ثقب الباب.. وإنما من قلب مثقوب.

إذا كان هناك مـن يفعل ذلك.. فإنهـم مدعون إلى عـود حمـيد إلى تاريخنا المجيد.. ليروا من مواقفه شاهد صدق على ما نقول:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤدبون نساءهم.. ويضربونهن:

هذا الزبير بن العوام ـ حواري رسـول الله ﷺ وابن عمته ـ وثب على امرأته أسماء بنت أبي بكر وهي أفضل نساء زمـانها. فضربها في شئ عتب عليها فيه ضربًا مبرحًا.. حتى كسر يدها.

وهذا كـعب بن مـالك الأنصاري. . عـتب على امـرأته وكـانت من المهاجرات. . فضربها. . حتى حال بنوها بينه وبينها. . فقال:

فلولا بنوها حولها لخبطتها.

قال الراوي :

فسرّى عن موسى الغضب! وطابت نفـسه ودعا بالطعام. فأكلنا. وكأن شيئًا لم يكن!

•••

وقد كـان هناك حكماء رحـماء. . يدركـون دقة العـلاقة الزوجـية. . وقدسيتها. . فوصلوها. . بعدما قطعوها.

ذكروا أن عبـد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ كانت عنـده عائلة بنت زيد بن عمرو بن نفيل. . فأحبها حبًا شديدًا. .

ويبـدو أن الصديق خـاف عليـه من فتـنة الحب الذي يوشك أن يكون هيامًا. . فأمره بتطليقها.

ولأنه يريد الإصلاح و لا يريدا لتشقى. . فقـد أمره أن يطلقها تطليقة واحدة. . ففعل. . ثم ندم عبد الرحمن ندمًا عبر عنه شعرًا فقال:

فلم أر مثلى طلق اليـــوم مثلها

ولا مثلها في غير جـرم تطلق

لها خلق سهل وحسن ومنصب

وخلق سوى ما يعاب ومنطق

أعـــانك: كل يـــــوم وليــــلة

إليك بما تخفى القلوب معــلق

أعاتك: ما أنساك.. ماذر شارق

وما لاح نجم في السماء محلق

فلما سمع أبو بكر ذلك رق له وأمره بمراجعتها!!



حتى لا تذهب أمانينا.. وبأيدينا

يقول الحق سبحانه وتعالى:
﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(١). [النور: ١٢].

●●●

تمهيد:

كان للقرآن حضور عميق في وجدان المسلم: يتلقى توجيهًا بالتسليم: فلا يقول إلا حقًا.. ولا يصنع إلا عدلاً.. فإذا كان المسلم زوجًا.. كان على غاية ما يكون الالتزام بما يشير إليه القرآن من أحكام:

وقد سمع واحد عن زوجته شرًا.. فاستحضر هذه الآية الكريمة في وعيه.. وعلى ضوئها رد فرية من أبلغه قائلاً:

أنا مؤمن.. ولأنني مؤمن.. لا أفعل هذا الشر وزوجتي كذلك: مؤمنة.. ولذلك فهي بحكم إيمانها لا يصدر عنها ذلك الشر.. وإذن فكل ما يبلغني عنها.. كذب!

وانتهت المؤامرة بتصدي هذا الزوج الواعي لمن أراد به وبأهله شرًا!!

●●●

---
(١) النور: ١٢ .

لقد كـان قلب الزوج هنا مثل قـارورة الزجاج ترتطم به الشـائعات ثم ترتد حسيرة دون أن تؤثر فيه . .

ولم يشأ أن يكون قلبه مثل «الاسفنـجة» التي تمتص ما يرد إليها . . ثم تختزنه ! !

إن شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا يريدون بذلك حل عقدة النكاح بما يوسوسون به من همزات وشائعات . .

ونحن مـحـتـاجـون إلى زوج من هذا الطراز . . الحـافظين للود . . الرافضين للوشاية فارين بهذه الثقة من عقبى سوء الظن . . وهي استحالة أن تعود الزجاجة بعد الكسر إلى سابق عهدها :

ولست براجع ما فات مني

بلهف. رلا بليت. ولا لو أني

•••

إن هذا الميثـاق الغليظ أقوى من أن تنحل عقـدته بكلمة طائشة عـابثة ماكرة . .

ذلك بأن عقدة النكاح ولدت . . لتبـقى . . ولا يستطيع - حتى الموت - أن يحلها .

•••

وإذا كان الزوجان مكلفين . . بالتـصدي لكل محاولة تستـهدف سلامة بيتهما . . وذات بينهما . . فلا ينبغي أن يصير ذلك «شماعة» نعلق عليها كل أخطائنا . . اللاتي صنعناها بأيدينا . . ذلك بأن المشكلات قد تهب أعاصيرها

من داخل البيت نفسه. . وباستسلام الزوجين لموجة الترف. . زهدًا في حياة البســاطة، وما يتـرتب على ذلك من آثار تنعكس على كل مـا في البيت. . ومن فيه رجومًا وغيومًا. .

بمعنى أننا ـ أحـيانًا على الأقـل ـ لا يجمل بنا أن نبـحث عن أسبـاب الطلاق خارج ذواتنا. . فقد نكون نحن الذين مهـدنا لها السبيل. . حتى لم يعد للنجاة منها سبيل!

•••

وهذه واحدة من تجارب الحياة. . نقدمها تبصرة وذكرى:

يحكي واحد من الأزواج تجربته.. فيقول:

بعـد زواجي في الخامـسة والعشـرين من عـمري. . عشت وزوجـتي أجمل سنوات عـمري كانت أحـلامنا ـ زوجتي وأنا ـ صغـيرة، لا تزيد عن شراء جهاز تليفزيون. ثلاجة. الجلوس في العـصاري في حديقة عامة ومعنا قليل من الغذاء، ذات مرة حلمنا أن نمتلك سيارة صغيرة مستعملة، فضحكنا حتى الثمـالة من هذا الحليم المستحـيل، وخلال عشر سنوات زواج سـعيد، رزقنا بثلاثة أولاد، كانوا قـرة عيني، ومصدر سعادتي. وجـاءني عقد عمل في إحـدى الدول العربيـة، وأسـعدني هذا العـقد، وقـلت المقولة المصـرية الخالدة: هذا رزق أولادي!!

كانت شروط العقد أن أسافر وحدي دون أسرتي. وأحصل على إجازة سنوية لا تزيد على ثلاثة أسـابيع في العام، وفكرت أن أقـضي عدة سنوات قليلة أعود بعدها إلى أسـرتي ومعي سيارة وقليل أو كثـير من المال في أحد البنوك. وتركت زوجتي الجميلة وأجمل أطفال في الدنيا.

مـعذرة. . لقـد جرفنـي معـه تيار الطمع، فـبـدلاً من تلك السنوات القليلة، قضيت بقـية عمري أسبح في هذا التيـار المدمر، وتركني العمل أو تركته وعدت للإقـامة الدائمة، كهل في الستين، أملك مالاً وفـيرًا، وأحتاج لرعاية كثيرة. فماذا حدث؟

وجدت نفسي غريبًا في بيـتي، لأولادي عالمهم الخاص الذي لا يجوز لي أن أقتـحمه. لزوجتي صـديقات وأسلوب جديد في الحـياة لا مكان لي فيه.

وجدت ـ يا سيدي ـ الصمت هو حوارنا.

وجـدت في عـيون أسـرتي السـعـادة عندمـا أقضي بضـعـة أيام في الإسكندرية وحدي.

أرى الغـضب في عـيـون أسرتـي إذا جاء لي صـديق، وأحـسـست بالوحدة، والغربة، في بيتي وداخل أسرتي.

ومع مرور الأيام، ومع شدة ضعف صـحتي، لم يعد لي الحق أن أرد على تليفون، أن أدعو صديقًا لبـيتي، أن أحاور أفراد أسرتي أو أعرف عنهم شيئًا. وأعـيش بقية أيامي ـ في هذه الوحدة القاتلة والغربة الكئـيبة وحدي ـ أجتر ذكريات عشر سنوات، قضيتـها في سعادة غامرة أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة، تحت الأشجـار وفي الحدائق العامة، ومعنا قليل من الغـذاء، وكثير **من الحب، وأحلام صغيرة!!!**

أما بعد:

فقد كان الحب الكبير في بيت الفلاحـة البسيطة. . التي خلا بيتها من كل جهاز حديث. . ولكنه حافل بأطيب الحديث. .

لقد كانت هذه «الفلاحة» عاملة

تعمل مع زوجها. . وهذا شرفها

وفي أرضها. . وهذا عزها

منتسبة إلى زوجها. . وهذا هو انتماؤها ووفاؤها. ثم هو العمل «الواجب» وليس هو العمل «الحق»

•••

إنها عنقود من القيم تسعد به البيوت. . والحب فيها لا يموت!



إصلاح ذات البين وسعادة الزوجين

●●●

خمس وعشرون ألف رسالة.. تصل يوميًا إلى ممثلة الإغراء ومع ذلك تعلن: أنها تحس بالوحدة القاتلة:

وتصوروا هذا العـدد الضخم الذي يملأ حياتهـا.. لا يطرد الإحساس بالاغتراب وحتى مع وفرة الأحباب!

ذلك بأن المعجبين هنا فارغون.. يعيـشون مثلها خواء روحيًا.. أرادوا أن يملأوه بالتملق.. مع أنه لا يمتلئ إلا باليـقين.. ولا يقين هناك.. وفاقد الشئ لا يعطيه..

إنها مدرسة الفتنة بالحياة الدنيـا تقيم حساباتها على أساس خاطئ هو: أنه لا حياة بعـد هذه الحياة.. فذاقوا وبال أمرهم في الدنيـا قبل أن يذوقوه هناك..

●●●

إذن.. فوفرة النعيم.. لم تجلب على أهلهـا إلا العذاب القيم.. بينما كانـت المرأة الراضيـة القانعـة.. أكبر سـعادة.. وأقـدر على اتخاذ الـقرار السليم.. لتـصبح في رضاها، وفي سكناها بيـتًا خـاليًا من حبـة القمح.. وحـبة الـدواء.. لتصـبح أغنى بهـذا الرضـا وهذا الاسـتعـلاء حـتى على الضرورات...

ثم لتكون زوجـة صالحـة مـصلحة.. حـتى في ظل رجل واحـد هو

زوجها.. الذي لا يملك نقيرًا ولا قطميرًا.

شكَتّ «أم الدرداء» إلى زوجهـا «أبي الدرداء» شكت إليه الحـاجة إلى الدقيق يومًا.. لم تكن من دأبها أن تشكو حتى من فراغ بيتها من ضرورياته المعيـشيـة.. ولكنها تجأر اليـوم بالشكوى بعد أن اخـتفى من البـيت رغيف العيش...

ويجيبها أبو الدرداء قائلاً:

اصبري.. فإن أمامنا عقبـة كئودًا.. لا يجوزها إلا أخف الناس حملاً من متاع الدنيا!!

●●●

وتنحسر الرغبة من قلب الزوجة الراضية.. ويكفيها أن يبقى «الرجل» أن يبقى «الزوج».. ففي وجوده.. لا يكون هناك في الدنيا ما تبكي عليه!

●●●

إن حسابات الزوجين هنا قـائمة على أساس سليم وهو: أن هناك دارًا هي الحيوان.. فيجب أن نستعد لأهوالها.. بالتخفف من أثقال الدنيا.

ومهما فاتنا من مناعم هذه الحيـاة الدنيا.. فخطبه هيِّن ما دامت هناك مودة تربط على القلبين. فالمهم هو إصلاح ذات البين.

إن ملائكة السماء لتتمنى أحـيانًا أن تتنزل من سماواتها العلا.. لتكون من أهل الأرض.. لعظم ما تراه من ثواب الأعمال فيها.. وفي مقدمتها.. إصلاح ذات البين!!

وأجمل بهذا الإصلاح إذا كان بين زوجين.

وإذا كـانت الأشـياء تتـميـز بأضدادها. . فـإننا نقـابل هذه الصـورة المشرقة. . بصورة أخـرى مظلمة. . تظهر بكدرتها حسن سابقـتها. . لتعلم الزوجـات إلى أي حـد كـان الوفـاق. . خـيـر مـا نطلب من أرازق. وفي غيابه. . فإن الحياة لا تطاق!

سألت الزوجة زوجها نقودًا. فقال لها غاضبًا:

نقود. . نقود؟!

النقـود هي كل شئ تطلبينه. . لـيتني أسـتطيع أن أعطيك عقـلا بدلاً منها!

فقالت آسفة كاسفة البال:

إنني أطلب ما أعتقد أنه موجود عندك!!

ثم قامت الدنيا .. ولم تقعد.. إلا بالطلاق!!

•••

إن الزوجة هنا تطلب ما لا تسمح به مـيزانية البيت. . وهي تعلم ذلك فأهل مكة أدرى بشعابها. .

فكان لابد أن يصفعـها الزوج بهذا الرد القاسي. . المنتـهى بتبادل تهم همـا منهـا براء. . ثم يكون الفـراق. . بسـبب مـا أحـدث الاتهـام من «جروح». . لا. . بل من «جراح» ذلك بأن الجروح متـعددة. . ومتقطعة. . أما الجراح. . فهي ممتدة. . بسبب هذه «الألِف» ذات الصدى الصوتي المديد!

إن هناك في شخصية الزوج مناطـق محظورة: ممنوع الإقتراب منها. . أو تصـويرها. . كـبـعـض المناطق العـسكرية. . ولـكن بعض الأزواج

يقتحمونها . . فيقع المحظور . . وقـد يحاول الاعتذار . . ولكنه الاعتراف بعد فوات الأوان :

إنه لا يرد ما فات ولا يحيي الموات!

•••

وإذا كان من مقررات الشريعة أن «الجُعل»[1]. في حجره كاد أن يعذب بذنب ابـن آدم . . فكيف إذا كـان الذنب في حـق الرفـيـق . . حق الزوج الوثيق . المعين على وعثاء الطريق؟

إنه أثقل حملاً . . وأعظم مسئولية .

•••

لقد جـاءت الزوجة الوفية الأبيـة تشكو إلى الرسول ﷺ بثَّها وحـزنها قائلة :

ولكني أكره الكفر في الإسلام!

لقد اعتبرت مخالفة زوجـها كفرًا . . وهكذا وفي أحرج لحظات حياتها لا تنسى أن تكون وفيـة أبية . . تعلم بنات زوجها فن الوفـاء في زمان ضاع فيه الوفاء

•••

ولقد كانـت بهذا الوفاء وهذا الولاء أسعـد من أختها الحضـرية . بهذا القلب الوسـيع الذي يُعلِّم الزوجة أن توسـع من قلبهـا لتحـترم رفـيقـها . احترامه إن فاتها حبه . . ثم وبيدها تهد هد طفله قائلة :

أحبك . . والرحمن... حب قريش لعثمان!

(١) الجُعل : الحرباء .

أزواج تحت مستوى النظر

كان الموظف الكبير يتـأمل وجه الموظف الأكبر فيقرأ في مـلامحه ماذا يريد. . فكان ذلك الرجل الذكي الألمعي. . والذي عناه الشاعر بقوله:

الألمعي: الذي يظن بك الظن. . كأن قد رأى وقد سمعا!

•••

وبهذه الألمعـية. . تجاوز كثـيرًا من لحظات الصدام. . وعاش مـعه في وئام. .

•••

قالت نفسي:

ولماذا لا يكون الزوج. . ولا تكون الزوجة كـذلك أن يتحرى كـلاهما رغبة صاحـبة. . ليسارع في رضاه. . لماذا لا نحاول الاحتـفاظ بأعصابنا. . حتى لا تحترق في أتون الخلافات الزوجية؟!

أليست أعصابنا أغلى ثمنًا. . من كل ما نتقاتل عليه من أمور البيت؟!

•••

إذا كان ولا بد من خلاف. . فـليكن الخلاف علي قضية تـستأهل هذا الخلاف. . أمـا العبث بهذا الميـثاق الغليظ. . ومحـاولة نقضه من بعـد قوة فذلك تلاعب بالعروة الوثقى. . التي اجتمـعنا عليها. . وبكلمة الله. وعهد الله سبحانه:

كانت أم الحجاج زوجة للمغيرة بن شعبة ﷺ فرآها يومًا «تخلل» أسنانها بكرة.. فقال لها: أنت طالق والله!

لئن كانت هذا من غذاء يومك.. لقد شرهت.. وإن كان من عشاء أمسك.. لقد أنتنت!

فقالت:

لا يبعد الله غيرك! .. والله ما هو إلا من السواك!

وانتهت المعركة بالطلاق!

•••

لقد كان على الزوجة هنا أن تعي نصيحة الأم لابنتها:

لا يشم منك إلا أطيب ريح..

ولا تقع عينه منك على قبيح!

لكنها لم تع النصيحة.. فحدث المحظور.. بعد ما أرت زوجها من نفسها ما كرهه!

ويتحمل الزوج هنا مع زوجته عبء هذه النهاية الأسيفة، وكان من الممكن أن يتجاوزها بحكمته.. وحنكته..

•••

ولقد تكون الزوجة شابة.. بينما يكون بعلها شيخًا.. يتخذ من العصا رِجْلاً ثالثة؟!

ولكنها قبلته إبتداء.. وبلا إكراه..

إلا أنها رأت فـتية أهجن فيـها الشجن فـقالت على مســمع منه مالي وللشيوخ. . الناهضين كالفروخ؟!

فقال:

ثكلتك أمك:

تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها. .

أما وأبيك: لرب غـارة شهدتهـا. وخيل وزعتـها. وسبـية أردفتـها. وخمرة شربتها:

إلحقي بأهلك. . فأنت طالق!

ويبدو أن قرار الطلاق كان حـازمًا لا رجعة فيه. . وذلك مـا يشير إليه قوله مؤكدًا هذا العز مدافعًا عن شيخوخته:

تهزأت أن رأتني لابسًا كبرًا

وغاية الناس بين الموت والكبـرَ

فإن يكن قد علا رأس وغيرَّه

صرف الزمان وتغيير من الشَّعر

فقد أروح للذات الفتى جذلاً

وقد أصير بــــــــها عينًا من البقــــر

عني إليك. . فإني لا يوافقني

عور الكلام ولا شــرب على الكـــدر

وهكذا.. تنفصم العـروة الوثقى أمام هجمـة الشهوة العارمـة، وكان الظن أن تفي الزوجة الشابة بعهدها.. لكنها لم تفعل فكان ما كان.

•••

بل إن الميـثاق الغليظ قـد يخف في تقـدير ناس ينقضـونه هكذا وبلا سبب:

بينمـا كـان ثلاثة رفـاق في موطـن يقال له.. «بـطياثا» من أمـصـار «دجلة».

فقال أحدهم:

نلنا لذيذ العيش في «بطياثا».

فقال الثاني:

لما حثثنا أقداحًا ثلاثًا

فقال الأخير:

وامرأتي طالق ثلاثًا!

•••

وبهذه البساطة.. يتلاعب المتلاعبون بالميثاق.. الغليظ وقد يندمون.. ولكن بعد فوات الأوان!

ولئن صح ذلك.. أيام الجـاهلية الأولـى.. فإن الجـاهلي منطقي مع نفسه.. أما المسلم.. فقد كان الظن به أنه يرتفع به إسلامه فوق هذه النزوة الطارئة.

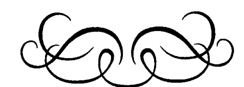
أجل.. في الجـاهليـة [كـانت المرأة ألعـوبة فـي يد الرجل: يضـارها

بالطلاق ما شاء أن يضارها. فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع].

الإسلام الذي غالى بعقد النكاح.. وبقيمة المرأة.. التي وإن وصفها بأنها «تكفر العشير» فإن ذلك لا يعني نقصها.. ولا رفضها..

وإنما هو التحذير من سوء المصير.. لو أنها لم تحسن تبعلها لرجلها..

إن الإسلام لا ينفض يديه منها.. كما وأنه لا يرفض بقاءها مهما بدر منها.. ألا وإن غياب الزوجة المشاكسة لمصيبة كبرى.. فكيف يكون لو كانت طيعة خاشعة؟!



زوجة اليوم مطلقة الغد!!

في بعض الدول الأجنبية ـ وفي طليعتهـا السويد ـ يعسر الحصول على شريكة الحـياة. . بسبب غـياب دور الأسرة في البـحث والتنقيب عن الزوج المناسب:

لأن دور الأسرة هناك ينتـهي ببلوغ الفتاة والفـتى على السواء. . ومن ثم. . يتعثر الفتى في بحثه عن شريكة حياته. .

وقد تطول مدة الاخـتبار. . بعد ما طالت مدة الاخـتيار. . إلى درجة المعـاشرة الزوجـية قـبل الاقتـران النهـائي. . وكان لابد أن تفـشل علاقـة الزواج. . ثم يكون الطلاق!

●●●

والغريب حقًا:

أن يكون الطلاق أسهل في إجراءاته من الزواج هناك؟!

فما على الراغب في الطلاق ـ زوجًـا كان أو زوجة ـ إلا أن يملأ بطاقة معـدة للطلاق. ثم ينتظر ستة شهـور يصبح بعدها الطلاق واقـعًا. . ويحق للمرأة أن تطلق زوجها تمامًا مثلما يمارس الرجل هذا الحق.

●●●

سبب الخلل:

وقد يرجع البـعض سبب هذا الخلل إلى ضعف التـدين. . وقد يكون

السبب هو الرفاهية من وراء زيادة الدخل هناك . .

ويرى بعض الباحثين:

أن الدولة هناك هي السبب. لماذا؟

فالدولة تضمن للمطلق:

أ ـ إعانة لإطفاله حتى البلوغ.

ب ـ ثم رعاية صحية لا يتحمل الوالد فيها شيئًا.

جـ ـ هناك نظام كامل لرعاية المسنين. . وأصحاب المعاشات. .

كل هذه المغريات زهدت في الرباط الأسري. مـا دام حق الحياة الآمنة مكفولاً.

●●●

من آثار هذا الاتجاه:

نشأ الجيل الجـديد زاهدًا في الأسرة. . التي قد تكون سـبب الشقاء. . لا مصـدر الهناء. . وقد يدعم هذا الاحـساس. . مـا يكون من الآباء الذين يطردون أبناءهم وبناتهم بـعد البلوغ مـباشـرة. . ليـعتـمدوا من بعـد على أنفسهم، وأغرب ما في الأمر ـ كما يقول باحث ـ

أن يكون الزواج هو الخـطوة الأولى نحـو الطلاق. . الـذي يكون هو القاعدة. . بينما الزواج هو الاستثناء!

●●●

أما في الإسلام:

فإن الله ـ عز وجل ـ يأمر الأزواج:

أولاً: بالمعاشرة بالمعروف. .

وثانيًا: وفي حال الكراهة. فلا تطلقوهن. فربما كان في الإمساك خير كثير.

يقول عز وجل ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. [النساء: ١٩].

والمعنى: لا تتعجلوا الطلاق. . واصبروا عليهن. ذلك بأن الاستجابة للهوى خسران مبين. . فشأن الهوى أنه لا يدعو إلى خير. . وإذا تأملت قوله تعالى «شيئًا» أدركت كيف عمم سبحانه الحكم. . ليشمل كل شئ. . تتميمًا للفائدة. .

والنتيجة:

عسى أن تكرهوا شيئًا. . وفيه الخير كله. . فأنتم لا تعلمون العواقب. . ولو أنه تعالى أعلمكم بالعواقب لسكنتم إلى المألوف. . ولنفرتم من كل مكروه. .

من أسباب الطلاق:

أ- قد تكون «الغيرة» هي «الغريم» المختبئ في حنايا النفوس. . مهددًا بالويل والثبور. . وإذن. . فالزوج محتاج إلى الحكمة يعتصم بها فرارًا من آثار الغيرة المتربصة:

ولا تعالج الغيرة بالأقراص. . لأنها أقراص «فوّارة» تذوب سريعًا. . ثم تبدو القضية على السطح مرة أخرى:

وقد تكون الصراحة بين الزوجين دواء هذا الداء العنيف. . فقد يكون ما صدر منا. . بلا وعي. . وعفويًا. . وعندئذ فسوف نتلافى في المستقبل

كل ما يؤذي شعور الطرف الطرف الآخر.. وفي الوقت المناسب.. وقبل أن تصير الحبة.. قبّة!

من تجاربي:

في مجالس الصلح كنت أسمع كثرة الإدعاء.. وكل يغني على ليلاه.

ثم يطول الكلام.. والملام.. فـإذا أنت أمـام ركام: أمـام كومـة من «القشّ» تبحث فيها عن «رأس دبوس»؟!

ورأس الدبوس هنا هو:

أن العروس لا تجيد الجلوس أمام «التنور» لإنضاج الخبز!!

ومع تفاهة السـبب.. لكنه أحيانًا يـكون تلك القشة التي تقـصم ظهر البعير. وأحيانًا.. نفتعل المشكلات لتكون هي الأطلال التي نتباكى عليها.

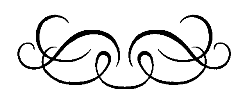
•••

وواجبنا أن نعلم ونرشد: و«كـذلك كنتم من قبل» فمَّن الله عليكم.. فتعلمتم ..

وواجبكم:

أن تجعلوا من شكر نعمة الله عليكم إن تعلمتم أن تعلموا الجاهل.

وترشدوا الضال.



خاتمة المطاف

●●●

غريب
طريح على باب الرجاء

أصر العجوز على الزواج.. حتى ولم يبق فيه إلا رمق من الحياة!

وقلت لأولاده الغضاب.. فيما يشبه العتاب:

دعوه.. يحقق أمنيته.. ولو كانت ليلة واحدة!

قبل أن يستحوذ عليه الشيطان فينسيه مركزه.. وسنّه.. ثم ترثون عار الأبد!

دعوه.. فالرغبة ملحة غلابة.. وفي قلبه ظمأ إلى الجنس.. ولابد من إروائه مهما لقى منكم وعودًا.. أو رعودًا..

إنه على ما يقول الشاعر:

ظمأ بقلبي.. لا يكاد يسيغه

رشف الزلال.. ولوشربت بحورًا

●●●

وفي تعليل ذلك يقول العقاد:

[وأخطر مـا يصـاب به الشـيوخ: هو أنهـم أسرع الناس إقـبـالاً على الزواج.. لهذا السبب: أي بسبب الإرهاق في التفكير.

ولذلك يستسلمون.. والحقيقة أنهم استسلموا مرة للإرهاق.

ومرة للنشاط العقلي الفائق عند المرأة التي يتقدمون للزواج منها.. فهم إذن: يستسلمون لضعفهم.. ثم يستسلمون لقوتها].

ثم يقول في تعليل المرأة:

[إن المرأة قد وضع الله في جسمها مكانًا لكائن آخر:

ومن أجل سلامة هذا الكائن الآخر، خصتها الطبيعة بالقوة.. ولذلك.. فليس صحيحًا أن المرأة جنس لطيف. بل هي جنس عنيف.. إذ كيف تقوى على احتمال هذه الآلام الشنيعة عند الولادة.. وفي كل مرة تحمل المرأة وتلد تقسم ألا تفعل ذلك مرة أخرى.. ثم تلد].

●●●

وقد نضيف إلى ما قاله عملاق الفكر الإسلامي:

إن الرغبة المشتعلة في العُجُز من الشيوخ. هي نوع من التشبث بالحياة.. الحياة التي تلملم أشعتها بين يدي الموت.. فإذا بالشيخ يحاول الرجوع إلى سابق عهده كما كان.. ليستأنف الحياة من جديد.. يستأنفها في أقوى البراهين عليها وهو: الزواج.. والتناسل.. ثم ومن بعد ذلك.. فليكن الطوفان!

●●●

ولكن العيب أن الرجل لم يحترم سنّه ولا طاقته.. وبدل أن يتزوج «سميرًا» يناجيه في الليالي الموحشة.. إذا به يتخير فتاة من أحفاده.. وكان عليه أن يتحمل نتيجة قراره العجول المتعسف!!

●●●

وفي التاريخ مواقف.. نسوقها.. تبصرة وذكرى:

يحكى عن رجل هـرم أنه كان قـد تزوج بفـتـاة.. ثم زين الحـجـرة بالورد.

وجلس مـعها بـالخلوة. وقيّـد بها عـينه وقلبه: لم يكن ينام الليـالي الطوال. وكان يقول المُلَح واللطائف. علّها لا تستوحش وتأنس.

ومن جملة هذا. كان يقول لها ذات ليلة:

إن بختك العالي كان مُعينًا ومـسعدًا.. وكانت عين إقبالك يقظى: إذْ وقعت في صحبة شيخ ناضج. مُربِّي ومجرِّب.

وقد ذاق من الدنيا: البارد والحار.. وجرب الحسن والقبيح:

يعرف حق الصـحبة.. ويـؤدي شرط المودة.. مشـفق ودود.. حسن الطبع. وحلو اللسان.

●●●

أستميل قلبك.. وأسترضيك ما استطعتُ وإن تؤذيني.. لا أوذيك!

وإن يكن طعامك السكّر.. مثل الببغاء.. فالروحُ الحلوة فداء تربيتك.

●●●

إن لم تأت أسيرة في يد شاب:

معجب بنفسه.. فاسد الرأي.. عنيد.. روّاغ.. فرّار.. متقلب..

ينضح على هنيـهـة هوسًـا.. ويقدم كل لحظـة رأيًا.. وينام كل ليلة بمكان.. ويتخذ كل ليلة حبيبة:

قال:

وقلت كـلامًا كـثـيرًا على هـذا النمط.. وظننت أن قلبـها جـاء في قيدي.. وصارت صيدي!

●●●

فصعدَّتْ فجأة نَفَسًا باردًا.. من قلب مفعم بالألم وقالت:

إن الكلام الكثـيـر الذي قلته.. لـيس له في ميـزن عـقلي وزنُ تلك الكلمة التي سمعتها مرة من قابلتي حيث قالت:

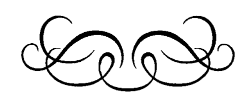
إذا استقر سهم في جنب المرأة الشابة.. فهو خير من شيخ!!

إن المرأة إذ تقوم من عند زوجـها غيـر راضية.. تقوم الفـتنة والحرب كثيرًا في هذا البيت.

والشيخ الذي لا يـستطيع القيـام من مكانه إلا بعصـا.. فالعـصا لمن عصى!

ألا إنها القوة.. وليست الذهب:

لأن «جزرة» واحدة.. أحب إلى المرأة من عشرة أطْنان من اللحم!



الشيخ
وزوجته الشابة

يقول السعدي الشيرازي:

[سمـعت أن شيخًا طاعنا في هذه الأيـام. عقد خيـاله بأنه يتزوج في حال شيخوخته . .

فتـزوج بنية حسناء اسمـها «جوهرة» وأخـفاها عن أعين الناس . . ثم هيئت كما كان رسم العروس . .

ولكن:

وُتر القوس . . ولم يصب الهدف!

لأنه لا يمكن خياطة الثوب السميك إلا بالإبرة الفولاذية!

فشرع يشكو إلى الأصدقاء، ثم قال:

هذه الوقحة كنست ثروتي تمامًا .

وقـامت الحرب والفـتنة بين الزوجين . . بحـيث انتـهتـا إلى الشِّـحنة والقاضي .

قال السعدي:

وبعد الخلاف . . ما ذنب الفتاة؟

أنت الذي ترتعش يدك . . كيف تستطيع أن تثقب الجوهر؟!

●●●

وفي الجملة : لم تمكن الموافقة. وانتهى الأمر بالمفارقة. فلما انقضت العدة. عقدوا نكاحها على شاب:

كالح الوجه. صفر اليـدين. سيئ الخلق. فكانت ترى الجور والجفاء. وتقاسي الألم والعناء. وتشكر نعمة الحق قائلة:

الحمد لله إذ نجوت من ذلك العذاب الأليم. إلى هذا النعيم المقيم!!

●●●

ونطق لسان الحال:

إحتراقي في العذاب معك. . خير من ذهابي إلى الجنة مع غيرك!

"صنان البــصل" من فم الحــسناء. . يجئ أطيب مـن الورد في يد الشوهاء.

ومع كل هذا الجور. وحدة الطبع. احتمل ولأنك. . لأنك جميل.

●●●

لقد أغمض هؤلاء المتصابون أعينهم فلم يقرؤا الواقع جيدًا. .

وكـان لـهم من سـول لـهم خـوض تجـربة فـاشـلة من الشـعــراء الحالمين. . والذين قالوا:

[لا ترج الوفاء من البلابل   فإنها تغني كل لحظة على وردة أخرى

الفتيان رشـيقوا الحركة. . ومحبوبون. . ولكنهم لا يقـيمون على الوفاء لأحد. خلاف الشيوخ.

فإنهم يعيشون بالعقل والأدب. . لاعلى مقتضى جهل الشباب].

أطلب أفـضل منك. . وعـد ذلك فـرصة. . فـإنك مع مـثلك تضـيع أيامك!

هذا الندم الذي عض ذلك العجوز المتصابي والذي يقول:

[لا يكون للأصحاء ألم الجريح.. فلا أشكو ألمي لغير مشارك في الألم.. والحديث عن «الزنبور» بغير طائل مع شخص لم يلسع مرة في عمره. ما لم تكن لك حال مثل حالنا.. فحالنا عندك خرافة ليس أكثر..

لا تقس ألمي بألم شخص آخر:

هو: الملح على كفه..

وأنا: الملح على عضوي الجريح!

أنت لا تأتيك رحمة على ألمي

ينبغي أن يكون رفيقي له نفس الألم

لأحكي لك قصتي ليل نهار.

أريد صدرًا ممزقًا من الفراق.. لأشرح له ألم الاشتياق].

●●●

وقد كان هناك «شيوخ» عقلاء.. كانوا واقعيين. لا يحبون أن يأخذوا زمانهم.. وزمان غيرهم من الشباب، ومنهم ذلك الشيخ الذي قيل له:

لم لا تتزوج؟ فقال:

لا ألفة لي بالعجائز..

قيل له: تزوج شابة. مادامت لك مُكنة.

فقال: لا ألفة لي أنا الشيخ بالعجائز. فكيف يمكن لمن تكون له شابة

أن تحبني أنا الشيخ؟!

●●●

ومنهم ذلك الشـيخ الأبي. . الذي رفض أن يعـيش تحت رحمـة أنثى سامته سوء العذاب فقال:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى... وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد؟

وألقاك جسمًا مستباحًا. وطـالما

لقيتك جم الخـوف. جم التــردد

إذا لم يكن بد من الحان والطلى

ففي غير بيت. كان بالأمس معبدي!

●●●

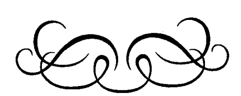
ولقد كان في ذلك منطلقًا من قاعدة تقول: [هناك قوتان متناجزتان. . لم تشغل الميدان قوتان: أكبر منهما:

عقيدة. . وشهوة

نسك. . وفتنة

جـسـد تمرد من فـرط الحـرمــان. . وروح. تمردت من فـرط المتـاع والشهوات. ولقد رزقْت فتنة قوية. ولم ترزق عظمة قوية.

فلم يزل عزيزًا لديها أن تنخذل بالفتنة أمام العظمة. ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمام كل سلاح].



صوت الحكمة

فإذا صـرت شيخًا . . فـأقصر يدك عن التصـابي ودع اللعب والظرفة للشبان . .

لا تتطلب من الشـيخ طرب الشـاب اليـافع . . لأن الماء الذاهب . . لا يعـود إلى النهر . . إذا حـان للزرع وقت الحصـاد . . لا يتمـايل ولا ينثني . كالخضرة الجديدة!

الجواد العربي يمضي مسرعًا مطلقًا . . والجمل يسير متمهلاً ليل نهار

•••

إن الحب بين الزوجين لن يتنامى . . إذا لـم يكن هناك انسجـام . . هذا الحب الذي ينبغي أن يمتد: عمقًا . . في القاع . واتساعًا في كل الأصقاع . .

•••

إن الحب إذا لم يتجدد . . تبدد، وإذا لم يُضاعف . . ضعُف!

•••

وبضدها تتميز الأشياء

•••

وفي الصورة المقابلة . . ترى نماذج طيبة لرجـال أحرار . . تجاوزوا المتعة الصغـيرة . . حين نسـوا أنفسهم . . ثم كـانوا معـوانًا للشبـاب على أمر الله تعالى . .

وإذا «يخطف» المتصـابي.. هذه الفتاة بماله.. فـإن هؤلاء الأحرار.. كانوا هم الأبرار.. بمـا نسوا من حظوظ أنفسـهم.. وتذكروا حق الشـباب عليهم.. فأسهموا بهمتهم في حل مشكلة الزواج...

وحين تجف الموارد.. ويستـحيل اللقاء بين الفرقاء.. فـإنهم يتدخلون في اللحظات العصيبة.. فـاجتمع بهم الشمل.. وتكونت بهم أسر.. على تقوى من الله ورضوان:

أقسم عـمر بن أبي ربيعة أن يتـوب فلا ينظم في الغزل بيـتًا واحدًا.. ولو قال بيتًا في الغزل.[لأعتق في مقابله عبدًا من عبيده].

•••

وذات يوم كان يطوف بالكعبـة.. فوجد شابًا وشابة يتناجيـان فاقترب منهما وقال:

ما شأنكما؟! فقال الشاب:

حبيبان!!

قال: فلماذا لا تتزوجان؟

قال: أبوها يغالي في مهرها.

فقال: كم يريد؟

قال: مائة دينار.

فقال: قوما بنا إليه.

وقام ثلاثتهم إلى والد الفتاة. وقدم إليه المهر وتزوجها.

لكن عمر عاد إلى بيته فلاحظت زوجته أنه عاد بغير الوجه الذي ذهب به!

فأنشد ستة أبيات منها:

تقــــول ولـيــــدتي لما رأتني	طربت.. وكنت قد أقـصرت حينًا
أراك اليـوم قـد أحـدثت شـوقًا	وهاج لـك الهـــوى داء دفــينا
وكنت زعـــمت أنك ذو عـــزاء	إذا مــا شـئت فـارقت القــرينا
بربـك: هل أتاك لـهــا رســول	فـهـاجك. أم لقـيـت لها خـدينا
فــقلـت: شكا إلـى أخ مــحب	كــبــعض زمــانـنا إذ تعلمــينا
فــقص عـلى مــا يلـقى بهـند	فــذكــرّ بعـض مــا كنا نســينا
وذو الشــوق القـديم ولو تـعـزّى	مـشـوق حـين يلقى العـاشـقـينا

•••

ثم أعتق تسعة أعبد.. بكل بيت عبدًا!!

قال ابن الجوزي في «أخبار الظرفاء»:

في بغداد.. خرج رجل فقصد يتعرج على الجسر.. فأقبلت امرأة من الجانب الغربي فاستقبالها شاب وقال لها: رحم الله عليّ بن الجهم.

فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري!؟

ومرًّا.. فقـال: فتتبـعت المرأة. وقلت لها: إن لم تقولي ما قـلتما.. فضحتك!

فقالت: قال لي: رحم الله على بن الجهم.. يريد قوله:

عيون المهابين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بترحمي على أبي العلاء.. قوله:

فيادارها بالحزن . . إنَّ مزارها

قريب . . ولكن دون ذلك أهوال!



عندما يكون الزواج تجارة.. وشطارة

هناك نماذج كاذبة خاطئة . . تجعل من الزواج تجارة أو شطارة . .

عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال:

[ما خدعني أحد قط . . غير غلام من بني كعب: فقد ذكرت إمرأة منهم فقال الغلام: أيها الأمير لا خير لك فيها! :

لقد رأيت رجلاً خلا بها . . فقبلها . !

يقول المغيرة: ثم بلغني من بعد أنه تزوجها!

فأرسلت إليه فقلت: ألم تخبرني بأنك رأيت رجلاً يقبلها؟!

فقال الفتى: بلى:

رأيت أباها يقبلها!!].

●●●

وعندما قرأت هذا الموقف . . انقدح في ذهني نهيه ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه . . مغالاةً بعلاقة الزوجية . . التي ينبغي ألا تكون سلعة خاضعة لمثل مساومات التجار في الأسواق.

●●●

ومع هذا . . فمازال هناك من يحتال . . ثم يغتال هذه العلاقة في عنفوانها . . حتى يفوز بزوجته سوف تكون وبالاً عليه . . لأن النهاية ثمرة البداية . .

بل إن هذا الاحتيال قد ينحط إلى درك الخيانة.. ومن ذلك ما ورى

●●●

من أن فتى سأل صديقه:

هل ما زالت الفتاة التي تخطبها تراوغك؟

قال: نعم.

فقـال له صديقـه: لماذا لم تقل لها: إن عـمّك غني جدًا.. وعـجوز جدًا.. وأنا وارثه الوحيد؟!

فرد عليه صاحبه قائلاً:

ياصديقي: لقـد قلت لها ذلك.. فـسارعت إلى عميّ هذا فـعرضت عليه نفسها.. ثم تزوجته!!

●●●

ولله في خلقه شئون!



الفهرست